رواد الاستراتيجية الحديثة

الفكر العسكري من مكيافيللي إلى هتلر

الكتاب الرابع

تأليف

إدوارد ميد إيرل وآخرين

ترجمة وتقديم

العميد أركان الحرب

محمد عبد الفتاح إبراهيم

المشتركون في هذا الكتاب

١ ـ *ديرونت وتيليسي:*

حائز على درجة الدكتوراه من جامعة شيكاغو ـ أستاذ الجغرافية بجامعة هارڤارد ومستشار وزارة الحرب.

مؤلف كتاب «**الأرض والدولة**»، والكتاب ضمن مجموعة كتب الدراسات العامة للقوات المسلحة الأمريكية ويحمل رقم ٢٣٤ E. M بين سلسلة كتب التعليم.

٢ ـ *مرجريت تتل سبروت:*

نالت إجازة البكالوريوس من جامعة أوبرلين، ودرجة الماچستير في التاريخ من جامعة ويسكونسين.

زوجة المؤلف هارولد سبروت من ٦ أغسطس ١٩٢٤، ولها منه ولد وثلاث بنات: فرانسيس ـ كريستينا ـ إليزابيث (معجم الشخصيات ص ٢٦١٦).

اشتركت مع زوجها في تأليف كتابين من أهم ما كتب عن البحرية هما:

ـ نهضة القوة البحرية الأمريكية. وصدرت منه طبعة منقحة سنة ١٩٤٣ .

ـ نحو نظام جديد في القوة البحرية. صدر سنة ١٩٤٦ وصدرت منه طبعة منقحة سنة ١٩٥١ .

٣ـ تيودور روب:

حاز على درجة الماچستير من جامعة أوبرلين، ونال الدكتوراه من جامعة هارڤارد. باحث في دراسات الاستراتيـچية البحرية.

تعلم بوزارة البحرية الفرنسية وبالكلية البحرية الفرنسية عضو قسم التاريخ بجامعة ديوك، يتولى الآن تدريس برنامج التدريب البحري.

٤ - إدوارد وارنر:

مهندس، ولد في بيتسبورج يوم ٩ من نوفمبر سنة ١٨٩٤، نال البكالوريوس من هارڤارد سنة ١٩١٦ ومن ماساشوستس سنة ١٩١٧: حصل على درجة الدكتوراه في العلوم من جامعة نورويتش سنة ١٩٣٨.

خدم كمهندس جوي في الجيش الأمريكي سنة ١٩١٨، وعمل مستشارًا في شئون الجو ١٩١٩ / ١٩٢٠، عضو مجلس الطيران المدني سنة ٣٩ / ٤٥، تولى منصب نائب رئيس المجلس ٤٣ / ٤٥، رئيس مجلس الطيران المدني الدولي ١٩٤٧ ـ ١٩٥٧.

نال أوسمة من حكومات البرتغال، ڤينزويلا، إيرلنده، دومينيكا، اليابان، البرازيل، يحمل وسام الأرز من لبنان.

نال جائزة أمن الطيران سنة ١٩٥٦.

مؤلفاته: «**إحصائيات الجو**» سنة ١٩٢٦، «**تصميم الطائرات**» سنة ١٩٢٧.

«**معجم الشخصيات لسنة ١٩٦٠ ص ٢٨٩٤**».

٥ ـ ألكسندر كبرالفي:

باحث مجد في الدراسات العسكرية والشئون البحرية، يسهم

باستمرار في المجلات العسكرية بكتاباته، يتولى التعليق العسكري في مجلة «**آسية**».

له كتاب «**النصر في الباسفيك**».

٦ـ إدرارد ميد إيرل:

مستشار خاص للسلاح الجوي الأمريكي، محاضر بكلية أركان الحرب، مستشار معهد الدراسات العليا في برنسيتون، رئيس مجموعة الدراسات العليا بجامعة برنسيتون.

حاز درجة الدكتوراه من جامعة كولومبيا.

٧ـ محمد عبد الفتاح إبراهيم:

عميد أركان حرب ـ ماچستير في العلوم العسكرية دبلوم الدراسات العليا في التاريخ والآثار السودانية من كلية الآداب بجامعة القاهرة.

كان أستاذ التاريخ العسكري في الكلية الحربية في فجر حياته العسكرية، وكانت آخر وظيفة شغلها في القوات المسلحة هي رئيس أركان الحرب للفرقة الأولى المشاة، وآخر وظيفة شغلها في الوظائف المدنية هي سكرتير عام وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

كان رئيس تحرير مجلة المشاة وعضو لجنة تحرير مجلة الجيش.

صحفي من فجر حياته، وله عدة مؤلفات جلها في الشئون العسكرية منها «**محمد القائد**» «**بين حربين**» «**الخوف والإجهاد في المعركة**» «**الحرب البرقية**» «**الحرب الأهلية الأمريكية.. ملاحظات على القادة والمعارك**»، «**التحركات والوقاية الجوية**»، «**حديث في الاستراتيـچية**»، «**الحرب بين الماضي والحاضر**»، «**القرن العشرون**»، «**أفريقية ـ من السنغال إلى نهر جوبا**».

مصمم الغلاف:

كمال الملاخ: تخرج في قسم العمارة بكلية الفنون الجميلة وعين معيدًا بها، وشغل في وقت فراغه منصب الناقد الفني لجريدة الأهرام سنة ١٩٥٠، كما عمل رئيسًا للقسم الفني بدار أخبار اليوم سنة ١٩٥٢ . نال درجة الماچستير في فقه اللغة المصرية القديمة من معهد الدراسات العليا للآثار بجامعة القاهرة. عين مديرًا لأعمال مصلحة الآثار. اكتشف مراكب الشمس في صيف سنة ١٩٥٤ . تفرغ للصحافة عضوًا في مجلس تحرير جريدة الأهرام، وهو المعلق اليومي لها الآن.

محتويات الكتاب

مقدمة

هذا هو الكتاب الرابع والأخير من المجلد الكبير الذي قدمه إدوارد ميد إيرل عن «**رواد الاستراتيـچية الحديثة**» واشترك معه في تحرير مادته أكثر من كاتب من الأعلام الأخصائيين، كل يعتبر حجة في الموضوع الذي عرض له بالدراسة.

ولقد بدأ هذا الكتاب الرابع ـ في ترجمته العربية ـ بالدراسة الخاصة بعلم «**الـچيوبوليتيكا**» سياسة الكرة الأرضية في سياق سرد التاريخ لحياة علم من أعلامه هو الـچنرال الألماني الأستاذ كارل هوزهوفر، وإيضاح لتعاليم مدرسته، وكيف أن الحرب قد جاءت بنظريات السياسي الجغرافي إلى ساحة السياسة العملية.

و «**الـچيوبوليتيكا**» اليوم، (علم العلوم) العسكرية، لو جاز لنا أن نصطنع هذا الاصطلاح، فالمعرفة بجغرافية العالم ومؤثرات البيئة من الأسس والدعامات للاستخدام الصحيح للسياسة القومية في الحرب والسلم؛ ذلك لأنها تعنى بالمواد والحقائق التي يجب أن توضع موضع التقدير في البرنامج الواقعي القومي.

ولقد كان هذا العلم القديم في كيانه الجديد في إبرازه وتقديمه هو الذي جاء بالمصطلحات: «**أور ـ أفريقية**» ـ «**أور ـ آسية**» ـ «**بأن أمريكا**» ـ «**الأرض الداخلة**» ـ «**قلب العالم**» ـ «**منطقة الحياة**» ـ «**الاتجاه للشرق**» ـ «**المجال الحيوي**» ـ «**الاكتفاء الذاتي القومي من الناحية الإقتصادية**» ـ «**المدافع بدلاً من الزبد**» ـ «**القوى البرية ضد القوى البحرية**» ـ «**الجنس السائد**» ـ «**الحواجز السياسية العسكرية**» ـ «**منطقة التجارة**» ـ «**المنطقة**

الثقافية» ـ «**دور الأقليات فيما وراء البحار**»؛ لقد جاء العلم بهذه المصطلحات والكثير غيرها مما يضيق عن الحصر في هذا التقديم المختزل، وجاء بهذا في معان جديدة مستحدثة أو أبرزها دون أن يكون لها وجود سابق في دنيا الأمس، وكانت أصول هذا العلم هي التي وجهت تحركات هتلر والنازية، وقد انحدر هتلر إلى هاوية الفشل عندما انحرف عن الطريق السوي الذي رسمه العلم في تصوير كارل هوزهوڤر ما في هذا من شك.

صحيح، قد يكون ديرونت ويتليسي قد عني العناية كلها ـ في حديثه في الفصل الخامس «**الـچيوبوليتيكيين**» علماء سياسة الكرة الأرضية ـ بألمانيا النازية، ولكنه قد أحسن تقديم الأصول والمبادئ بالصورة التي تجعل من فصله هذا كتابًا قيمًا يصلح أساسًا لدراسات أوسع.

ويثير هذا الفصل مسألة الصفحات الطوال التي جاءت في كتاب «**كفاحي**» لهتلر ترسم فلسفته في الحكم والعمل لاتساع رقعة ألمانيا وإقامة ألمانيا الكبرى، وما يقال من أن كارل هوزهوڤر هو الذي أملاها على هتلر عندما كان يخط سطور كتابه وهو رهين المحبس لجريمة سياسية في تقدير حكومة جمهورية ڤيمر، وما قام من نقاش وجدل فيما إذا كان هذا الزعم صحيحًا أو كان هتلر هو أصلاً صاحب الآراء التي جاءت في الكتاب، ولكن ليس هذا بالأمر المهم لأن الكتب التي تخرج للناس محددة فلسفات الزعماء لا يضيرها من الذين أملوها أو من الذين كتبوها، لأن أهميتها في مدى اتباع الزعماء لهذه الآراء والمبادئ التي رسموها للمستقبل وهم لم يصلوا بعد إلى القوة وإلى السيادة والحكم(*).

(*) أود أن أشير هنا إلى أن الكثير من المصطلحات العلمية المستخدمة في علم (الـجيوبولتيكا) سياسة الكرة الأرضية ليس من السهل أن تترجم على العربية بكلمة=

على أن لهذا (الكتاب الرابع)، هذا الجزء من دراسات الاستراتيـچية الحديثة، طابعه المميز، ذلك لأنه يعرض لمناقشة الأمرين اللذين يعنى بها الباحثون اليوم تبعًا للتطورات السريعة التي عرضت لها طبيعة الحرب في البحر والجو، هذه الأسس التي لم تغير منها التطورات الحديثة وإن كانت قد أكسبتها طاقة ومرونة كان لهما آثارهما في عاملي: «**الوقت**» و «**المسافة**».

ولقد ناقش الرجل آراء اثنين من الضباط المحترفين الأمريكان هما: الأدميرال ماهان والـچنرال ميتشل، ويعتبر هذا تقديمًا فيه تكريم للناس الذين شغلوا بالحرب إلى حد كبير أو صغير، منذ أن نزل المستعمرون الأولون بسواحل أمريكا.

والفكرة هنا أن أمريكا لم تسهم في صناعة الحرب إلا في ميداني التكتيك والتكنولوچية، وأسهمت فيهما أكثر من إسهامها في ميدان الاستراتيـچية، وقد أخرجت أمريكا في ميدان التكنولوچية العسكرية البندقية والرشاش الآلي اللذين يمكن استبدال أجزائهما بغيرها، كما أخرجت المنطاد والجرار للدبابات والمظلة التي يهبط بها الجنود من الجو، وقاذفة القنابل المنقضة والغواصة والطائرة.

ولما كانت «**الحاسة الآلية**» تتوافر للأمريكان بالقدر الذي جعل إيمانهم بالآلة أشبه ما يكون بالعقيدة الدينية، لهذا فإنهم سبقوا غيرهم إلى حشد

=واحد على مثال ما هولها في اللغة الإنجليزية مثلًا، ولهذا كان من الضروري ترجمتها الترجمة التي توضحهها تمامًا بكلمة أو بأكثر تبعًا للحاجة، وسيمكن مستقبلًا بعد تعدد ظهور الدراسات بالعربية لهذا العلم إعداد مصطلحات بالعربية يتعارف عليها الدارسون العرب. على أنني قد عنيت بإضافة الكلمة الإنجليزية كمرجع لمن شاء المزيد من الدراسة في المؤلفات الغربية. «المترجم».

الإنتاج وكانوا إلى حد كبير آباء الطائرة المقاتلة، ولم يكن «**الأخوان رايت**» فحسب هما اللذان اخترعا الطائرة، بل كان من صنع أمريكا أيضًا الآلة التي تسير بالغازولين والتي مكَّنت من تطور الطائرة من شيء بدائي إلى قاذفة القنابل ذات المحركات الأربعة، ولكن أمريكا لم تقدم للعالم (كلاوزيـڤتز) آخر، ولا (ڤوبان) ثانيًا .. إلا أنه من الممكن أن نقول بأن ماهان لم يقل عنهما شهرة في ميدان النظريات العسكرية الخاصة بالحرب في صورة من صورها.

والواقع أنه لم يؤثر فرد في نظرية القوة البحرية وفي الاستراتيـچية البحرية بأكثر مما أثر «**ألفريد ثايار ماهان**» في هذا بكتبه الثلاثة التي عرضت للقوى البحرية وأثرها في التاريخ والحرب، ودورها في تكوين الإمبراطوريات من منتصف القرن السابع عشر حتى فجر الحقبة الثانية من القرن التاسع عشر. ولقد تولى «**ماهان**» توجيه الثورة في السياسة الأمريكية البحرية، ووضع الأسس النظرية لدور بريطانيا في محاولة السيطرة والسيادة على البحار، وأعطى سياسة التطور البحري في ألمانيا تحت حكم «**غليوم الثاني**» والأميرال «**تيربتز**» دعامات قوية، وأثرت كتاباته بصورة ما في طبيعة التفكير البحري في فرنسا وإيطاليا وروسيا واليابان وغيرها من الدول التي قد تكون دونها قوة ومكانة.

على أن «**ماهان**» كان بالإضافة إلى هذا مؤرخًا له مكانته، وكان في نفس الوقت داعية لا يبارى يقف من الاستعمار والإمبريالية موقف العداء، ولعله سبق غيره في الحديث عن أن الإمبراطوريات الاستعمارية مصيرها إلى التمزق.

* * *

ولقد قيل في وقت ما إن الطائرة قد قضت على البارجة، واستطاعت بعض الطائرات اليابانية الصغيرة بعمليات انتحارية أن تغرق بوارج ضخمة لم يكن يفكر أحد في إمكان قهرها، ولكن برغم هذا، وبرغم قلة ما شهد العالم من معارك بحرية واسعة في الحربين العالميتين، فإن الاستراتيـچية البحرية بما في عملياتها من قتال ونقل وتموين وإمداد وإنزال للجنود لا تزال اليوم لها مكانتها كما كانت بالأمس، فقط، مع الاستحداثات في السفن والإكثار من سفن الأعماق (الغواصات) التي تسير بالطاقة الذرية حاملة المقذوفات الصاروخية والتي تعتبر قواعد أمامية تتوافر لها سرعة ومرونة لا تتوافران حتى للطائرات.

***

وقد لا يستطيع الفرد أن يتحدث بدقة عن النظريات الخاصة بالقوة الجوية والأصول الاستراتيـچية التي جاء بها هذا الاستخدام، سيما عندما نخرج من الحديث عن الاستخدام العام للسلاح الجوي في طابعه التقليدي الذي عرفته الحربان العالميتان مع تقدير ما يمكن أن يكون له في مدى التطور التقدمي العادي لسلاح من أسلحة الحرب، عندما نخرج من هذا إلى الاستخدام لطائرات ذات طوابع خاصة معينة محددة تستهدف أغراضًا رغم كثرتها تعتبر هي الأخرى بدورها معينة محددة، كطائرات الكشف والتصوير البعيد المدى وطائرات قياس الأعماق عند السواحل البحرية، وما إلى هذا من الصور المستحدثة التي جاء بها التطور في صورة الحرب المقبلة.

على أن أبرز ما يجب أن نذكره هنا هو أن العقيدة الأساسية التي قامت

عليها كل نظريات الحرب الجوية إنما تستند أصلاً إلى توافر «**السرعة**» و «**الارتفاع**» للطائرة، ومن ثم تتوافر لها قوة التدمير للمنشآت على البر أو على السواحل أو على سطح الماء على حين تبقى هي في أمن نسبي من أي تدبير مضاد مؤثر من الأرض أو من السفن.

فإذا ما أمكن تقبل هذه العقيدة كان من الضروري أن يوضع التخطيط لكل حملة حربية على أساس وضع الجانب الأكبر من الأفضلية في جانب، على حين يقل هذا كله في الجانب الآخر، وهي مسألة ليست من البساطة بالصورة التي تجيء بها هذه الكلمات، بل أنها تتطلب تضحيات وجهودًا، يمكن أن نرقب صورة مصغرة لها عندما ندرس تفصيلياً «**معركة بريطانيا**» لسنة ١٩٤٠ ومعركة «**السيادة الجوية**» فوق أوروبا سنة ١٩٤٤ .

ومن هنا كان من الضروري القول بأن الهيئات العسكرية يجب أن تكون دائمًا على أهبة الاستعداد للمعركة بالآلة التي تتوافر عند بدء الحرب مع التخطيط لعلاج ما يمكن أن يكون هناك من مشكلات بالنسبة لهذه الآلة يوم ذاك، وهذه كلمات تتطلب الإيضاح والتفسير، ولهذا كانت كتابات الرواد الذين وضعوا أصول الحرب الجوية، وبخاصة «**دوهيه**»، يمكن أن تقرأ اليوم ويكون لها نفع أكبر مما كان لها من نفع يوم أن صدرت تلك الكتب.

❊ ❊ ❊

على أنه مع تطور المجتمع، ومع تحوله إلى الاستزادة من التصنيع، ازداد تعقد فن الحرب. ومن ثم كان من الضروري أن تتمشى عوامل

التسليح والعوامل التكتيكية في العمليات الحربية مع الاستراتيـجية التي لا يمكن أن تنفصل عنها والتي هي لها بمثابة الخادم المخلص الأمين.

إن الاستعدادات الفنية التي تسبق الحملات الحديثة توضح إمكان تحقيق النصر السريع للاسراتيـجية، وعندما يبدأ الإعداد لهجوم واسع المدى فإن توقيت هذا الهجوم يتطلب فسحة من الوقت لدراسة ما إذا كانت الاعتبارات السياسية أو غيرها هي التي تتطلب التغيير.

إن المسائل العسكرية تتشابك ـ في ضوء الظروف والأحوال الحديثة ـ مع المسائل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفنية، ومن المشكوك فيه أن يستطيع فرد أن يتحدث عن «**الاستراتيـجية العسكرية**» خالصة وحدها.

إن نجاح هتلر حتى غزو روسيا، بل وحتى في المراحل الأولى لهذا الغزو سنة ١٩٤١، ليرجع إلى تفهمه لهذه الحقيقة؛ لقد كان خصومه في الميدان في رياسات حكومات أوروبا يفكرون بأسلوب سياسة وعسكرية واستراتيـجية وتكتيك القرن السابع عشر عندما كان من الممكن أن يفصل بين الاستراتيـجية وبين التكتيك في صورة ما، وبقوا يفكرون في هذا إلى أن سقطت فرنسا، ولكن اليوم، في هذا العصر الذي نعيش فيه لم يعد من الممكن فصل السياسة عن الاستراتيـجية بمختلف عواملها، لم يعد هذا مستطاعًا بحال ما.

❊ ❊ ❊

ومع هذا في الكتاب الرابع فصل، هو الفصل الخاص باستراتيـجية اليابان البحرية، فصل يبدو وكأنه لا مكان له في دنيا اليوم، وبالتبعية قد لا

يكون له من مكان في دنيا الغد على أساس أن اليابان اليوم لا تقف موقف الخصومة والعداء من القوى البحرية الكبرى في الغرب، ودورها إلى جانب المعسكر الغربي في حرب الغد لو كان يتطلب استراتيـچية أخرى، لا يمكن تقديره اليوم، فليس لليابان ولن يكون قبل سنوات طوال الأسطول الذي يمكن أن يقف في ميدان توازن القوى بإزاء ما كان الأسطول الإمبراطوري الياباني في الحلقة الخامسة من القرن العشرين، ولكن هذا الفصل يقدم مادة دراسية لها قيمتها في ميدان البحث الاستراتيجي ويعطي طابعًا يجب تقديره عند الحديث عن القوى المتشابهة المتماثلة في دنيا الغد، فهو دراسة لها نفعها من هذه الناحية ومن ثم كان من الضروري تقديمه في هذه الترجمة العربية للكتاب.

* * *

إن الحرب تفرض نفسها اليوم على كل فرد في العالم مهما كان نصيبه واتجاهه في الحياة، ولهذا فمن الضروري أن يدرك كل فرد في العالم أن الحرب تهمه وتعنيه، وأن دراسته لها واجبة كعلم ـ على الأقل ـ لا كصناعة.

وكما تتطلب الحرب حشد الجهود فإن السلم نفسه يتطلب تفهمًا كاملاً للحرب وأصولها والعوامل المؤثرة في هذه الأصول حتى لا تكون يوم أن تجيء مصحوبة بالكثير من التطورات مشكلة مستعصية في جملتها وتفاصيلها، ولا يكون من المستطاع في يسر مواجهتها للعسكريين وحدهم، بل ولغيرهم حتى من عامة الناس.

لقد كان هذا الفهم الصحيح للاستراتيـچية والحرب عن طريق

التأريخ للرواد الأولين وللأصول التي جاءوا بها هو الهدف الذي استهدفه العلاَّمة «**إدوارد ميد إيرل**» وزملاؤه عندما كتبوا هذا الكتاب الكبير، وكان هذا هو الهدف الذي استهدفته في تقديم هذه الترجمة العربية في كتب أربعة وصل عدد صفحاتها إلى الألفين مع ما تطلبه هذا من جهد ..

ولعلي أكون قد وفقت في هذا التقديم.

محمد عبد الفتاح إبراهيم

عميد أركان الحرب

الرابع من أكتوبر سنة ١٩٦١

الفصل السادس عشر
هوزهوفر:
الجيوبوليتكيون
علماء سياسة الكرة الأرضية
بقلم ديرونت وتيليسي

«**الـچيوبوليتيكا**»، علم سياسة الكرة الأرضية، وليد جاءت به «**العسكرية**» و «**آلة من آلات الحرب**»؛ وكما يدل الاسم فإنه ثمرة ونتاج كلا علمي الجغرافية والسياسة بالرغم من أنه قد اصطنع ووضعت أصوله ثم تطورت إلى حد بعيد بوساطة الجغرافيين وفي رعايتهم، فإنه أحدث عهدًا من علم الجغرافية، فقد شب ونما في الجيل الذي جمع بين الحربين العالميتين.

- ١ -

قبل أن يبرز علم الـچيوبوليتيكا، بل وقبل أن يصطلح العلم على اسمه بكثير، كان لعلم الجغرافية مكان هام في حياة شعوب وسط أوروبا بعامة، والشعب الألماني بخاصة، ولا شك أن العلم قد حقق كيانه كعلم حديث في أوروبا الألمانية حيث كان جزءًا من ينبوع الفكر العلمي والفلسفي الذي يرجع به عادة إلى إيمانويل كانط Immanuel Kant [١] (*).

(١) راجع: The Nature of Geography (Lancaster, Pa. ١٩٣٩) Cap. ٢

(*) ايمانوبل كانط: (١٧٢٤-١٨٠٤) فيلسوف الماني كانت له مدرسة من الأتباع وتعاليم يطلق عليهم وعليها Kantianism, kasntian على التوالي.

وكانت «**فترة تكوين**» شغلت النصف الأول من القرن العشرين، كان علم الجغرافية طوالها ـ مع بقاء الطابع الوصفي له ـ قد بدأ يتبع تنظيمًا محددًا واضحًا، وفي نفس المدة تحولت ألمانيا ـ نتيجة لتطورات سياسة حرجة وتطورات عسكرية واسعة المدى ـ من جملة حكومات أسرية متجاورة إلى رابطة من الدول القومية المملوءة بالحيوية والنشاط.

وفي النصف الثاني من القرن نفسه جاءت الفروع المختلفة التي أعطت علم الجغرافية الطابع الشامل الذي له في الوقت الحاضر، وفي هذه الحقبات من السنين توحدت ألمانيا واتسعت صناعاتها وبرزت إلى الوجود كدولة من الدول الكبرى، واستمدت الإمبراطورية الألمانية الجديدة قوتها من قاعدة مزدوجة التكوين ذات حدين:

* السيادة السياسية التقليدية في الجزء الزراعي في شرق البلاد.

* القوة الاقتصادية التي قامت على الثروة المعدنية، واتساع نطاق التجارة فيما وراء البحار بوساطة الجزء الذي ازدهرت بحريته ونمت في غرب البلاد.

ولربما كانت الجغرافية أكثر من غيرها من العلوم تتلون تبعًا للبيئة المحيطة بها وتبعًا لتأثيرها بدورها في هذه البيئة نفسها، ولهذا كان من الطبيعي أن يعنى الجغرافيون الألمان ـ الذين عملوا في غمرة قيام الوحدة السياسية والاتساع الإقليمي ـ أن يعنوا عناية خاصة بالجغرافية السياسية، وقد جعلوا منها فرعًا من فروع نظام جديد ينمو ويتطور بسرعة كبيرة.

ومع اقتراب القرن التاسع عشر من خاتمة مطافه بدأ الاهتمام الألماني المتزايد بالقوة البحرية يسير قدمًا مع الاهتمام الألماني القديم بالقوة البرية.

وفي هذه الفترة الزمنية الحرجة جاء الجغرافي «**فردريك راتزل**» Friedrich Ratzel بأول صياغة للجغرافية السياسية كدراسة علمية فنية، وقد ناقش في كتابه (الجغرافية السياسية)[١] (Politische Geographie) أغلب الموضوعات الرئيسية التي قد قبلت منذ ذلك الوقت على أنها من الاتجاهات الهامة الضرورية في العلم، وقد اعتبر راتزل ـ فيما قدم من موضوعات رئيسية ـ أن الحرب مرحلة هامة من السياسة ومن الجغرافية، وقد ذكر هذا بإيجاز في أكثر من ناحية من كتابه، وفي الطبعة الثانية التي صدرت سنة ١٩٠٣ تبدو كلمة الحرب كعنوان فرعي في دراسته للموضوعات الرئيسية مثل «**الدولة**» و«**المواصلات**»[٢] وهو يعرض هذا وغيره من الموضوعات عرضًا موضوعياً يتناسب مع دراسة علمية، وقد تطلبت مكانته العلمية أن يعالج النقاط السياسية في كيانها الجغرافي الكامل دون الإشارة إلى أي أمة بخاصة.

وقد سمح راتزل لنفسه في أواخر أيام حياته أن يندفع بعيدًا عن المسار الضيق للجغرافية العلمية نتيجة اتجاه المشاعر العامة في الأمة كلها نحو القوة الألمانية البحرية[٣]، على أن هذا يبدو وكأنه تباعد موقوت عن الاتجاه الذي كان يتبعه، إلا أن هذا يتطلب منا أن نوجه انتباهنا إلى خطر الخلط بين

---

(١) Friedrich Ratzel, Politische Geographie (Munich, Berlin, ١٨٩٧; ٣rd ed, ١٩٢٣).
يراجع بخاصة البيان التحليلي لمحتويات الكتاب، ودراسة راتزل للجغرافية السياسية ليس فيها ما يتماثل مع «الجغرافية العامة» التقليدية للوحدات السياسية والتي يمكن أن نجدها في الكتب الحديثة التي تعرض «الجغرافية السياسية».

(٢) Friedrich Ratzel; Politische Geographie order die Geographic der Staaten, des Verkehres und Krieges (Munich, Berlin, ١٩٠٣).

(٣) Friedrich Ratzel, "Flootenfrage und Weltfrage" Kleine Schrifen (Munich, Berlin, ١٩٠٦).

الجغرافية السياسية وبين الفضيلة السياسية(*) . ولكن هذا لم يجعل من راتزل عالمًا من أعلام سياسة الكرة الأرضية، فإن انصرافه عن الأسلوب الفني كان قد باعد بينه وبين الأسلوب الذي اتبعه الجيوبوليتكيون الذي جسموا من كل ما أوجدوه من أصول العلم ووجهوه لخدمة مصالح الدولة الألمانية.

ومع أن راتزل لم يكن من رجال علم الـجيوبوليتيكا فهو قد أسهم بنصيب كبير في العلم، ذلك لأن أولئك الذين أوجدوا العلم وصاغوا أصوله قد استعاروا بعض نظرياته لتكون دعامات للأصول التي وضعوها.

ولربما كان أقوى ما أخذ من نظريات راتزل رأيه من أن الدولة كائن حي معقد التركيب والبناء في بعض الأحوال، وقد ظهرت هذه الفكرة في عدد من فروع العلم، ويبدو أنها خرجت من نظريات داروين وغيرها من النظريات التقدمية التي جاءت في علم الأحياء[1] في القرن التاسع عشر، وقد آمن راتزل بالتشابه بين البناء الجغرافي والبناء السياسي من ناحية وبين الكائن العضوي من ناحية أخرى، وآمن بهذا كوسيلة نافعة لإبراز التماثل، ومع أن راتزل قد استخدم هذه النظرية من الناحية العملية إلى غاية ما استطاع فإنه كان يحذر الطابع المحدود الذي لها، وقد فشل الـجيوبوليتيكيون فيما بعد في إدراك الفصل الحاسم بين عالمي علم السياسة

(*) في الأصل: «Political fealty» ويمكن أن تعني كلمة fealty الإخلاص والولاء، على أن معجم ويبستر أوضحها في ص ٥٣٠ طبعة سنة ١٩٥٦ بأنها تعني الإخلاص والوفاء والاستقامة والعفة في المعنى الذي يمكن أن يكون لكلمة Fidelity.

(١) H. F.Raup "Trends in the Development of Geographic Botany" Annals of the Association of American Geographers vol. ٣٢ (١٩٤٢) pp. ٣٢٧, ٣٤١-٣٤٣.

وعلم الأحياء، وأقاموا كل أصولهم ومبادئهم على أساس تقبل أن الدولة كائن ونظام.

ومن التحليلات الأساسية لراتزل أيضًا نظرية الفضاء، أو المنطقة في تقدير ما، Raum "Space" المنطقة التي تحتلها مجموعات سياسية، وكانت هذه النظرية هي الجزء الخامس والأخير من دراسته، وقد أخذ الـچيوبوليتيكيون هذه النظرية وأطلقوا عليها اسم «**منطقة البقاء**» ـ «**منطقة الحياة**» Lebenstraum وقد أوجدت معالجتهم للموضوع مبدأ حق الدولة في منطقة الحياة، في النطاق الحيوي لها، على حين كان راتزل معنياً بدراسة العلاقات بين الدول بالنسبة لمنطقة الحياة هذه.

ولم يؤثر راتزل في التفكير الجغرافي لوسط أوروبا فحسب، بل أثر في التفكير الجغرافي في كل البلاد التي يتحدث أهلوها اللغة الإنجليزية، وفي فرنسا وغيرها من البلاد[١]. ومن ثم فقد اعتبر الناس راتزل موجد علم الجغرافية السياسية، كما اعتبروه الذي مهد الطريق لعلم الـچيوبوليتيكا وإن لم يكن موجد العلم ومنشئه.

***

على أن هناك مسألة لها أهميتها، فمع أن الخط الفاصل بين الجغرافية السياسية وبين علم سياسة الكرة الأرضية (الـچيوبوليتيكا) يبدي الفرق بين «**المعرفة**» وبين «**التثقيف والتفقيه الانتقائي**» إلا أن هذا الفاصل ليس سهل الوضوح، ومن ثم فإن بعض الدراسات التي تمت في فترة الانتقال بين إصدار مؤلفات راتزل عن «**الجغرافية السياسية**» وبين الحرب العالمية الأولى

(١) Hartshorne, op. cit, pp. ٢٩٧-٢٩٨.

عندما بدأت أصول الـچيوبوليتيكا تتبلور مما لا يمكن معه ـ على وجه التأكيد ـ أن توزع هذه المؤلفات بين مجموعة أو أخرى من الدراسات، وليس من الميسور القول ما إذا كانت من دراسات الجغرافية السياسية أو من دراسات الـچيوبوليتيكا.

وفي الوقت الذي كان فيه راتزل يعيد دراسة كتاباته؛ ويعيد طبعها وإصدارها، كان الجغرافي الإنجليزي هالفورد ماكيندر Halford Mackinder يفسر انتقال القوى بين الدول المعاصرة، وقد وضع ماكيندر نفسه موضع المعارضة من نظريات ومن وجهات نظر لـ «**ماهان**» Mahan كانت قد اكتسبت شهرة شعبية يوم ذاك لافتة الأنظار إلى نهضة الدول المنافسة لبريطانيا والتي تهدد سيادتها على محيطات العالم ذلك لأن: «**إمبراطوريات أخرى تبدأ تسجيل تاريخها، وقد راحت المرحلة «الأوروبية»** في التاريخ تذوي كما ذوت وانتهت مرحلة «**البحر المتوسط**» ومرحلة «**الأنهار**»[١] [*].

وقبل أن يمر وقت طويل، عرض هلفوررد ماكيندر هذا المعنى في دراسة قيمة قرأها على أعضاء الجمعية الجغرافية البريطانية (الملكية)، وفي هذه المحاضرة ذكر ماكيندر لأول مرة، وفي صورة كان لها طابع التنبؤ، أن فترة الاستكشاف العالمي الواسع النطاق للتعرف على الأرض المجهولة قد

---

(١) Halford J. Mackinder, Britain and the British Seas (London, ١٩٠٢; reprinted with additional notes, ١٩٠٦). Chap. ٢٠, p. ٣٥٠.

(*) في الأصل Fluviatile صفة من Fluvial، والكلمة من الأصل اللاتيني (Fluvia Fluvialis) تعني نهر، و ûnera تعني تصب أي مصب النهر، والكلمة في جملتها على ما وضحها معجم ويبستر ص ٥٩٩ طبعة سنة ١٩٥٦ (ما أوجدته أو كونته الأنهار) ويعني الكاتب هنا فيما اقتطعه من كلمات هالفورد ماكيندر.

«انتهت مرحلة الإمبراطوريات التي قامت وازدهرت في أحواض الأنهار». «المترجم».

انتهت، وأن نهايتها تعتبر بداية إقامة «**نظام**» سياسي مغلق على الأرض، أي نظام سياسي محدد لا سبيل إلى تعديله والخروج عنه، وأن: النقل الآلي يغير القوة المنسقة بين «**القوة البرية**» وبين «**القوة البحرية**».

وقد أوضح ماكيندر إمكانية إقامة توازن القوى على أن يكون هذا في جانب ولصالح الدول المركزية، الدول التي على المحور الذي تدور حوله باقي دول العالم، وقد فسر هذا بتصوير خريطة للعالم مستندًا في تفسيره إلى كتلة أور ـ آسية الأرضية قلب العالم، وإلى التهديد الذي لها على القوى البحرية[١].

وبعد خمس عشرة سنة زاد من أفق نقاشه وجسَّمَ من تنبؤاته في كتابه "Democratic Ideals and Reality"[٢] وكان هدفه قياس الطابع البارز النسبي للكرة الأرضية في ضوء تجارب حوادث التاريخ بما في هذا تاريخ السنوات الأربع الأخيرة، ثم تقدير كيف يمكن أن نكيف من آرائنا عن الحرية مع الحقائق القائمة في العالم الأرضي الذي نعيش فيه[٣].

وقد جاءت الحرب بما حققه السياسي الجغرافي في دراساته، جاءت به إلى مجْلَد السياسة العملية، وكان هذا ـ تبعًا لناحية من التعريف العام للعلم ـ يعتبر من دراسات الـچيوبوليتيكا، وفي نفس الوقت كان الـچيوبوليتيكيون الألمان قد انتفعوا بالحديث الأصلي عن نظرية الأرض الداخلية كما وضعها

(١) Halford. J. Mackinder, "The Geographecal Pivot of History" Geographical Journal Vol. ٢٣ (١٩٠٤) pp. ٤٢١-٤٤٤.

(٢) Halford J. Mackinder, Democratic Ideals and Reality (New York, ١٩١٩; republished ١٩٤٢).

(٣) نفس المرجع طبعة سنة ١٩٤٢ (ص٤).

ماكيندر سنة ١٩٠٤ ليخدموا به مصالح ألمانيا، وفي هذه الصورة كانت هذه النظرية واحدة من الأصول السياسية لتنظيم العالم في الطابع الذي اقترحوه هم.

وفي فجر الحرب العالمية الأولى كتب الجغرافي الإنجليزي چيمس فيرجريف James Fairgrieve كتابًا وسم بعنوان له طابعه المميز: «**الجغرافية والقوى العالمية**»[١]، وكان الجزء الأكبر من هذا الكتاب تصويرًا تخطيطياً للجغرافية السياسية للمناطق السياسية الرئيسة في الكرة الأرضية في الماضي والحاضر، وقد قام المؤلف في الفصل الأخير من كتابه (بمحاولة الكشف عن إمكانيات حدوث أي تغيير أو تقدم جديد)[٢].

وفي نفس الوقت كتب رودولف كـچلين العالم السياسي السويدي كتابًا نشر قبل كتاب فيرجريف بشهور قليلة قدم فيه دراسة عن ثماني دول كبرى معاصرة، وقد ترجم الكتاب إلى الألمانية ونشر قبل نهاية سنة ١٩١٤[٣]، ومما يستحق الملاحظة أن تكتب هذه الكتب وأن تصدر قبل أن تخوض الدول الكبرى غمار حرب في مستوى لم يعرفه العالم من قبل، على أنه يبدو أيضًا بأن هذه الدراسات كانت استجابة لوعي متيقظ في البيئة الطبيعية كأساس للقوة الوطنية في العصر الجديد عصر «**النظام السياسي المغلق**» في الكرة الأرضية.

(١) James Fairgrieve, Geography and World Power (London ١٩١٥; New York, ١٩١٧; republished with addenda, ١٩٤٢).

(٢) نفس المرجع طبعة سنة ١٩١٧ ص ٣٣٠.

(٣) Rudolf Kjellén, Die Grossmâchte der Gegenwart (Leopzig and Berlin, ١٩١٤).

ومــــرت سنتــان، وأصدر كـچلين كتابه «**الدولة كعضو حيوي**»(١) The State as an Organism ، موضحًا وجهة نظره في السياسة، وقد اعتبر المؤلف وجود خمسة أقسام فرعية للسياسة أطلق على أحدها «**الـچيوبوليتيكا**»، ولكن يبدو أنه قد اعتبره في التعريف الذي قدمة: «**صنوًا للجغرافية السياسية**»(٢).

وقد تأثر كـچلين بالحرب وأصدر مؤلفات أخرى استخدم فيها الـچيوبوليتيكا للدفاع عن قضية ألمانيا، وتكشف مؤلفاته عن تحول مليء بالحماسة نحو العلم الطبيعي دون أن يحدد من هذا التزمُت الفني للعلم، فهو على سبيل المثال يناقش أمر الدولة ككائن مستخدمًا المطابقة التي قدمها راتزل وكأنها مبدأ أساسي، أو كأنها قانون طبعي لا سبيل إلى نقضه، ولكني أعطي الـچيوبوليتيكا تسمية تطلق على العلم، كما أنه وافق على نظرية وفكرة الفراغ أو المساحة في الطابع الذي ظهر فيها بعد السياسة النازية، ولكن على حين عمل ماكيندر لاستخدام الجغرافية كوسيلة تعاون الفراهة في سياسة الدولة، عمل كـچلين لإيجاد أسلوب لهذه الفراهة يقوم على أساس الجغرافية.

على أنه عند نهاية الحرب العالمية الأولى كان اصطحاب الجغرافية والسياسة قد أوجد «**الـچيوبوليتيكا**»، وقد نمت وازدهرت في ألمانيا حيث شغلت آثار الهزيمة كل السكان، واستخدم آراء كـچلين ومصطلحاته نفر من العلماء الألمان التوَّاقين لاستخدام كل ما يتوافر لهم من معرفة عن

---

(١) Rudolf Kjellén, Staten som Lifsform (Stockholm, ١٩١٦); translated into German under the title , Der Stast als Lebensform (Leipzig ١٩١٧).

(٢) نفس المرجع ص ٤٣ من النسخة الألمانية التي صدرت سنة ١٩٢٤.

الأرض لمعاونة ألمانيا في استعادة مكانتها في مصاف الدول الكبرى.

- ٢ -

ولم يكن الاهتمام بالشئون العسكرية شيئًا جديدًا في ألمانيا، كانت الولايات الشرقية في ألمانيا من البداية الأسوار الحجرية التي تسد طريق جحافل الناس القادمين من أور ـ آسية من غير الألمان، تسد طريق اندفاعهم للغرب، ثم كانت بعد ذلك رءوس الحراب للاندفاع الألماني في اتجاه مضاد نحو الشرق بقصد إنشاء المستعمرات الألمانية في الشرق، هذا الاتجاه الذي أطلق عليه المؤرخون الألمان: «**الاتجاه نحو الشرق**» Drang nach Osten وقد أوجدت الاستعدادات العسكرية التي استمرت لقرون دولة ذات طابع عسكري، كما أوجدت بين الأهلين عقلية عسكرية، بدأت أولاً في بروسيا ثم انتشرت منها بعد ذلك حتى كانت عقيدة كل الأفراد في الإمبراطورية الألمانية بأسرها.

وقد اشتركت في المجتمع الزراعي نظرة تحفظية في السياسة مع ولاء للملكية، على أن هذا كان طابع الحياة في أوروبا كلها في طوال الفترات التشكيلية في العصور الوسطى عندما كانت تربة الأرض هي المورد الطبيعي الوحيد للناس يستغلونه على درجة ما استغلالاً كاملاً، وقد تركت الثورات التجارية والصناعية والزراعية التي مكَّنت من استحداث البناء الاقتصادي والسياسي لبناء غرب أوروبا، تركت باڤاريا وأراضي بروسيا فيما وراء الألب بمنجاة من كل مؤثر.

كانت هذه الولايات تفتقر إلى المعادن التي تمكن من قيام حركة تعدين واسعة النطاق وحركة تصنيع مماثلة اللهم فيما عدا الركن البعيد في أرض

سيليزيا التي لم تستغل إلا في تاريخ متأخر للتأثير في التفكير السياسي، ولا تقل بروسيا عن باڤاريا في اعتبارها منطقة برية شبه مغلقة، ذلك لأن البلطيق بحر داخلي لم يقدم في العصر الحديث إمكانيات بحرية، ومن ثم فإن ولايات ألمانيا الشرقية قد شعرت بطريق غير مباشر فقط بالتجارة عبر المحيطات، ولقد أثبتت تربة أرضها عدم استجابتها للمخصبات، ولم تشجع فقط توزيع الإقطاعيات الزراعية الواسعة الموروثة منذ العصور الوسطى، وبقيت الزراعة أساس الحياة الاقتصادية في البلاد، وبقيت الصور السياسية والصور الشخصية دون تعديل، وسيطرت على الرأي العام في المجتمع هذه المثل التي جاءت بها القرون الوسطى.

وعلى نقيض هذا، اكتسحت أرض ألمانيا الغربية في القرن التاسع عشر موجة من التطبيق العملي أوجدت صناعة ذات كفاية، كما أوجدت زراعة قوية وحركة نقل واسعة، واستطاعت التربة الخصبة بوساطة التدابير العلمية أن تنتج المزيد، ووجدت المعادن في شمال غربي ألمانيا، واستطاعت الإمبراطورية الألمانية أن تقيم زعامة صناعية، وفي الشمال الغربي أيضًا كان الساحل البحري الذي شجع على قيام تجارة خارجية عبر المحيطات، ومهدت الآراء الثورية التي انتشرت في غرب ألمانيا مع بدء حملات نابليون لغزو أوروبا، مهدت الطريق لحركة انتقال فنية، ولكن قد يكون من الضروري أن نذكر هنا أن بروسيا قد قاومت هذه الآراء الثورية مقاومتها للدعاية التي ينشرها العدو.

على أنه مما يستحق الاهتمام أن بروسيا مع طابع رد الفعل، أو بمعنى أدق برغم وقفتها المتحفظة من الآراء التقدمية في البناء الاجتماعي وإطلاق الفكر، قد نجحت في أن تتولى زعامة ألمانيا طوال نصف القرن الذي تبع

سقوط نابليون.

وهكذا ورثت بروسيا الدولة ذات الطابع العسكري التي يسيطر عليها ملاك الأراضي الإقطاعيون، وورثت أقاليم تتقدم فيها الصناعة بسرعة مصحوبة بتطور وتغيير في الطابع الاجتماعي، وجاء نتيجة لهذا الكفاح تفهم طيب للأوضاع القائمة، فمنح الغرب حماية جمركية لصناعاته مع تبني الحكومة للتجارة فيما وراء البحار ومع بناء أسطول كبير، وحصل الشرق على حماية ما تنتج أرضه من غلات مع جيش قوي، ومع سيطرة الطبقة الحاكمة من كبار ملاك الأراضي كعنصر له السيادة على الحكومة الوطنية الجديدة.

وقد مرت ألمانيا بمرحلتين في المدة بين قيام الوحدة فيها سنة ١٨٧١ وبين الحرب العالمية الأولى، ففي البداية أوقفت حقبتان من السنين لدعم الترتيبات لإعادة التنظيم السياسي والاقتصادي السابق، وتبع هذا ربع قرن من قيام طابع اعتدائي يتمثل في المطالبة باتساع بري نحو الشرق، بل وفي الاتساع في نطاق الأطلنطي وفي كل مكان من العالم بوساطة القوة البحرية والمستعمرات فيما وراء البحار.

وقد تصايحت بهذه الأطماع «**العصبة الألمانية**» وجماعة الأسطول الألماني بل وحتى الإمبراطور، وقد لا تزيد هذه الصرخات عن أن تكون مثل فقاعات الصابون التي تطفو فوق سطح الماء، ولكن كان لها طابعها البارز بسبب أنها كشفت عن التيارات القوية في الحياة الألمانية والتي كانت تفوض البناء السياسي للمجتمع الغربي.

وكان أوضح هذه التيارات ارتقاء ألمانيا إلى مصاف الدول القوية،

وبالتبعية اضطراب «**توازن القوى**» بين الدول الأوروبية، وكان ذلك في نفس الدرجة من الأهمية والحرج وإن كان أقل وضوحًا، هذا الانقسام والتشعب بين شرق ألمانيا وغربيها في الاقتصاد وفي البناء الاجتماعي وفي العادات وفي النظر إلى الحياة بعامة[١]، وإن كانت عادة التفكير العسكري قد راحت دون أن تبدو واضحة ملموسة تنتشر في كل أنحاء ألمانيا، وقد ظهرت ثانية في ألمانيا هذه القوى السياسية الثلاث في أعقاب الحرب العالمية الأولى.

***

ولقد بقيت ألمانيا إلى وقت ما معدومة القوة لا حيلة لها بإعادة تنظيم خريطة أوروبا الجديدة، ولكن السلطات القوية في ألمانيا لم تتوقف قط عن رسم مصورات لتعديلات إقليمية مصورات يمكن استخدامها في المستقبل، ومن الممكن تفسير نجاح سياسة ألمانيا الخارجية على ما رسمها هتلر في كتابه «**كفاحي**» بهذه المصورات التي أعدت لأغراض التعديلات الإقليمية ولأغراض التوسع.

ومهما كان مدى القوة الثورية التي توافرت للاشتراكية إثر انهيار ألمانيا سنة ١٩١٨ فمما لا شك فيه أن هذه القوة قد ضعفت على إثر تولي الأحزاب المعتدلة الأمر سنة ١٩١٩ في التحالف الحزبي الذي قامت على أساسه جمهورية ڤيمر، على أن الاتجاه نحو «**اليمين**» كان أكثر وضوحًا بعد الاحتلال الفرنسي لأرض الروهر سنة ١٩٣٣ عندما حصلت الصناعات الثقيلة والأعمال الكبيرة لأول مرة في تاريخ الجمهورية الفتية على نفوذ قوي

(١) Derwent Whitlesey. The Earth and the State (New York, ١٩٣٩) , chap. ٧.

في الحكومة، وكان تطور السياسة الخارجية الاعتدائية ما زال واضحًا صريحًا غير مبهم، وكان انتخاب هندنبرج رئيسًا للجمهورية ورمزًا للدولة دليلاً على أن ملاك الأراضي الإقطاعيين في بروسيا الشرقية قد استعادوا سيطرتهم على الحكومة الوطنية.

كان الـچنرال الشيخ أيضًا رمزًا للعسكرية التي كانت لبعض الوقت تنتشر من مواقعها التي توارت فيها في بروسيا الشرقية، تنتشر في كل أنحاء ألمانيا، وقبل نهاية سنة ١٩١٩ عادت هيئة أركان الحرب إلى الوجود وراحت تعمل لاختراق معاهدة ڤرسايل، على أنها لم تظهر علانية إلا في سنة ١٩٣٥ وعادت إلى الوجود مع بدء عملية التجنيد للجيش الوطني.

وقد هلل الناس لكل خطوة يقوم بها حزب النازي لإعادة تسليح ألمانيا، ولم يحدث هذا في بروسيا فحسب، بل في كل أنحاء ألمانيا، وفي نفس الوقت أعيد تنظيم الاقتصاد الوطني لإمداد الجيش بالعتاد حتى يستعيد لألمانيا مكانها كالدولة القائدة في قارة أوروبا(١).

ومع تحول صناعة الحرب لزيادة الجانب المقاتل بين السكان في كل دولة حتى انتهت بأن اكتسبت الطابع الشامل الذي لها اليوم، فإن الجغرافية العسكرية في نفس الأسلوب قد نمت إلى ما وراء المشاكل التكتيكية لتباين صور الأرض، وإلى ما وراء الخطط الاستراتيـچية للعمليات العسكرية.

فهي تعني اليوم بالإضافة إلى هذا ـ «**بمسح**» بتقدير الموارد الطبيعية لكل الدول التي يمكن أن تشترك في القتال، وكذلك الدول المحايدة التي يكون لها نفعها والاستعانة بها في هذا، مع التخطيط لأماكن إقامة المصانع

(١) A.T. Lauterbach, Economics in Uniform (Princeton, ١٩٤٣), Chaps. ٣-٤.

التي تنتج مواد الحرب، ودراسة المخترعات التي يمكن أن يوصف هذه الأعمال بأنها من الاستراتيـچية السياسية، ولقد اعتبرت حديثًا في عداد الاستراتيـچية العسكرية[١].

ولقد كانت ألمانيا أول دولة قدرت قيمة الاستراتيـچية السياسية كمعوان للحرب، وإدراك أنها تنغمر إلى أعماق الجغرافية، وقد عاونت الدولة ـ في ألمانيا ـ عمليات الاستكشاف والمسح الجغرافي، وكانت هذه خطوة قصيرة نحو معاونة الدولة بإسهام الجغرافية في الاستراتيـچية السياسية.

ولقد وجه الـچيوبوليتيكيون لجعل الجغرافية تخدم ألمانيا العسكرية، وكان واجبها أو دورها في هذا أن تجمع المعلومات الجغرافية وتحولها لخدمة أغراض الحكومة، وتقديم بعضها للشعب في صورة من صور الدعاية.

---

(١) «لو وجهت كل موارد الأمة للحرب فإنه من الضروري وقايتها والسيطرة عليها بوساطة السلطة السياسية في البلاد، لا بوساطة السلطات العسكرية وحدها، وذلك على أساس أن الإصطلاح المستخدم هنا هو: «الاستراتيـچية السياسية».

وقد استخدم هذا الاصطلاح نفسه في دراسة للحرب الحديثة من وجهة نظر علم السياسية على لسان ادورد ميد ايريل في محاضرة له بأكاديمية العلوم السياسية في الاجتماع السنوي لها لبحث «الدفاع عن الولايات المتحدة»، وكانت المحاضرة بعنوان:

(Political and Military Strategy for the United States).

وكان هذا بنيويورك في الثالث من نوفمبر سنة ١٩٤٠، ونشرت في المجلد ١٩ لسنة ١٩٤١ من مجلة :

Proceedinges of the Academy of Political Science,

الصفحات من ٢ إلى ٩، وقد قدم المؤلف اصطلاح الاستراتيـچية الكبرى Grand Strategy في صفحة ٧ للحديث عن سياسات وتسليح الأمة.

لاحظ أيضًا ما جاء في:

The Axis Grand Strategy: Blueprints for the Total War (New york, ١٩٤٢).

- ٣ -

وقد ارتبطت الحقبات البارزة في التاريخ الألماني والتي بدأت بالوحدة السياسية، ارتبطت بحياة كارل هوزهوڤر الذي جعل من نفسه «**مفرخة**» (مكان تفريخ) الـچيوبوليتيكية الألمانية، وكل حركة في العالم تجيء وثيقة الصلة بشخصية ما.

ولكن مثل هذا الطابع البارز القوي في هذه الحال التي نحن بصددها لتقدم لنا التكيف الفريد في بابه بين الرجل وبين صناعته[1].

ولد هوزهوڤر في ميونيخ عاصمة باڤاريا في فجر الحرب الفرنسية الباڤارية، وكانت باڤاريا دولة زراعية، للزراعة فيها السيادة على أية حرفة أخرى. وكان هذا بسبب أنها لاتمتلك أي موارد معدنية، وكان هوزهوڤر من أسرة قديمة تمتلك إقطاعيات من الأرض الزراعية، قبل جيلين أو ثلاثة أجيال من تحول أفرادها إلى الأعمال التي يمارسها أفراد الطبقة الوسطى في المدن.

وقبل الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨ كانت باڤاريا ولاية انعزالية كاثوليكية متحررة، على نقيض الاتجاهات القومية البروتستانية والرجعية للطبقات البروسية الحاكمة في برلين، ولكن بعد هزيمة سنة ١٩١٨ كانت باڤاريا معقل الملكية والحركة المضادة للجمهورية، وكانت قبل كل شيء مكان ميلاد حركة هتلر الاشتراكية وغيرها من الجماعات السياسية المماثلة. وفي هذا الجو الذي تبع الحرب قام هوزهوڤر ليكون شخصية وطنية

(١) للمزيد من التفاصيل راجع التسلسل الزمني لحياة كارل هوزهوڤر الصفحات (٨٠- ٨٢).

فذة في المجتمعات لخارج الدوائر العسكرية، وسنحت له الفرصة ليكون له نفوذه وتأثيره في الحركة النازية.

***

وبعد أن أتم هوزهوفر دراسته الأولية المحلية سنة ١٨٨٧ بدأ حياة عسكرية دلت على كفايته، وفي هذه السنوات التي كان لها دورها في تشكيل وتكوين شخصية عني عناية كبيرة بعلم الجغرافية. واقتنص كل ما توافر من فرص ليتعرف أوروبا عن طريق السياحة والتجوال[١].

وقد عمل أكثر من مرة للجيش الباڤاري وتولى التدريس في كلية أركان الحرب، فلما أوشك على الأربعين كان قد دلل على عنايته واهتمامه ومهارته في صناعة الحرب وفي علم الجغرافية وفي التدريس بالجامعة.

وفي مطلع سنة ١٩٠٩ رحل إلى الشرق، وقد قال عن هذا: «**درست ـ بالإضافة إلى ما قمت به من رحلات في الهند وجنوب شرق آسية ـ الجيش الإمبراطوري الياباني لمدة سنتين**»[٢]، وقد رحل إلى الشرق الأقصى بالبحر، فتوقف في الهند، وفي أماكن أخرى، وعندما وصل إلى طوكيو لم يعن بما كلف به من هيئة أركان الحرب بدراسة الجيش الياباني، بل عني بدراسة اللغة اليابانية، وقد قضى بعض الوقت في التجوال بجنوب شرقي آسية، وقد قام بدراسات منتظمة في وسط اليابان وجنوبها، وفي كوريا ومنشوريا وشمال

(١) Karl Haushofer, "Der deutsche Anteil an der geographischen Erschlieszung Japans und des subjapanischen Erdraums, und deren Förderung durch den Einflusez von Krieg und wehrpolitik" Mitteilungen der geographischn Gesellschaft in München (Munich, ١٩١٤), Vol. ٩. P. ١١١.

(٢) نفس المرجع السابق ص ١١١ – ١١٢.

الصين، ثم قضى ما بقي من السنتين يتنقل بين مختلف الأسلحة العسكرية اليابانية. وفي صيف سنة ١٩١٠ عاد إلى وطنه عن طريق سيبيريا.

وبوصوله ألمانيا عاد إلى كلية أركان الحرب لإلقاء محاضرات عن تجاربه خارج البلاد، «**وتبعت ذلك فترة طويلة من المرض.. ثم إجازة طويلة**»(١) واستمر في هذا التقاعد الذي وصفه بالإجازة الطويلة والتي استمرت من سنة ١٩١٢ حتى بدء الحرب العالمية الأولى، فقد استدعى من جديد لخدمة الجيش.

وفي هاتين السنتين أصدر كتابين عن اليابان، أطلق على أولهما عنوان: Dai Nihon(٢) العنوان الذي يمكن أن يترجم إما بكلمتي «**اليابان العظيمة**» أو «**اليابان الكبرى**»، أي اليابان في اتساعها وامتداد أرضها، وهي تسمية يمكن أن تتمشى مع كلمتي «**ألمانيا الكبرى**» التي كانت ولابد عن قصد، وكان هذا الكتاب هو الحديث الأول من سلسلة من الدراسات عرض فيها هوزهوفر للتطور الياباني وللأطماع اليابانية في ضوء براق خاطف.

وقد قدم الكتاب الثاني كدراسة عرضت على جامعة ميونخ لنيل درجة الدكتوراه، وقد منحت له درجة الدكتوراه سنة ١٩١٤ في الجغرافية والـچيولوچية والتاريخ، مع مرتبة الشرف الممتازة، وكان العنوان الطويل الذي وسم به الكتاب يعتبر وصفًا لموضوعه أيضًا؛ فقد كان:

«**نصيب ألمانيا في الفتح الجغرافي لليابان والأرض نصف اليابانية،**

---

(١) نفس المرجع ص ١١٢.

(٢) Karl Haushofer, Dai Nihon; Betrachtungen über Gross Japans Wehrkraft, Welstellung und Zukunft (Berlin, ١٩١٣).

وتقدمها في ضوء تأثير سياسات الحرب والدفاع»[١].

وقد وجه هوزهوفر هذه الكتب بأهداف مختلفة، فهو قد أعد " Dai Nihon" لعامة القراء ولمس فيه حوافي علم الجغرافية السياسية. وقد كتب كتابه مقدرًا أن «**التلخيص الفني لما حصلت عليه من ثقافة جغرافية هو الذي يمكن أن يسمح لي بأن أستخلص كل ما في تجاربي العملية من نفع في خدمة السياسة الخارجية**»[٢].

وفي هذه المجلدات الأولى برز إلى الضوء اهتمام هوزهوفر بالموضوعات العسكرية والجغرافية، وفي تقدير هوزهوفر لراتزل نقل عنه حديثه عن أهم ما جاء في علم الجغرافية «**كان ثمرة جهود الرحالة على طرق القوافل، والرحالة في البحر، ورجال الدين، والجنود، والتجار**»، وقد بدأ الرحالة العسكري هوزهوفر دراسته الفنية لجغرافية اليابان بنقله عن الإمبراطور هرقل Heraclitus[*] كلماته أن «**الحرب أصل كل الأشياء**» وتابع في ضوء هذا حديثه عن نشاطه الثقافي، «**نشاط جندي يتضح أنه اتجه إلى ميدان البحث العلمي للجغرافية عن طريق الجغرافية العسكرية، وإلى هذه المرحلة فإنه يود أن يوضح أهمية كلمات Heraclitus في هذا الميدان وصحة الانصياع لها واتباعها**»[٣].

ولم ينصرف هوزهوفر عن الاقتراب العسكري لدراسة الجغرافية، ـ

---

(١) في الهامش رقم ٢٠ اسم الكتاب بالألمانية.

(٢) نفس المرجع ص ١١٢.

(*) Heraclitus الإمبراطور البيزنطي عاش بين ٥٧٥ (؟) – ٦٤١ ميلادية وتولى الحكم من ٦١٠ إلى ٦٤١ ميلادية.

(٣) نفس المرجع ص ١.

أي دراسة الجغرافية من وجهة النظر العسكرية، ـ طوال السنوات التالية، بل على النقيض فإن تجارب سنوات الحرب الأربع قد أكدت هذا له.

ومن المؤكد أن الجغرافية العسكرية ليست اكتشاف هوزهوڤر، بل ربما تكون قديمة قدم الجيوش نفسها، فالاستراتيـچية والتكتيك يتوقفان في كل موقف على البيئة الطبيعية. ولقد كان هذا النوع من علم الجغرافية يدرس في المعاهد العسكرية، ولقد قدر ضباط الجيش في البلاد التي تتحدث الألمانية قيمة الجغرافية كنافذة يمكن أن يطل منها الفرد على العالم، وكان هذا قبل عصر هوزهوڤر بكثير.

ولقد درس مولتكه الكبير الجغرافية الحديثة في القرن التاسع عشر، وبعد أن تولى مولتكه رياسة هيئة أركان الحرب الألمانية ـ إن لم يكن قبل هذا ـ عني الجيش عناية كبيرة بعلم الجغرافية وبخاصة للضباط أركان الحرب.

على أنه ربما كان الأهم من هذا نفوذ ريتر وتأثيره في رون Roon وزير الحربية الأشهر وصديق مولتكه، وقد كتب رون كتابًا قيمًا في الجغرافية السياسية بتوجيه ريتر، واستخدم هذا الكتاب على نطاق واسع في مدارس إعداد الضباط البروسيين وفي معاهد الدراسة الثانوية البروسية(١).

ولربما يكون هوزهوڤر لهذه الفرص غير العادية التي هيأت له دراسة

(١) Grundzüge der Erd, Völker – und Staatenkunde (١٨٣٢).

وكأنموذج طيب مماثل من قلم رون وإن كان في طابع أولى، كتاب:

Die Anfansgründe der Erd – Volker – und Staatenkunde.

الصادر سنة ١٨٣٤، للمزيد من التفاصيل عن رون راجع ما جاء في قاموس الشخصيات الألمانية.

Allgemine deutsche Biographie.

المشاكل الجغرافية للاستراتيـچية والتكتيك قد طبق ما توافر له من معرفة في نطاق ضيق عند عمله كضابط مدفعية، إلا أن حياته العسكرية في وظائف أركان الحرب ورحلاته أكسبتاه التجربة والاتصال الشخصي مما استمر يصحبه في سني حياته التي تلت الحرب العالمية الأولى.

ـ ٤ ـ

وقد خفض الجيش الألماني تبعًا لنصوص اتفاقية الهدنة ومعاهدات الصلح إلى ما يزيد قليلاً عن قوة بوليسية، وقد ألغيت هيئة أركان الحرب، وعاد هوزهوڤر من جبهة القتال ـ مثله في هذا مثل كثيرين غيره من الضباط ـ عاد يحمل رتبة عسكرية كبيرة ليتقاعد من خدمة الجيش العامل، وتوارت الروح العسكرية مستترة عن العيان بفعل المنتصرين، على أنه من المعروف جيدًا اليوم أن هيئة أركان الحرب الألمانية قد بقيت قائمة خفية بعمل الـچنرال ڤون سيخت الذي استعان بكل وسيلة مستطاعة لإيجاد ما يمكن من إنعاش الآراء والأهداف العسكرية التي تتعمق في الفكر الألماني وفي بناء الحكومة الألمانية منذ وقت طويل، وكان بين معاوني سيخت أوسكارڤون نيدرميير Oskar Von Niedermeyer زميل هوزهوڤر في هيئة أركان الحرب الباڤارية والذي عمل خارج ألمانيا وبخاصة في روسيا لمهمة كتلك التي ذهب لأجلها هوزهوڤر للشرق الأقصى.

وقد تطلب عمل ضابط الجيش النابه اليقظ بعد سنة ١٩١٩ ـ أكثر مما تطلب في أي وقت سابق ـ العناية بالدراسات الجغرافية وفي نطاق عالمي فسيح، فإن الطابع الميكانيكي الذي لحق بصناعة الحرب، وزيادة اعتمادها على الطاقة الإنتخابية في أرض الوطن قد مدّا من الانتفاع بالجغرافية في

المشكلات التكتيكية ومشكلات إمداد القوات المحاربة في جبهة القتال، امتدا إلى التسليح الواسع النطاق وإلى انتشار الصناعات بمستوى الأمة كلها، وإلى الإعداد المعقد لعتاد الحرب من موارد تستورد من مصادر في أركان العالم الأربعة.

على أنه لأسباب واضحة لا تنشر أي هيئة من هيئات أركان الحرب مطبوعات توضح نشاطها وتكشف عنه، ولكن تدل المعلومات التي برزت إلى الضوء أن هيئة أركان الحرب قد وجهت عنايتها إلى الدراسات الجغرافية الواسعة لبحث كل المصادر التي يمكن الحصول منها على احتياجات إمداد القوات الألمانية، كما عنيت بدراسة كل المناطق التي يحتمل القتال فيها.

ومع ازدياد نطاق وسعة مساحة الأطماع الألمانية غطت هذه البحوث الجغرافية وجه العالم كله. على أن جزءًا كبيرًا من هذا العمل لم يتم بوساطة هيئة أركان الحرب، بل قامت به هيئات أخرى لها صلات بالعمل الذي أوكل إليها، وكانت غالبية هذه الهيئات جغرافية الطابع.

والواقع أن كارل هوزهوفر يحتل مكانة خاصة بين أولئك الذين عملوا لإحياء الجيش الألماني وإن كان قد تحول مرة أخرى من حياته كضابط في الجيش إلى حياته كجغرافي، وأعطاه تعيينه كمحاضر عن الجغرافية في جامعة ميونخ القاعدة التي أقام عليها «**الـجيوبوليتيكا**» سياسة الكرة الأرضية كدراسة ثقافية وكأسلوب من أساليب «**صناعة الحكم**»[(١)] .

وقد سار تقدمه الأكاديمي متوازيًا مع زعامته ورياسته للجمعيات والمنظمات الجغرافية، وهذه على حين أنها تبدو كأعمال دراسية قام بها وحده

(١) تتضح مراحل حياته بعد الحرب في السجل الزمني لهذا في آخر هذا الفصل.

خاصة به أو بإشراف الجامعة إلا أنها كانت بين الوسائل التي اسخدمتها هيئة أركان الحرب في فترة استتارها ثم بعد أن خرجت علانية إلى الضوء.

وكان من الطبيعي أن يعود هوزهوفر إلى بلدته وإلى جامعته، ولربما كانت أكثر من مصادفة أن تكون ميونخ أيضًا مكان فورة مشرب البيرة ومكان مولد حزب النازي.

كانت باڤاريا قد بقيت مخلصة للتقاليد الزراعية والتقاليد الملكية لألمانيا القرون الوسطى فإن افتقارها إلى المصادر للمعادن قد عطل من قيام الأعمال الصناعية الكبيرة بها، ثم أن بُعدها عن برلين قد جعلها مكانًا صالحًا للتآمر على الحكومة القائمة بالأمر، ولكنها في نفس الوقت تصلح أيضًا كمكان لنشاط لا يتسرب إليه الشك تقوم به هذه الحكومة لإحياء القوة العسكرية على نقيض ما تنص المعاهدات التي وقعتها هذه الحكومة، على أن احتفاظ باڤاريا بهيئة أركان الحرب الخاصة بها قد جعل الجيش الباڤاري يتولى الزعامة في الدراسات الجغرافية حتى بدء الحرب العالمية الثانية على ما توضح حياة كارل هوزهوفر.

وقد عاونت عوامل أخرى على إيجاد جو ثقافي صالح للـچيوبوليتيكا في ميونيخ، كان ريتزل الصغير يتولى تدريس الجغرافية هناك، وكان آزوولد سبنجلر ـ بآرائه الفلسفية عن مصائر مناطق مختلفة من الأرض، كان ما زال يعيش ويتولى التدريس هو كذلك في ميونيخ، وكان لوندورف الرجل الذي يمثل فكرة الحرب الشاملة وديكتاتور ألمانيا العسكري في الشهور الأخيرة من الحرب العالمية الأولى، كان هو كذلك قد تقاعد من الجيش ونزل مدينة ميونيخ للاقامة بها، وقد أسهم في الكثير من الأعمال العامة واشترك مع العناصر المتطرفة بما في هذا فورة مشرب البيرة التي قام بها جيش النازية،

وكانت باڤاريا موطن آل ڤاجنر من رواد الحركة النازية ومن أنصار التقاليد الألمانية / النوردية(*) Nordic German التي كانت مظاهرها تمجد في أوبرات ڤاجنر (١٨١٣ - ١٨٨٣).

* * *

والواقع أنه كان من المظاهر الواضحة أن الكثير من غير الألمان كانوا يقفون إلى جانب وجهات النظر البروسية أكثر وأقوى مما يقف البروسيون أنفسهم، كانت ميونيخ هي المركز الأساسي خارج بروسيا حيث كان الألمان يدعون «**للبروسية**» بما في هذا الطابع العسكري الغلاب على كل شيء.

وقد اشترك هوزهوڤر إثر عودته من الحرب مع عدد من الجغرافيين، وقليل من علماء السياسة والناشرين ليتعاونوا معًا على إخراج علم الـچيوبوليتيكا إلى الوجود، وكان أغلب هؤلاء الرجال من زملائه وعشيرته في الدراسة والتدريب وأقرانه في المركز، وفي نهاية الحقبة من السنين كان جل هؤلاء قد انصرفوا في هدوء بعيدًا عن الحركة، فحل مكانهم أنصار هوفر وطلبته، وكلهم من صغار السن، وقد قلدوا أستاذهم، واتبعوا وجهات نظره بل حتى قلدوا أسلوبه في الكتابة والتحرير.

ومع هذا كان هؤلاء أقل نجاحًا في التشبه به في «**عدم الانحياز**»، ولما كانت كل الدراسات الألمانية عن الـچيوبوليتيكا قد جاءت في الأسلوب الذي وضعه هوزهوڤر فلم تبذل أية محاولة لتوجيه الفضل في أي شيء منها إلى مؤلف

(*) Nordic German، وتعني كلمى Nordic أحد الأقسام الرئيسية في الجنس القوقازي وهم طوال الأجسام طوال الرؤوس (نسبة رأسية عالية ـ انثروبولـچـي) وهم سكان شمال أوروبا مثل سكان اسكنديناوة ـ معجم ويستر ص ١٠٠١، قاموس النهضة لاسماعيل مظهر ص ١٤٢١.

بالذات، بل نظر إلى جملة البحوث وكأنها واردة من مصدر واحد[١].

ولقد فاض معين المصدر بالكلمات ولكن لم تخرج عن هذا المصدر ينابيع تجري فيها الآراء، وسبب تكرار الإلقاء بالدلاء إلى المصدر الخروج بمزيج من النظريات والبرامج للعمل والدعاية[٢]، وعندما حللت هذه الحصيلة من المعرفة وجد أنها تحتوي موضوعات مستقاة من عدد من العلوم الاجتماعية المختلفة من الـچيولوچيا، علم طبقات الأرض، إلى «**السيكولوچي**» علم النفس، وكان الموضوع الأساسي في هذا المزيج من النظريات والبرامج المسائل الخاصة بالمساحة[*] ذلك لأن المطالب التي فرضت على الـچيوبوليتيكيين لتوجيه صناعة الحكم قد وضعت كلها على أسس علم الجغرافية.

وقد كشف البحث الموضوعي لدراسة نظريات وآراء الـچيوبوليتيكيين الخاصة بالمساحة[٣]، كشف عن نواح خمس فقط برزت

(١) Andreas Dorpalen, The Worid of General Haushofer (New York, ١٩٤٢). & Derwent Whittlesey, German Strategy of the World Conquest, (New York ١٩٤٢).

(٢) Werner J. Cahnman, " Methods of Geopolitics ", Social forces , Vol ٢١ (١٩٤٢), pp. ١٤٧-١٥٤, lists the kinds of materials utilized.

(*) يلاحظ هنا ترجمة كلمة Space بكلمة «مساحة» مع ما جرى به العرف في الغالبية على ترجمتها بكلمة الفضاء في ضوء ما يستخدم اليوم لترجمة Outer Space بكلمتي (الفضاء الخارجي) عند الحديث عن محاولات غزو الفضاء.

(٣) يقول ديبرونيت وتيليسي في هذا الهامش:

«قبل شهور من إعدادي هذه الدراسة لهذا المجلد بذلت محاولة لتقدير موقف الجغرافية من (الـچيوبوليتيكا) علم سياسية الكرة الأرضية بأمل الكشف عن حقائق المادة التي يمكن أن تكون موضع نقد علمي، وقد أدهشني ما وصلت إليه من حقائق، واستخدمت هذه المادة عن نتائج وبحثي في نظريات وآراء علماء الـچيوبوليتيكا في محاضرات ألقيت أمام=

وسط هذا العدد الكبير من الكتابات والدراسات، وهنا يجب أن نلاحظ بأن هذه النواحي الرئيسية في الموضوع ـ عندما تتجرد عن التجسيم الذي يصطنعه لها الـچيوبوليتيكيون ـ تكشف بدورها عن تباين وجهات النظر في أمرها، وهو تباين ليس من الإسراف القول عنه بأنه تعارض وتضاد.

فإذا أنعمنَّا النظر في هذه النواحي الخمس وجدنا اثنتين منها تطبيق للنظرية الجغرافية، وأن اثنتين أخريين يمكن اعتبارهما اقتراحين لتنظيم العالم، أما الناحية الخامسة فهي مجرد محاولة لتيسير مسألة المسافة.

«**الاكتفاء**»: اصطلاح «**الاكتفاء**» في الطابع الذي يستخدمه فيه الـچيوبوليتيكيون يعني العمل للاكتفاء الذاتي القومي المثالي الناحية الاقتصادية، ويستهدف أن كلمة سياسة يجب أن تنتج كل ما تحتاج إليه، ومن ثم يكون للدولة توازن اقتصادي مع استقلال في الإنتاج عن غيرها من بلاد العالم التي تعتبر بالنسبة لها بلادًا أجنبية غريبة عنها.

وقد يكون من الواضح أن لا منطقة تقل عن الكرة الأرضية كلها يمكن أن تتوافر بها كل ألوان الإنتاج النافعة للإنسان اللازمة له، ومن ثم فإن كلمة الاكتفاء» لا يمكن أن تعني من الناحية الحرفية ما يقل بحال ما عن «**وحدة العالم**»، ولكن الدول القائمة في العالم اليوم تقصر بكثير عن هذا، وحتى الدول الكبيرة فإن القليل منها تتوافر له العوامل الجوية التي تضمن له كل الحاصلات الزراعية ومنتجات الغابات، ثم إن توزيع المعادن في حد ذاته يبدو مضطربًا وحتى لو توافر لدولة ما كل العوامل التي تكن في إيجاد مختلف أنواع المعادن فليس هناك ما يضمن كفاية أي معدن ما بالقدر الذي

=مجموعات مختلفة الأوضاع من المستمتعين ولم أكن أفكر يوم ذاك في نشرها، ولهذا فإنني أقدمها اليوم في هذه الدراسة دون أي تعديل اللهم إلا في صياغة السطور.

يتعادل مع ما تحتاجه دولة صناعية حديثة.

فإذا ما اقتربت ألمانيا من الاكتفاء الاقتصادي Autarky مثلها في هذا مثل أي دولة صناعية فإن هذا يسبب استيرادها كميات هائلة من المعادن اللازمة لإمداد مختلف صور إنتاجها الداخلي، ولكن يكون الحكم المطلق هنا غالي الثمن، هذا فضلاً عن أنه يكون خداعًا مضللاً؛ ذلك لأنه يضيع ويذوي فور استهلاك كل ما استورد من هذه المعادن.

ولم تكن الحكومة النازية تستطيع الوصول إلى هذا الوضع، أو بمعنى أدق لم تكن تستطيع اتخاذها مبدأ «**الاكتفاء**» Autarky كهدف يسهل تحقيقه داخل نطاق الحدود القومية للبلاد دون أن تحتفظ بكميات هائلة من المواد التي تحتاج إليها، وإن كان من الميسور جعل الكثيرين من الألمان يعتقدون هذا ويؤمنون به نتيجة للدعاية القوية التي تستخدمها الحكومة، ولم تكن كذلك تستطيع أن تحقق هذا بوسائل أخرى لها نتائج عملية، ولكن لو أمكن جعل الشعب الألماني يندفع نحو تأكيد «**الاكتفاء**»، فإن إنكار الذات سيمكن إطلاق الإمدادات الداخلية والخارجية وتوجيهها لأغراض خاصة للدولة، هذه الأغراض التي كانت الإعداد للحرب في الطابع الذي بدا علانية في أواخر سنة ١٩٣٠ وبخاصة هذا الشعار الذي كان طابع الشعب الألماني:

«**المدافع بدلاً من الزبد**».

ومع الإسراع في التأهب والاستعداد يمكن أيضًا الإسراع في الحرب، والقدرة على اختيار الوقت للقتال تعطي المعتدي مزيدًا من النفع، وتجعل الأفضلية في جانبه وبخاصة إذا ما كان أعداؤه الأساسيون ليسوا مثله تواقين

للحرب ولم يقدروا خطر اقترابها، فإذا ما بدأت الحرب كانت النسبة المنخفضة في عدد الضحايا البشرية معوانًا له على اكتساب نصر سريع.

والدولة التي تتبع هذا البرنامج تكون بمنجاة من هجوم أي عدو أثناء قيامها بإعداد تنظيم مواردها الداخلية وتخزين احتياجاتها، فإذا ما وصلت قوتها العسكرية إلى الذروة استطاعت أن تهدد بالحرب، بل وأن تقاتل عند الضرورة، وقد تأمل أن تقوم بالغزو وأن تضم إليها مناطق جديدة وموارد طبيعية تجعلاها أقرب لأن تتوافر لها الكفاية الذاتية بدرجة أكبر مما كان لها من هذه الكفاية قبل الحرب.

ولم تكن أي حكومة تستطيع الحصول على تأييد شعبي لبرنامج يتطلب إنكار الذات لتحقيق مبدأ «**الاكتفاء الذاتي**» إلا لو كانت قد انتهت من تخطيطها للحرب وقطعت على نفسها الوعود للغزو، وتحقيق الاكتفاء الذاتي داخل حدود أي دولة لعملية مجهدة تسبب ضغط وتخفيض مستوى العيش لسكانها، وهناك من الأدلة ما يظهر أن تخفيض كميات التموين للأفراد في ألمانيا النازية قد طبق لهدف واحد هو إعادة قيام بناء العسكرية الألمانية.

ولو كانت كل الدول قد اتبعت الأسلوب الألماني وجعلت مبدأ الاكتفاء الذاتي هدفها المثالي لما كانت واحدة منها قد أدركت أطماع ألمانيا على حقيقتها، ولكانت كل منها تابعت المعركة الداخلية إلى الأبد، أو لاضطرت إلى الحياة في عزلة داخل حدودها مخفضة مستويات معيشة سكانها لتتمشى مع طاقتها الإنتاجية؛ ولكن هذا التعاون أو التبادل الاقتصادي السلمي بين الأمم ـ على المثال الذي كان في الحقبات الأخيرة من السنين ـ لم يكن ليتكيف مع مبدأ «**الاكتفاء الذاتي**».

***

المجال الحيوي: Lebensraum

المجال الحيوي أو المنطقة الحيوية ـ على ما يفهمها الـچيوبوليتيكيون ـ تعني حق كل أمة في منطقة من الأرض تتسع لسكانها، على أنه بالإضافة إلى مجرد التعبير عن منطقة فإن الكلمة يمكن أن تتصرف إلى كل الموارد البشرية والطبيعية التي توجد في أي منطقة تعتبرها أي دولة لها كمنطقة حيوية لها.

على أن المطالبة بهذا الحق يستند في الواقع إلى حقيقة وإلى نظرية، أما الحقيقة: فهي تباين واختلاف نسبة الزيادة في السكان من أمة إلى أخرى، أما النظرية: فهي أن الدولة كائن حي يخضع لقوانين علم الأحياء، وتبعًا لهذه النظرية فإن كل دولة شابة فتية نامية يجب أن تمتد وأن تتسع.

ويرى الـچيوبوليتيكيون الألمان أن الدول الكبيرة هي وحدها الصالحة للنمو، وقد أدركوا وقدروا أن بعض الدول الكبيرة يمكن عاجلاً أو آجلاً أن تتفتت وتنهار، ولكن احتمال انهيار ألمانيا أو اضمحلالها وموتها لم يخطر لهم ببال ولم يوضع موضع تقديرهم قط.

على أن التطبيق الألماني لنظرية المنطقة الحيوية تبطل منه بعض المظاهر الخداعة المضللة.

فأولاً: ليست الدولة بكائن حيوي بالرغم من أنها قد تبدو من ناحية سطحية شبيهة بهذا، ومن ثم فإنه لا يوجد «**القانون الطبيعي**» الذي يفرض أن الدولة يجب أن تنمو، أو أن تضمحل.

وثانيا: المنطقة التي ترى ألمانيا ـ من الناحية التقليدية ـ أنها المنطقة الحيوية لها تقع للشرق من ألمانيا، وهي منطقة غالبية سكانها من السلاف،

ونسبة المواليد بين السلاف وبين غيرهم أكبر منها بين الألمان، وهكذا تكون هذه الشعوب تبعًا لنفس النظرية أحوج إلى زيادة مساحة أرضهم من حاجة الألمان لهذه الزيادة وهذا الاتساع.

وتتضح أيضًا عدم منطقية الـچيوبوليتيكيين الألمان من أنهم إلى أن أسقطت الحرب فرنسا ـ دون أن يكون هذا متوقعًا ـ فريسة الألمان، أنهم لم يطلبوا أي منطقة حيوية في الغرب من خط اللغات الألمانية / الفرنسية، ومع هذا فإن فرنسا كانت الدولة الأوروبية الوحيدة التي تتجاور وألمانيا على حدود مشتركة واحدة، والتي كانت نسبة المواليد فيها أقل بكثير من نسبتها في ألمانيا لحقبات كثيرة من السنين.

ويثبت هذا بوضوح أن نظرية «**المنطقة الحيوية**» ـ قد صيغت لتتمشى مع السياسة التقليدية للاتساع الألماني نحو الشرق لا نحو الغرب، وقد أثبتت الحوادث منذ سنة ١٩٣٨ أن المحاولات للحصول على «**المنطقة الحيوية**» تتطلب إما الحرب وإما التهديد بالحرب، ومن الممكن أن نختتم هذا الحديث بالقول: إن فكرة «**المنطقة الحيوية**» برغم أنها جغرافية المظهر فإنها عملية ذات طابع سياسي / عسكري، تقدم دعامة علمية للرغبة في الغزو، هذه الرغبة المتأصلة في كثير من الحكومات.

الفكرة الإقليمية: Panregions

ومع نمو وازدياد أطماع الألمان المغالين في الوطنية كان من الطبيعي أن يغامر الجغرافيون ـ بمن فيهم الـچيوبوليتيكيون ـ بالدعوة للمطالبة بأجزاء من الأرض قد تأمل الأمة في غزوها وضمها إليها.

وكانت العادة التقليدية في ألمانيا منذ بعيد المطالبة بأن تشمل المنطقة

السياسية للأمة كل الشعوب التي تتحدث الألمانية، وفي بعض الأحيان كانت اللغتان الفلمنكية والدانيماركية تعتبران ألمانيتي الأصل، ومنذ أن ازدهرت الفكرة الإقليمية (١٨٩٠ – ١٩١٨) سارت المطالبة الألمانية شوطًا بعيدًا إلى ما وراء حدود الأرض التي يعيش فيها الناس الذين يتكلمون الألمانية.

وقد رسمت المصورات «**لمنطقة الثقافة الألمانية**» و «**لمنطقة التجارة الألمانية**» كجزء من الأرض التي منحتها الطبيعة لألمانيا، والشيء الذي يستحق الملاحظة أن هذه الأرض التي قدر أن يشملها هذا التوسع تقع كلها في الشرق من ألمانيا، واستندت المطالبة بها إلى أن المستوطنات الألمانية الأولى في قرون معرقة في القدم كانت مبعثرة داخل المناطق التي يعيش فيها الناس الذين يتحدثون اللغات السلاڤية وغير الألمانية. وعلى أساس استخدام المنطقة كلها للغة الألمانية في الأغراض التجارية بفكرة أنها اللغة السائدة التي يمكن أن يتفاهم بها الجميع.

ولكن هذا التطلع الإقليمي من جانب الـجيوبوليتيكيين خطا خطى أوسع جسمت من هذا التطلع، فكبديل لهذا المطمع المثالي بالوصول إلى سيادة عالية تضمن الاكتفاء الذاتي وغير الممكن تحقيقه في الوقت الحاضر، اقترح الـجيوبوليتيكيين تفككًا سياسيا بتقسيم العالم إلى ثلاث مناطق إقليمية، وأحيانًا قسموا العالم إلى أربع مناطق إقليمية، تشتمل كل منها على أكثر من قارة، أو بمعنى أدق تجمع بين أراضٍ من قارتين مختلفتين «**راجع الخريطة ص٥٤**».

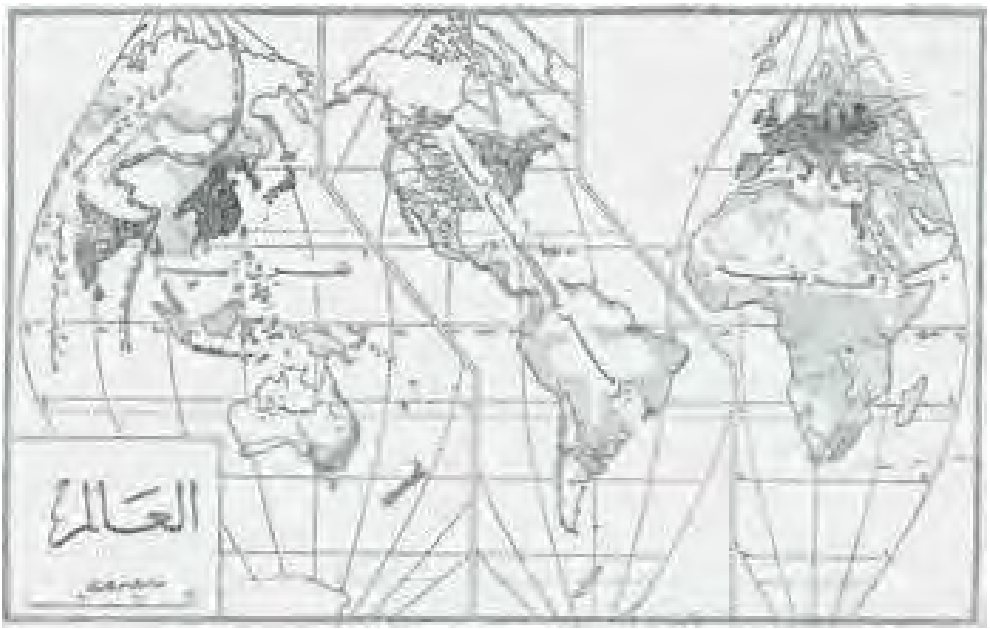
ونجد في كل من هذه المناطق الإقليمية أراضي تقع على خطوط العرض الوسطى وأخرى من خطوط العرض العليا والسفلى، ومعنى هذا أنه تتوافر في كل من هذه المناطق متباين صور الإنتاج الزراعي وحاصلات الغابات، والشيء الذي يمكن أن يحققه تعدد درجات الحرارة في كل منطقة،

ولما كانت كل من هذه المناطق كبيرة السعة كان من الواضح أنها يمكن أن تحتوي على الكثير من المعادن المختلفة، ولكن لما كانت المعادن تتوزع في العالم دون ما علاقة بجو العالم ولا بسكانه اليوم، فلم يكن هناك ما يؤكد أو يضمن أن هذا التقسيم سيجعل الحصيلة المعدنية متساوية في هذه المناطق الإقليمية. ومن ثم كان من المؤكد أن كلاً منها سيحتاج أو سيفتقر إلى عدد قليل من المعادن الحاسمة الأهمية، ولكن لما كان كل من هذه الأقسام الإقليمية وثيق الاتصال بالبحر في نقاط كثيرة من سواحله على المحيطات كان في الإمكان استيراد ما يحتاج إليه الناس مما لا يتواقر لهم محليًا.

على أن هذه النظرية قد نمت وقويت نتيجة لأن وسائل النقل والمواصلات السريعة الحديثة التي عرفها العالم اليوم قد عطلت من الاستقلال في العمل بالنسبة لكل الدول الصغيرة ولعدد غير قليل من الدول الكبيرة، وقد تقبل أيضًا أن الوقت قد حان لتتوحد اقتصاديًا مناطق أكبر من الأمم الموجودة حاليًا، وصحب هذا التفاؤل بالوحدة الاقتصادية بالحاجة إلى أن تتوحد هذه المناطق سياسيًا، ولكن فشلت هذه المشاعر في أن تضع موضع التقدير حقيقة أن المواصلات المائية تربط في العادة بين الأمم التي تتواجه على جانبي المحيط بأسرع وأقوى مما يمكن أن تفعل المواصلات البرية في ربط أجزاء الكتل القارية حيث توجد الصحارى والغابات أو الأراضي العالية الوعرة[١].

ويلاحظ أن هذا جاء أصلاً في كتابات الـچيوبوليتيكيين مجرد سطور غير مصحوبة بخريطة، ولم تخطط حدود معينة لهذه الأقاليم، على أنها هنا في هذه الخريطة سارت مع الحدود السياسية القائمة اللهم إلا في شرق سيبيريا،

(١) Eugene Staley "The Myth of the Continents" Foreign Affairs, XIX (١٩٤١), PP. ٤٨١-٤٩٤.



التقسيم الإقليمي للعالم إلى مناطق إقليمية رئيسية

وقد نظم تقسيم إقليمي آخر أعطى الهند لليابان، ووضع روسيا ضمن النطاق الإفريقي «**أور ـ إفريقية**» على ما رسم بخط متقطع في الخريطة.

على أن هذه المبادئ والتقديرات تكشف عن حقيقة أن هذه الفكرة الإقليمية من اختراع الناس الذين تشغل الأرض كل تفكيرهم، وبخاصة أولئك المقيمين في أوروبا القارة الوحيدة التي تفتقر إلى الحواجز القوية التي أوجدتها الطبيعة كالصحارى والهضاب العظيمة والثلج القطبي.

وقد اشتمل تقدير هذا التقسيم الإقليمي على أن تكون على رأس كل من هذه الأقسام واحدة من الدول الكبرى:

١ـ الإقليم الأمريكي أبرز الأقسام الثلاثة تبعًا لانفصاله عن القسمين الآخرين بمحيطات واسعة، والمفروض أن تتولى الولايات المتحدة السيطرة في هذا القسم، وقد أبدى الـچيوبوليتيكيون تقديرهم لمبدأ مونرو، واعتبروه أول فكرة في ميدان «**الإقليمية**» فضلاً عن إعجابهم بأن الولايات المتحدة قد استطاعت أن تبقي هذا المبدأ يؤدي دوره قائمًا بوظيفته لأكثر من قرن من الزمان، وقد تجاهلوا العامل الثقافي في كلمتي «**كل أمريكا**» برغم حقيقة أن الجيل المعاصر من سكان أمريكا الشمالية يرى أن لب هذه الفكرة التعاون للنفع المُتبادل بين كل سكان هذه البلاد في العالم الجديد بقارتيه.

٢ـ الإقليم الآسيوي، ويتكون من شرق آسية وأستراليا والجزر التي بينهما، وتركت السيادة هنا لليابان، ويطلق اليابانيون على هذه المنطقة «**منطقة المشاركة في الرخاء لشرق آسية**»، وكانت اليابان هي الدولة الوحيدة خارج الأراضي الألمانية التي تحول جغرافيوها إلى الـچيوبوليتيكا، ويبدو أن نفوذ كال هوزهوفر قد رفع السجف عن أعينهم وجعلهم ينظرون بعناية إلى



تقسيم الـچيوبوليتيكيون الألمان لأمريكا الجنوبية بين ألمانيا وبريطانيا والولايات المتحدة، وكان في تقديرهم قبل الحرب العالمية الثانية أن يتم هذا سنة ١٩٥٠ .

تطبيقه لعلم الجغرافية، وقد وجدوا بأنه من النفع الدعوة لخطط الغزو التي صاغها الحكام العسكريون للأمة.

وكان الـچيوبوليتيكيون الألمان يرون ـ على ما وضح أحيانًا في أحاديثهم ـ بأن كلا الإقليمين الأمريكي والآسيوي إنما يبقيان كذلك لأمد موقوت إلى أن تستكمل ألمانيا السيطرة على منطقتها الإقليمية، ومع الوقت تبتلع ألمانيا ـ في اتسعاها مستقبلاً ـ هاتين المنطقتين الإقليميتين.

٣ـ أما المنطقة التي ستسيطر عليها ألمانيا فتتكون من أوروبا وإفريقية. وهنا نلاحظ أن المنطقة لا تحتوي على دول أوروبا الصغيرة فحسب، بل وتشتمل أيضًا على الدولتين الكبيرتين فرنسا وإيطاليا أيضًا، وقد وضع موضع التقدير بالنسبة لهذه المنطقة أن الجزر البريطانية ليست وحدها هي التي ستثير الصعاب والمتاعب، فإن الأرض الفسيحة التي يشغلها الإتحاد السوڤييتي ستكون هي الأخرى بدورها عاملاً لإثارة المتاعب والصعاب.

وكحل لمشكلة الإتحاد السوڤييتي رؤى إيجاد منطقة إقليمية رابعة تضم الإتحاد السوڤييتي بالأرض التي في جنوبه حتى ساحل بحر العرب، ثم الهند، ولما كانت هذه المنطقة المقترحة لا تصل إلى خط الاستواء تمامًا فإنها ستفتقر إلى جو المنطقة الاستوائية، الجو الذي توافر لكل الأقسام الأخرى، ومن هنا كانت فكرة إلحاق الإتحاد السوڤييتي إلى المنطقة التي ستسودها ألمانيا وأن تذهب الهند إلى المنطقة التي ستترك لسيادة اليابان.

وكون هذه الأقسام الإقليمية ثلاثة أو أربعة مسألة نظرية لا تستحق الجدل الكثير بغض النظر عن جملة العدد، فالفكرة أصلاً هي ضمان سيادة

عالية تؤكد الاكتفاء الذاتي الاقتصادي، ولكن الأهم من هذا والأكثر حرجًا هو وجود مناطق إقليمية قائمة فعلاً، مناطق إقليمية لها كيان ووجود، وقد اعترف الـچيوبوليتيكيون بهذا ولكنهم لم يقوموا قط بثباته واستقرار دعائمه، ومن هذه المناطق الإمبراطورية البريطانية، وفي صورة أخرى وإن كانت أقل شأنًا الإمبراطوريات الأخرى فيما وراء البحار، فقد كانت هذه المجموعات السياسية تتخطى حدود المناطق الإقليمية الرئيسية في تقسيم الـچيوبوليتيكيين، ومن ثم كان من الضروري تفتيتها قبل أن تقوم الوحدات المسيطرة التي تخلفها؛ على أن الـچيوبوليتيكيين قد ألقوا جانبًا بالإمبراطوريات الاستعمارية الصغرى واعتبروا الإمبراطورية البريطانية وحدها العائق الذي يسد السبل أمامهم للعمل.

وكان من الواضح أنه من غير الممكن استكمال قيام هذه المناطق الإقليمية الرئيسية دون خوض غمار الحرب، فالدول التي في خطوط العرض المعتدلة بما فيها الدول الكبيرة لن تستسلم للغزو بغير كفاح عنيف كما أثبتت الحرب العالمية الثانية فيما بعد، والسيطرة العسكرية على البلاد التي في خطوط العرض المعتدلة قد يكون سهلاً ميسورًا، ولكن السيطرة السياسية أصعب وأكثر إجهادًا بسبب الممتلكات والمستعمرات التي لها، وهذه المستعمرات التي للاستيلاء عليها نفس التأثير الذي لمهاجمتها في ديارها.

وتنشأ عوائق عملية أخرى تعطل من تكوين هذه المناطق الإقليمية، عوائق تجيء من طبيعتها الجغرافية عندما تحلل كوحدات برية، ففي كل حالة نجد أن المنطقة السائدة في خطوط العرض المعتدلة تنفصل عن

ممتلكاتها في خطوط العرض في الجانب الآخر من خط الاستواء بمانع طبيعي قوي لا يسهل اجتيازه يحول دون الاتصال البري المباشر، فإن الأمريكيتين تتصلان فقط بالبحر والجو، وأول طريق بري يربط الشمال بالجنوب ليس كاملاً، وتعطل منه الجبال والغابات في عدة نقط كثيرة، ثم إن الجزء الجنوبي من أمريكا الجنوبية ينفصل عن الجزء الشمالي لأمريكا الجنوبية نفسها بغابات الأمازون وبالمستنقعات مصطحبة بهضبة آندين Andean المجدبة الوعرة.

وتستطيع اليابان السيطرة على منطقة المشاركة في الرخاء في شرقي آسيا بالاحتفاظ دائمًا بقوة بحرية لازمة ضرورية لتربط العدد الكبير من الجزر، ثم القوى البرية الكافية للسيطرة على الجزء الشرقي من القارة الآسيوية.

وتنفصل روسيا عن الهند بجبال لا يمكن اجتيازها وبهضاب عالية قارسة البرودة، وبصحراوات منخفضة فسيحة.

وتنقسم منطقة أور ـ أفريقية بمانعين، فالبحر المتوسط ما زال يرغم ألمانيا المسيطرة على الاحتفاظ بقوة بحرية كافية لغلق مداخل البحر والاحتفاظ بحركة نقل بين ساحلي البحر الشمالي والجنوبي. لقد أمكن إتمام هذا فيما مضى بوساطة القوة البريةفي الماضي، ومن الممكن أن يتكرر هذا ثانية في المستقبل بنفس الصورة، ولكن مع هذا تظل الصحراء الواسعة مانعًا لا يسهل اجتيازه على الأرض، وللدوران حول هذه الصحراء يجب أن تسيطر الدولة التي تسود المنطقة الإقليمية أور ـ أفريقية على المحيط سيطرة لا تقل عن السيطرة البرية في المنطقتين الإقليميتين: الآسيوية والأمريكية.

وستسبب كل محاولة لإقامة منطقة إقليمية إثارة الحرب كما ثبت لمرتين متواليتين في الحربين العالميتين الأولى والثانية، فإذا ما تم هذا بطريق الغزو

كان من الممكن الاحتفاظ به دونما حاجة لسيادة بحرية في الكتلة الروسية الهندية فقط، ووجود واحدة أو أكثر من هذه القوى يتنافر، ولا يتمشى مع وحدة محيط العالم، أي مع هذه المحيطات الواسعة التي تتصل فتكون محيطًا واحدًا واسعًا يدور حول الكتل الأرضية. ومن ثم كان هذا التقسيم الإقليمي المقترح ليس أكثر استقرارًا ـ من الناحية السياسية ـ من الوضع الحالي للدول الكبرى.

وبالرغم من الصعاب التي تعترض سبيل هذا التقسيم الإقليمي فإن فكرة الإقليمية لا تعتبر في جملتها فكرة خيالية، والنجاح الكبير الذي حققته ألمانيا واليابان بغزو المناطق التي اعتبرتاها الخطى الأولية نحو استكمال أهدافهما ليعتبر دليلًا على إمكان تحقيق الفكرة، حتى ولو كان هذا النجاح الذي حققته الدولتان الكبيرتان بالغزو لن يكون أكثر من تملك موقوت لن يستمر طويلاً.

وتوضح الخريطة «**ص ٦١**» النطاق الدائري الداخلي الذي يمتد من الجزر البريطانية إلى أرخبيل اليابان، ثم النطاق الدائري الخاص الذي يشتمل على الأمريكيتين وأفريقية الزنجية وأستراليا.

وقد عاد ما كيندر فعدل من اسم «**المنطقة المحورية**» إلى «**قلب العالم**» وزاد من سعتها لتضم «**أور ـ آسية ـ أفريقية**» ص ٦٧ و ٦٩ و ٧٨ ـ ٨٣ و ١٠٥ من كتاب ماكيندر طبع نيويورك سنة ١٩٤٢ بعنوان: Democratic Ideals and Reality

القوة البرية في مواجهة القوة البحرية:

وقد عالج الـچيوبوليتيكيون تقسيم كتلة الأرض في تنظيم يختلف



جزيرة العالم مع المنطقة المحورية حسب آراء ماكيندر على ما جاءت في دراسة «المحور الجغرافي للتاريخ» المجلة الجغرافية المجلد ٢٣ سنة ١٩٠٤ ص ٤٣٥

قليلاً عن الأسلوب الذي عالج به ماكيندر هذا التقسيم، وفي هذا التقسيم الجديد ينظرون إلى منطقة (أور ـ آسيا ـ أفريقية) على أنها أكبر الأقسام مساحة وسكانًا وثروة، ومن ثم فإنهم يعتبرونها مركز التثاقل للحياة البشرية، وقد يمكن النظر إلى هذه الكتلة الأرضية وكأنها جزيرة في المحيط العالمي على حين تدور القارات الأخرى من حولها كحلقة من القارات الأصغر.

وجزيرة العالم أو «**قلب الدنيا**» منطقة فسيحة من الأرض غالبيتها بعيدة عن المحيط، وتصب أنهارها إما في المنطقة القطبية المغلقة في الشمال أو أن تنصرف إلى البحار الداخلية والبحيرات الملحة، وتتصل الأنهار الصالحة للملاحة بالمحيطات التي تعبرها خطوط النقل البحري، ومن ثم كان «**قلب الدنيا**»، وجزيرة العالم قاعدة للقوة البرية التي يمكن أن تكون أعظم هذه القوى في الكرة الأرضية.

وتحيط بجزيرة العالم من الغرب، والجنوب، والشرق في شكل الهلال مناطق ساحلية تقع كلها على المحيطات، وكلها، إلى حد ما، مناطق بحرية ينفصل بعضها عن بعض بالجبال، والصحارى، والبحار، وتقع في هذا النطاق الدائري حول جزيرة العالم مجموعتي الجزر البريطانية وأرخبيل اليابان، وكل منهما قوة بحرية كبيرة، ويجيء إلى ما وراء هذا النطاق الداخلي نطاق أوسع في شكل هلال أكبر من جزر قارية هي الأمريكتان، وأفريقية الزنجية، وأستراليا ـ راجع الخريطة ـ وتقسم بلاد هذا النطاق الخارجي اهتمامها بين القوة البرية التي تستند إلى مساحاتها الواسعة وبين سهولة اتصالها بالبحر وطول سواحلها على المحيط، وتسير هذه البلاد اليوم ضمن مجموعة القوى البحرية ولكنها قد تخضع لسيطرة الدولة البرية التي تقوم في جزيرة العالم لو استطاعت هذه أن تسيطر على النطاق الدائري البحري الداخلي الذي يمتد من الجزر البريطانية



جنرال كارل هوزهوفر

(١٨٧٠-١٩٤٥)

إلى أرخبيل اليابان.

وقد استعار «**الـچيوبوليتيكيون**» فكرة قلب العالم ـ إلى هذا الحد من الحديث ـ استعاروها جملة عن ماكيندر، ثم طبقوها على الاتساع الألماني في الأسلوب التالي:

«**إن قلب العالم يتاخم تقريبًا روسيا السوڤييتية. وألمانيا بدورها هي الأخرى قوة برية وتشترك مع روسيا في الكتلة الداخلية لقارة «أور ـ آسيا»**، ولكنها على نقيض روسيا لها مخارج على البحر، ومن ثم تتوافر لها الطاقة لتكون قوة بحرية، فإذا ما استطاعت أن تكون لها السيادة في كتلة مشتركة تتكون منها ومن روسيا فإنها تستطيع أولاً، السيطرة على قلب العالم». فالسيطرة على القوس الداخلية التي تضم الدولتين البحريتين اليابان وبريطانيا، وأخيرًا تستطيع السيطرة على القوس الخارجية الأقل قارات.

والوسيلة الوحيدة التي يمكن أن تحقق هذا الاتساع الألماني طبقًا لهذا الترتيب الذي قدمته، هي: الحرب، وقد عبر الـچيوبوليتيكيون عن أملهم أن تتعاون ألمانيا وروسيا تعاونًا سلمياً يحقق هذه المشاركة، ويوجد هذه الكتلة المشتركة التي تسودها ألمانيا، وسر الـچيوبوليتيكيون للمعاهدة التي وقعتها ألمانيا وروسيا سنة ١٩٣٩، إلا أن هذه الآمال لم تلبث أن تحطمت نتيجة لمهاجمة هتلر للاتحاد السوڤييتي سنة ١٩٤١ .

على أن الحرب العالمية الثانية والتي شغلت القارات الست وكل المحيطات كانت دليلاً قوياً على أن البناء السياسي للكرة الأرضية ليس بصالح، لتحقيق نظرية سيادة قلب العالم على كل الأطراف الخارجية، ولقد عمدت الدول إلى التحالف لا مع جاراتها التي تقع إلى جوارها مباشرة، بل عمدت إلى التحالف مع الدول التي إلى وراء هذا، وكانت نتيجة هذا أن وقفت روسيا

وألمانيا في معسكرين متضادين، وتم في الغالبية ارتباط الدول البرية الكبرى والدول البحرية العظيمة، وألقت الدول الكبيرة ذات المصالح خارج قارة أوروبا بثقلها في هذا التوازن مستقلة عن ألمانيا وعن روسيا.

والواقع أن فكرة «**قلب العالم**» ـ مع التجاوز عن الحقائق التي وضحت أثناء الحرب العالمية الثانية والتي لم يكن من الممكن استخدامها كأداة للقياس والحكم ـ مع التجاوز عن هذا فإن الفكرة يمكن أن ترفض دون أي اعتبار آخر غير ما لها من تأثير في عقول الألمان، فلقد كانت في تقديرهم وسيلة تضمن تحقيق أطماعهم.

الحدود:

على أنه مهما كان الطابع الإقليمي المقترح للنظام السياسي الجديد في الكرة الأرضية، ومهما كانت الفكرة الفلسفية التي يمكن اتخاذها ذريعة للغزو، مهما كان هذا أو ذاك فمن الضروري أن تتوافر وسيلة عملية للتحرك نحو الهدف، وسيلة يوجدها تفسير الـجيوبوليتيكيين للحدود السياسية. وسيدهش الأمريكان وغيرهم الذين نظروا إلى الحدود السياسية على أساس أنها تعني حداً ثابتاً محدودًا للدولة .. سيدهش هؤلاء عندما يعرفون أن الألمان الذي يتبعون آراء الـجيوبوليتيكيين ينظرون إلى الحدود السياسية على أنها مجرد توقف موقوت للأمة في سيرها نحو السيادة العالمية، وهم يرون أن هذه الحدود السياسية ليست غير وقفة لتنظيم عملية التنفس حتى تسترد الأمة من جديد أنفاسها للقيام بغزو آخر، فإذا ما جاء الوقت المناسب كان وجود هذه الحدود الجديدة عاملاً يمكن أن يوجد السبب لإثارة الحرب.

ولقد أثبت التاريخ في أكثر من مناسبة أن الحدود كانت هي السبب المُعَدّ الصالح لإثارة الحرب، وكانت حوادث الحدود التي تحدث بالمصادفة

أو عن قصد سبب الكثير من المنازعات المسلحة.

ولقد ذهب الـچيوبوليتيكيون (علماء سياسة الكرة الأرضية) إلى مدى أوسع وأبعد، فقد قالوا بحق «**الأمة**» في الحصول على حدود طبيعية قد تكون إلى ما ورا الحدود السياسية القائمة، فإذا ما كان هذا حقيقة واقعة كانت الحدود السياسية عاملاً يدعو إلى الحرب.

وهنا يجب أن نلاحظ بأن الكثير من الحدود التي توصف بأنها حدود طبيعية لم تعد اليوم «**حواجز مانعة**» بالمعنى الصحيح الذي لهذه الكلمة، ومن ثم فمن الممكن أن تكون عذرًا لحروب أخرى للغزو ومثلها مثل الحدود الصناعية، والحدود التي تعتبر حواجز مانعة معطلة لا تكون صالحة إذا كانت تفصل بين أمم تتوافر لها طاقات كبيرة التباين واسعة التضاد، وتجعل نظرية «**المجال الحيوي**» ونظرية «**الاكتفاء الذاتي**» تجعلان من الأمة الضعيفة قرينًا للدولة القوية وبخاصة إذا ما توافرت لها الموارد أو كانت تمثل موقعًا له أهميته الاستراتيـچية.

ولهذا لم تكن المصادفة هي التي جعلت أوروبا قارة مثالية للغزو ومع هذه الحدود الطويلة الممتدة التي تفصل بين دولها الكثيرة[١]، ثم إن أوروبا أيضًا أقل القارات من ناحية المناطق المهملة التي لا تستغل، وهي أكثر القارات في المواد الطبيعية بالنسبة لمساحتها، وقد مكن تعدد الصور الطبيعية في أرضها من قيام عدة وحدات سياسية تفصل بينها حواجز طبيعية، وتبعًا لنمو هذه الدول المفصول بعضها عن بعض، وتبعًا لاصطدام كل منها بجاراتها خفضت أو تحطمت هذه الحواجز الفاصلة، فإذا ما اشتركت دولتان على حدود مشتركة كانتا عدوتين مُتضادتين، لقد كانت حدود

(١) S. Whittemore Boggs, International Boundaries (New York, ١٩٤٠), pp, ١٣-١٥.

أوروبا نتيجة سلسلة طويلة من الأحداث، وقد انتفع الـچيوبوليتيكيون بهذه الأحداث التي يسجلها التاريخ، انتفعوا بها في دراساتهم لها كأعذار دائمة للحرب في الطابع الذي اعتبروها معه أعذاراً معدة صالحة في كل وقت؛ لينتفع بها عندما يراد إثارة الحرب.

- ٥ -

ولقد عرض الـچيوبوليتيكيون آراءهم الخاصة «**بالمساحة**» والتي أقاموا عليها نظريتهم، عرضوها كفروض علمية يسلم بها، وهذا المظهر اللامع الذي يبعث على الاحترام والتقدير يخفي امتزاج الحقيقة بخطأ منطقي مضلل مهما كان فيه من طوابع لها سمات جغرافية.

والواقع أنه مهما كان هذا المنطق معقولاً ومقبولاً من الناحية العلمية فإن الحكومة التي تتخذه برنامجًا لها لا تلبث أن تدفع بنفسها دفعًا ـ دون مقاومة ما ـ إلى الحرب، وتحويل النظريات الخاصة بالمساحة إلى (فعلية) حقائق جغرافية يتطلب إعادة تنظيم الخريطة السياسية مما يقابل بمقاومة عنيفة على مثال ما حدث في الحرب العالمية الثانية، فمنذ بداية هذا التحول تشابكت الـچيوبوليتيكا والحرب تشابكًا معقدًا لا انفصام منه، ونمت هذه النظريات في دولة عسكرية وتولى توجيه تطورها رجل عسكري.

«**فالـچيوبوليتيكا**» إذن نتاج الفكر العسكري، ولكن إلى أي مدى نفذت الـچيوبوليتيكا بدورها وتطرقت إلى الفكر العسكري؟

إن نصيبها في الاستعدادات العسكرية لألمانيا كان ذا شقين:

١ـ قوى وثبت من التجميع المنسق والتنظيم للمعلومات عن كل أجزاء العالم، وهذه عادة قد أصبحت غريزية في الجغرافيين الألمان.

٢ـ وجهت كل النتائج التي أمكن الحصول عليها مباشرة إلى الكيان

العسكري وإلى الدعاية مختفية وراء ستار الجغرافية التطبيقية، ووجهت هذا إلى الشعب الألماني وإلى شعوب الأمم الأخرى.

وكانت المنظمة العسكرية ـ عن طريق هيئة أركان الحرب لها ـ كانت منذ زمن بعيد تجمع المعلومات عن الأرض.. عن العالم كله بمختلف قاراته، عملية رتيبة تسير بانتظام، جمع للمعلومات وتصنيفها، عملية التقاط وهضم، وكان الـچيوبوليتيكيون في الدور الكبير الذي يقومون به بالعلم التطبيقي أول من مدَّ من نطاق عملية إيجاد الحقائق لخدمة مطالب واحتياجات الحكومة لتخطط وترسم إستراتيجيتها السياسية.

ولم يكن هذا البحث الجغرافي مقصورًا في أوسع معانيه على الـچيوبوليتيكيين فحسب، بل وليس وقفًا عليهم وعلى الجغرافيين السياسيين، كانت الجماعات التي نظمها كارل هوزهوفر في معهد الجغرافية بجامعة ميونيخ وفي أماكن متعددة أخرى يعملون من أجل الحرب المتوقعة ما يعمله الآن جغرافيو الولايات المتحدة والكثير من الوكالات والهيئات بما فيها وزارة الحرب، وما يفعله هؤلاء اليوم من أجل القوات المسلحة الأمريكية في حال الحرب؛ لقد كان تفهم الحرب الشاملة هو الذي دفع علم الجغرافية إلى مركز الصدارة بين كل العلوم والفنون التي تخدم مصالح كل أمة[(١)]، لقد عمل الـچيوبوليتيكيون تبعًا؛ لتقديرهم إمكانيات قيام الحرب من أجل تقوية ودعم الهيئات التي تجمع المعلومات والحقائق الجغرافية قبل بدء الحرب بسنوات طوال.

ومع أنه لم تقم أية أدلة على الصلات التي كانت تربط كارل هوزهوفر

(١) Derwent Whittlesey, "The Role of Geography in Twenieth Centaury War" J.D. Clarkson and T.C. Cochran, eds, War as a Social Institution (New York, ١٩٤١) PP. ٧٨-٨٧.

بهيئة أركان الحرب الألمانية إلا أن المراقبين الأجانب ـ وبخاصة الذين عاشوا طويلاً في ألمانيا ـ كانوا على ثقة بهذه الصلات والروابط، وقد دلل الملحقون العسكريون ورجال الأعمال على وجود هذه الصلات(١).

وقد أكد الـچيوبوليتيكيون للشعب الألماني ـ في أضيق ما عليهم من واجبات عملهم ـ أكدوا للناس ما يدور في نطاق عقولهم من مسائل عسكرية، وقد قامت آراؤهم وتصوراتهم الخاصة بالمساحة كأهداف عملية على الحكومة الألمانية أن تحققها، وإن كان إدراكها لا يتم إلا بخوض غمار الحرب.

وكان الـچيوبوليتيكيون يعرفون أنه لا سبيل إلى تحقيق هذه الأهداف إلا بالحرب، وهكذا فإنهم لكي يمهدوا الأرض لآرائهم أبرزوا أن الحرب هو الحال الطبيعية لحياة الإنسان، ومجدوا مؤثراتها، ورفعوا من قيمة تأهب الأمة لها، وقدموا برنامجًا(*) لمتابعة الحرب بوسائل جغرافية(٢).

وقد قوَّى هذا من إيمان الأمة وثقتها بمصيرها كالشعب السائد، شعب عليه رسالة يجب أن يقوم بها، رسالة للغزو والحكم؛ على أن هذا الاتجاه في الواقع قد خرج ونما من أغوار التاريخ الألماني، ومن الخرافة الأسطورية للسيادة الألمانية وكانت هذه الظاهرة سائدة غلابة قبل عصر

(١) أغلب هذه الأدلة جاءت في أحاديث شفوية كالمحاضرة التي أذيعت من حديث أريك أرشيديكون المصرفي الأمريكي يوم ٨ فبراير سنة ١٩٤٣ أمام النظارة في النادي الكندي بمونتريال، وقد ذكر وتيليسي أسماء الهيئات التي كانت في خدمة هيئة أركان الحرب الألمانية في كتابه:

Whittlesey, German Straregy, op. cit, pp. ١٠٧-١٠٩.

(*) في الأصل: «وصفة» تشخيصًا طبيًّا ـ وقد ترجمت هنا «برنامجًا».

(٢) راجع بخاصة كتاب:

Ewald Banse, Raun und Volkim Weltkriege (Oldenburg, ١٩٣٢).

وقد ترجم إلى الإنجليزية ونشرت منه طبعة بلندن سنة ١٩٣٤ وطبعة أمريكية سنة ١٩٤١.

Germaney Preparces for War, English edition ١٩٣٤ (New York, ١٩١٤).

الـچيوبوليتيكيين بكثير، ولكن كان من الواجب في عصر العلم أن يمسك الإيمان الأعمى بأذيال العلم الطبيعي تطلبًا للمعاونة، ومن ثم جاء الـجيوبوليتكيون بالقواعد اللازمة لقيام العنصرية الألمانية، وأوجدوا الصلة التي لا يمكن فصمها بين الأرض وبين آرائهم في المساحة، والأكثر من هذا أنهم صاغوا إيضاحهم لهذه الصلات في أسلوب شبه علمي بدا أخاذًا للرجل العادي الغريب عن المهنة.

ولم تحقق أحاديث الـچيوبوليتيكيين موافقة وتقبل عامة الناس، بل ورضا الحكام عنها وموافقتهم عليها. وقد تساءل الألمان وغيرهم عن الصلات التي قامت بين الـچيوبوليتيكيين وبين الحزب النازي، ولكن دراسة الحوادث مكَّنت الباحثين النزيهين غير المنحازين، كما مكنت المتشككين في هذه الصلات للانتهاء إلى أن هذه الصلات كانت كبيرة وقوية.

ولقد كان رودولف هيس ـ الرجل الذي أطلق عليه رسميًا في فجر الحرب العالمية الثانية: الرجل الثالث ـ كان ياوراً ل هوزهوڤر ، وكان واحدًا من أخلص ممن تتلمذوا عليه لدراسة الـچيوبوليتيكا. وعندما كان هتلر معتقلاً بعد حادث «**حانة البيرة**» اعتاد هوزهوڤر زيارته في معتقله وكان هيس يعمل ككاتب السر أثناء تحرير كتابه «**كفاحي**» وتشير بعض فقرات هذا الكتاب أن الكثير من آراء الـچيوبوليتيكيين ومن أقسام برنامجهم كان لها تأثيرها الفعال في توجيه آراء هتلر نفسه.

ولقد قال هتلر عن العلاقة بين المجال الحيوي أو مجال الحياة وبين الكفاية العسكرية اللازمة للأمة:

«**إن سعة المجال الحيوي للشعب تتضمن العامل اللازم لأمنه الخارجي، وكلما اتسع مجال المنطقة التي تتوافر للشعب ازدادت الوقاية**

الطبيعية له، ولقد كان من الممكن دائمًا في سرعة ويسر تحقيق الانتصار العسكري على الأمم التي يزدحم سكانها في مناطق صغيرة على خلاف الحال بالنسبة للدول الكبيرة المساحة ولهذا فإن سعة أرض الدولة تعطيها وقاية ضد هجمات العدو، ولا يمكن أن يتحقق النجاح لمن يقوم بغزو دولة واسعة المساحة إلا بعد قتال طويل عنيف، وتكون المغامرة بالهجوم المفاجئ عظيمة الخطر إلا في ظروف غير عادية، وهكذا فإن كبر سعة أرض الدولة تمكننا من تفهم سهولة احتفاظها واستقلالها، على حين أنه على العكس تعتبر قلة سعة أرض الدولة دافعًا يحث الغير على غزوها»(١).

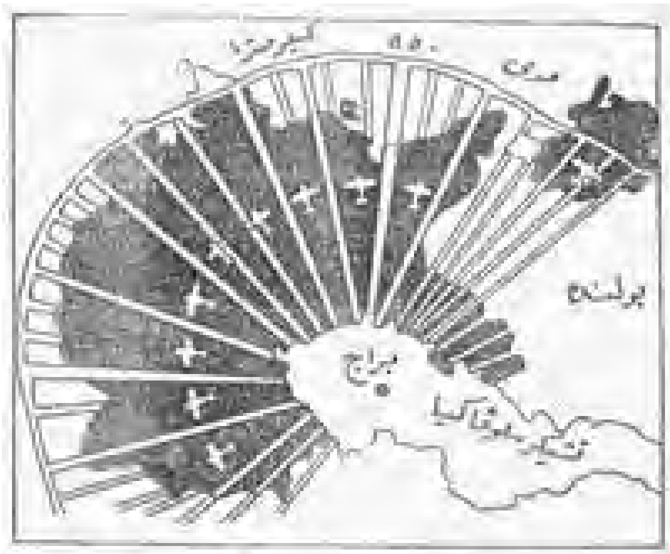
ويتابع هتلر الحديث بنفس الأسلوب فيقول في مكان آخر من الكتاب:

«إن السياسة الخارجية لدولة تقوم على سواعد شعب معين، يتوقف وجودها على وجود هذا الشعب الذي تحتضنه هذه الدولة وعلى كامل كيانه في الكتلة الأرضية، وتوجد علاقة طبيعية حيوية بين عدد أفراد الشعب ودرجة نموهم، وتكاثرهم من جهة، وبين حجم الأرض التي يعيش فيها، وطبيعة تربة هذه الأرض من جهة أخرى.

«والمساحة الواسعة الكافية هي وحدها التي تضمن حرية الأمة ووجودها.

«... ولمساحة الدولة أيضًا أهمية عسكرية سياسية أكثر من أن تكون مجرد مورد لغذاء الشعب، فإذا ما ضمن شعب غذاءه تبعًا لمساحة الأرض التي يعيش فيها، وتبعًا لجودة تربة هذه الأرض، وكان من الضروري أيضًا التفكير في حماية وتأمين الأرض التي يملكها هذا الشعب، ويتوقف هذا على

(١) Adolf Hitler, Mein Kampf (New York, Reynal and Hitchcock edition ١٩٣٩) p. ١٧٧.



= من خرائط الـچيوبوليتيكية الألمانية للدعاية المضادة =
كيف تهدد دولة صغيرة دولة أخرى كبيرة؟

كل الأراضي الألمانية داخل عمل قاذفة القنابل من تشيكوسلوڤاكيا.

القوة السياسية والقوة المادية التي تخضع إلى حد ما لاعتبارات جغرافية عسكرية»[١].

* * *

والواقع أن كلمات: «**لاعتبارات جغرافية ـ عسكرية**» التي وردت في الفقرة الأخيرة تدلنا على أن القول بتأثير كارل هوزهوفر في هتلر ليس مجرد حديث عارض لا يستند إلى أدلة، إذ الواقع أنه يثبت هذا التأثير ويدعمه.

وللفقرات التالية المقتطعة من كتاب «**كفاحي**» أهمية خاصة؛ ذلك لأنها تدل على ارتباط الـچيوبوليتيكا بالاشتراكية القومية Weltanschaung فهي تدل بوضوح على أن مشكلة اللغة ومشكلة الجنس كانتا واحدًا من عدد من العوامل الهامة المتساوية القيمة في تقدير هتلر، العوامل التي يجب أن تقرر المدى الذي تتسع له الحدود الدينامية لألمانيا.

«إن المطالبة باستعادة الحدود التي كانت لألمانيا في سنة ١٩١٤ لغباء سياسي إلى الحد الذي يجعله جريمة، ذلك لأن حدود الريخ في سنة ١٩١٤ كانت أي شيء إلا أن تكون حدودًا تقوم على المنطق، فهي في الواقع لم تكن من ناحية الكيان العام كاملة تتمشى مع مكانة القومية الألمانية، ولم تكن كذلك تدل على الذكاء؛ لعدم تمشيها مع الاحتياجات الجغرافية ـ العسكرية، وهي لم تكن نتيجة عمل سياسي أحسن تقديره، بل جاءت نتيجة لصراع سياسي انتهى بعضه بالمصادفة وحدها؛ وتبعًا للعدالة يستطيع الفرد أن يتخير

(١) نفس المرجع ص ٩٣٥-٩٣٥.



= استخدام الخريطة للدعاية =

علماء الـچيوبوليتيكا الألمان يصورون التهديد بالمدفعية لمناطق ألمانيا الصناعية.

قيست الأبعاد على أساس مرمى مدفع برتا الألماني في مدى ٧٧ ميلاً

المنطقة السوداء هي المنطقة التي لا تتعرض لنيران المدفعية إلا بعد اجتياز الحدود السياسية والبحرية بمسافة ٧٧ ميلاً أخرى ومن ثم فإن الرد الوحيد هو اتساع ألمانيا.

أي دعامة من دعامات التاريخ الألماني ليطالب باستعادة العلاقات التي كانت قائمة يوم ذاك ويجعلها هدف نشاطه في السياسة الخارجية»[(١)].

***

«ونحن، أعني: الاشتراكيين القوميين، يجب علينا أن نذهب إلى أبعد من هذا، إن الحق في رقعة الأرض وفي التربة الصالحة يمكن أن يكون واجبًا يجب العمل لتحقيقه عندما يبدو أن الانهيار والاضمحلال لا معدى عنه بالنسبة للأمة العظيمة ما لم تزد من سعة رقعة أرضها، ولهذا أهميته على التخصيص؛ لأننا لا نطالب ببعض الشعوب الزنجية، بل نطالب بضم الألمان لألمانيا، الأمم التي أعطت الثقافة للعالم المعاصر، إن ألمانيا يجب أن تكون في عداد الدول الكبرى في العالم أو لا تكون شيئًا ما، وهي لكي تكون في عداد القوى العالمية يجب أن تتوافر لها سعة المساحة، السعة التي تعطي الأهمية الضرورية لمثل هذه القوة، والتي تعطي الحياة للمواطنين الذين يعيشون فيها»[(٢)].

ومن المحتمل أن يكشف التاريخ مستقبلاً عن العلاقة الوثيقة بين طابع التوسع الذي وضح في السياسة الخارجية لألمانيا النازية وبين آراء هوزهوفر وغيره من الـچيوبوليتيكيين.

وبالإضافة إلى كل هذه الحقائق فإن تقدم هوزهوفر وغيره من الـچيوبوليتيكيين إلى الصفوف الأولى في دنيا النازية هو بخاصة بعد سنة ١٩٣٣ كان كبيرًا وبارزًا إلى الحد الذي لا يمكن معه القول بأنه كان بمحض

(١) نفس المرجع ص ٩٤٤-٩٤٥.
(٢) نفس المرجع ص ٩٥٠.



= ألمانيا قبل سنة ١٩١٨ وبعدها =

«كل مجاري المياه الرئيسية في ألمانيا تسير متوازية ، ولهذا أثره في عدم إمكان توافر المركزية ، كما يوضح صعوبة التعزيز السياسي».

المصادفة[١].

ولم يكن من الممكن أن يظل الجيش غير متأثر بهذه الحركة التي وضعت لخدمة أغراضه وأهدافه، ومن الممكن القول بأن الـچيوبوليتيكا كانت جزءًا هامًا من التفكير الرسمي والعسكري وفق عوامل تكوين الرأي العام العسكري.

ولم تنجح المحاولات لنشر هذه التعاليم في أي بلد آخر إلا في اليابان، فلقد كانت اليابان دولة عسكرية الطابع قبل عصر الـچيوبوليتيكيين، ولكن كان اهتمام هوزهوفر باليابان كبيرًا وفريدًا في بابه، ولقد ترجمت كل مؤلفاته إلى اللغة اليابانية، وكانت الجغرافية علمًا ترعاه الدولة في اليابان وتدعم منه الجامعات، وقد كيف اليابانيون علم الـچيوبوليتيكا ليتمشى مع برنامج حكومتهم للغزو.

ولقد أغفلت الأمم الأخرى علم الـچيوبوليتيكا حتى اضطرت الحرب العالمية الثانية كل فرد للاهتمام بالعلم والعناية بتفهمه، ولقد باتت كلمة «**ـچيوبوليتيكا**» كلمة عادية مفهومة لكل فرد، وصدر عدد كبير من المؤلفات للحديث عن العلم ومعناه وتاريخه في ألمانيا[٢]، وينظر كثيرون من الناس إليها على أنها غامضة مضللة Frakenstein كما حاول البعض أن يعدلوا من الاصطلاح بصورة ما لتستخدمه الأمم المتحدة في عملها لجمع الحقائق عن الدول المختلفة، أو بمعنى آخر أن تجمع كل المعلومات الجغرافية المعقولة التي تحتاج إليها الحكومات ويقولون عنها

(١) لمعرفة المراكز التي شغلها بعض هؤلاء الـجيوبوليتيكيين يرجع إلى كتاب:

Whittlesey, German Strategy, op. ueit, PP. ٧٤ -٧٦.

(٢) راجع بيان هذه الامؤلفات في الحديث عن المراجع في نهاية الفصل.

«**چيوبوليتيكا**».

ولقد حاول البعض أن يوجدوا «**چيوبوليتيكا**» أمريكية بالاعتماد على الجغرافية لدعم البرنامج السياسي لإسهام الولايات المتحدة في الشئون العالمية، ولكن هذا ولا شك يتحول ليكون تخطيطًا لسياسة القوة من وجهة النظر الأمريكية.

إن الاستخدام المتبادل يعاون لتمييز وفصل «**الـچيوبوليتيكا**» عن «**الجغرافية**»، إن المعرفة بجغرافية العالم الواحد من الأسس الضرورية التي يجب أن تتوافر للسياسة القومية في الحرب وفي السلم على السواء ذلك لأنها تسجل الحقائق المادية عن الأرض التي يجب تقديرها عند وضع برنامج قومي واقعي.

ولكن الـچيوبوليتيكا في الطابع الضيق الذي صوره لها هوزهوڤر تؤدي فقط إلى الحرب مهما كان طابع الأمة التي تطبقها، وهي ـ مهما بذل في إخفائها ـ وسيلة لسياسة القوة والاعتداء.

التاريخ لحياة كارل هوزهوفر ضابط جيش وعالم من علماء الجيوبوليتيكا

١٨٨٧: أتم دراسته في مدرسة ماكسميليان الملكية.

١٨٨٧: طالب ضابط في الآلاي الأول للمدفعية الملكية الباڤارية، وقد كانت كل خدمة كارل هوزهوڤر العسكرية في الجيش الباڤاري.

١٨٨٩: أتم دراسته في الأكاديمية العسكرية مع حصوله على مرتبة الشرف ومنح رتبة الملازم الثاني.

١٨٩٠-١٨٩٢: أرسل إلى مدرسة المدفعية والهندسة العسكرية، وعاد إلى الآلاي الأول مع التوصية باختياره للخدمة الخاصة.

أول أكتوبر ١٨٩٥: دخل كلية أركان الحرب مجتازًا امتحان الالتحاق بالكلية.

أول أكتوبر ١٨٩٨: أتم دراسته في كلية أركان الحرب مع التوصية باستخدامه في هيئة أركان الحرب وأعمال التدريس - رقي لرتبة الملازم الأول.

١٨٩٨-١٨٩٩: في هيئة أركان الحرب للواء المدفعية الأول.

نوفمبر ١٨٩٩-١٩٠١: استخدم في عدة أعمال، وبخاصة قيامه بجولة لمدة سنتين بتوجيه هيئة أركان الحرب.

سبتمبر ١٩٠١: برتبة النقيب قائدًا لبطارية مدفعية في الجيش الباڤاري.

أوائل سنة ١٩٠٤: مع هيئة أركان الحرب مرة ثانية.

أكتوبر ١٩٠٥: مدرس التاريخ العسكري الحديث في الكلية العسكرية.

يناير ١٩٠٧: ضابط أركان الحرب للفرقة الثالثة أثناء تدريب هيئة أركان الحرب.

شتاء ١٩٠٨-١٩٠٩: زيارة لليابان.

صيف سنة ١٩١٠: العودة لألمانيا.

أكتوبر ١٩١٠: مدرس بكلية أركان الحرب وبخاصة لإيضاح تجاربه في الشرق.

صيف ١٩١١: ترقى إلى رتبة الرائد مع تولي قيادة كتيبة مدفعية من آلاي المدفعية الحادي عشر.

١٩١٢: تقاعد من الخدمة العاملة في الجيش.

١٩١٤: حصل على درجة الدكتوراه في الجغرافية والـچيولوچية والتاريخ مع مرتبة الشرف الأولى من جامعة ميونيخ الباڤارية الملكية، استدعي للخدمة العاملة فور إعلان الحرب العالمية الأولى.

١٩١٩: تقاعد برتبة اللواء، تولى محاضرة طلاب جامعة ميونيخ في علم الجغرافية.

١٩٢١: أستاذ لعلم الجغرافية بجامعة ميونيخ (اختيارًا شرفيًا).

١٩٢٤: أستاذ في الأكاديمية الألمانية.

١٩٣٣: أستاذ علم الـچيوبوليتيكا وعميد قسم العلوم بجامعة ميونيخ.

١٩٣٣: مدير معهد دراسات الـچيوبوليتيكا بجامعة ميونيخ.

١٩٣٤-١٩٣٧: عميد الأكاديمية الألمانية.

١٩٣٨: رئيس المنظمة الشعبية للألمان المقيمين خارج ألمانيا.

١٩٤٤(ديسمبر): قتل ابنه البرخت وألقى به في معتقل داشو بأمر الـچستابو بعد فشل محاولة اغتيال هتلر.

١٩٤٥: أطلق الأمريكان سراحه أثناء الهجوم الأخير للغرب من برلين.

١٩٤٥ (٨ نوفمبر): وجدت جثته مع جثة زوجته في حديقة منزل صغير بجبال الألب الباڤارية وقد انتحرا بتناول السم.

حديث المراجع

الفصل السادس عشر

هوزهوفر...

الجيوبوليتيكيون

بقلم ديرونت وتليسي

نقلت الخريطة التي وسمت بعنوان:

(A Construction of Principal Panergions):

والمستخدمة في هذا الفصل بترخيص من شركة ماكنيت أند ماكنيت Maknight and Maknight والخريطة الخاصة بالأرض الداخلية لجزيرة العالم منقولة من كتاب هـ. ج. ماكيندر «**المحور الجغرافي للتاريخ**»

"The Gergraphical Pivot of History", "Geographical Journal, XXIII (١٩٠٤), ٤٥٥".

ونقلت بإذن خاص من الجمعية الجغرافية.

وأهم الدراسات الكلاسيكية في الجغرافية السياسية كتاب:

Friedrich Ratzel, Politische Geographie (Munich and Berlin ١٨٩٧' ٣rd Edition, revised, ١٩٢٣).

Halfored J. Mackinder, Democratic Ideals and Reality (New York, ١٩١٩).

الذي أعيد طبعه سنة ١٩٤٢ مع مقدمة بقلم إدوارد ميد ايرل، وتمهيد من قلم (الميجور) الرائد چورچ فيلدنج اليوت، ويعرض هذا الكتاب لآخر تصوير للمؤلف عن نظرية الأرض الداخلية (قلب العالم) وهي واحد من الأصول التي استعارها الچيوبوليتيكيون علماء سياسة الكرة الأرضية.

وقد جاءت التعاريف الأولى للاصطلاح چيوبوليتيكس Geopolitics كجزء رئيسي من النظام السياسي في كتاب:

Rudolf Kjellèn, Staten som Lifsform (Stockholm, ١٩١٦).

وقد ترجم هذا إلى الألمانية بعنوان: Der Staat atls Lehensform

وصدر في ليبزج سنة ١٩١٧، ثم أعيد طبعه سنة ١٩٢٤، كما يمكن الرجوع أيضًا لكتاب آخر لكچيلين هو:

Kjellèn, Die Grossmachte vor und nach dem Weltkriege (Berlin and Leipzig, ١٩٣٠).

وكانت هذه هي الترجمة الثانية والعشرين إلى الألمانية لكتابه الذي صدر لأول مرة سنة ١٩١٤ بعنوان:

Die Grossmachte der Gegenwart؛ وأضيفت إليه كملاحق له ثلاث دراسات عن التغييرات التي جاءت تابعة للحرب من قلم ثلاثة من الچيوبوليتيكيين القدامى، وتولى التحرير والإصدار كارل هوزهوفر نفسه.

وقد صدرت جملة كتابات كارل هوزهوفر في الأعداد المتتالية لمجلة:

Ziet schift fur Geoplitik, (Berichte uber den Indopazifischen Raum).

بعنوان: «**تقارير عن المنطقة الهندية ـ الباسيفيكية**»

ويقدم كتاب:

Karl Haushofer, Erich Obst, Hermann Lautensach and Otto Maull, Bausteine zur Geopolitic (Berlin - Grunewald, ١٩٢٨).

مقالات أربعة من رؤساء تحرير مجلة «**الدراسات الـجيوبوليتيكة**» مع ترك نصيب الأسد لكارل هوزهوڤر.

ويعتبر كتاب:

"Haushofer, Geopolitik des Pazifischen Ozeans".

الذي صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٢٤ وصدرت الطبعة الثانية سنة ١٩٣٩ تطبيقًا للأصول علم «**الـچيوبوليتيكا**» سياسة الكرة الأرضية في المنطقة التي يعنى بها هوزهوڤر العناية كلها، وتعرض وجهات نظر علماء الـچيوبوليتيكا عن الحدود السياسية أكثر ما نوقش من موضوعات الجغرافية السياسية في كتاب كارل هوزهوڤر الذي وسم بعنوان:

irenzen in iherer geographyischen und politischen Bendeutung (Berlin-Grunewald, ١٩٢٧, ٢nd ed. ١٩٣٩).

ويعرض كتابه:

"Weltpolitik von Heute".

للعلم في مستوى القارئ العادي ومن بين الكثير مما كتب كارل هوزهوڤر عن اليابان كتابه:

apan und die Japaner, eine Landeskunde und Volkunde (Leipzig und Berlin, ١٩٢٣), ٢nd ed. ١٩٣٣

كما يبرز اهتمامه بالشئون العسكرية في كتابه:

Wehr-Geopolitik (Berlin, ١٩٢٣).

❊ ❊ ❊

ونجد بيانًا لا مثيل له عن السبل التي يستخدم بها علم الجغرافية في الحرب، في كتاب:

Ewald Banse, Raum und Volk im Weltkriege: Gedanken uber eine national Weherlehre (Oldenburg i.p, ١٩٣٢).

وقد ترجم آلان هاريس Alan Harris، هذا الكتاب إلى الإنجليزية وصدر بنيويورك سنة ١٩٤١ بعنوان:

Germany Prepares for War I (New York, ١٩٤١).

وتعتبر كتابات چوهانس كوهين Johannes Kuhn في مجلة «**الدراسات الـجيوبوليتيكية**» والتي صدرت بعنوان:

"Uber den Sinn des gegenwartigs Krieges"

في المجلد ١٧ لسنة ١٩٤٠ الصفحات ٥٧-٦٢ و ١٠٥-١١٢ و ١٥٦-١٥٧ دفاعًا عن الحرب الحالية من وجهة نظر الـچيوبوليتيكيين.

ونستطيع أن نرجع إلى الدراسات المعاصرة عن علم الـچيوبوليتيكا في الكتابين المدرسيين الموجزين واللذين تعرضا لنظريات العلم وتعريف مصطلحاته وهما:

Johannes Mattern, Geopolitik (Baltimore, ١٩٤٢).

Hans W. Weigert, Generals and Geographers (New York, ١٩٤٢).

والكتاب الثاني دراسة فلسفية تتركز أساسًا حول كتابات هوزهوفر:

ويوجد أيضًا تاريخ جيد لحياة هوزهوفر مع مقتطفات من آرائه

وتعاليمه في كتاب:

Andreas Dorpalen, The World of General Haushofer (New York, ١٩٤٢).

كما نجد دراسة قيمة في كتاب:

Robert Strausz-Hupé, Geopolitics (New York, ١٩٤٢).

ويعتبر هذا نقاشًا جيدًا لتطورات العلم:

ويصور ديرونت ويتليسي Derwent Whittlesey الأسس الجغرافية لعلم الـچيوبوليتيكا في كتابه

"German Strategy of World Conquest"

طبع نيويورك سنة ١٩٤٢.

على أنه من الضروري أن يراجع الباحث دراستي:

Fred Vagts "Geography in War and Geopolitics" in Military Affairs, VII (١٩٤٣), ٧٨-٨٨.

n Gottmann "The Background of Geopolitics" in Millitary Affairs, VI (١٩٤٢), ١٩٧-٢٠٥.

القسم الخامس

الحرب في البحر والجو

الفصل السابع عشر

ماهـــان

المبشر الداعية للقوة البحرية

بقلم مرجريت تتل سبروت

لم يؤثر شخص واحد في نظرية القوة البحرية والاستراتيـچية البحرية تأثيرًا عميقًا مباشرًا بالقدر الذي كان لألفريد ثايير ماهان، فهو قد أوجد، بل وَوَجَّه، ثورة عارمة في السياسة البحرية الأمريكية، وأقام أساسًا نظريًا لإصرار بريطانيا على الاحتفاظ بمكانتها باعتبارها الدولة البحرية المبرزة على غيرها في هذا الميدان. كما كان الدافع وراء هذا التطور البحري الألماني الذي تم بوساطة الإمبراطور غاليوم الثاني والأدميرال تيربتز.

والواقع أن كتابات ماهان قد أثرت بطريقة أو بأخرى في التفكير البحري لفرنسا وإيطاليا وروسيا واليابان، فضلاً عن تأثيرها من هذه الناحية نفسها في دول أصغر وأقل شأنًا من هذه الدول الأربع الكبيرة؛ كان الفريد ثايير ماهان Alfred Thayer Mahan مؤرخًا له مكانته، وكان في نفس الوقت داعية ضد الاستعمار في أواخر أيام القرن التاسع عشر، واستطاع بالنفوذ السياسي القوي لصديقيه تيودور روزفلت وهنري كابوت لودج(*)

(*) تيودور روزفلت الرئيس السادس والعشرون للولايات المتحدت، ولد بمدينة نيويورك ٢٧ من أكتوبر سنة ١٨٥٨، العم الخامس لفرانكلين روزفلت، تولى الرياسة وعمره أقل من ٤٣ سنة عندما مات ماكينلي يوم ١٣ من سبتمبر سنة ١٩٠١، بقي في الرياسة حتى انتخاب تافت سنة ١٩٠٩، مات في سن الستين في ٦ من يناير سنة ١٩١٩ (وورلد=

أن يلعب دورًا هامًا في حث الولايات المتحدة على أن تعنى عناية كبيرة بتقرير مصيرها فيما وراء البحار طوال السنوات الأولى في مطلع القرن العشرين.

وقد ظهر كتاب ماهان- الكتاب الذي كان تاريخًا-

The Influence of Sea Power upon History ١٦٦٠-١٧٨٣

في سنة ١٨٩٠ في الوقت المناسب، بل في وقت يعتبر فريدًا في زمانه؛ فالحقبة التي تلت هذا جاءت مليئة بالحوادث والأحداث الدولية الجسام ـ وبخاصة في التاريخ البحري ـ فلقد قررت ألمانيا أن تبني أسطولاً حديثًا، وفي نفس الوقت برز الأسطول الألماني، وسببت الحرب الإسبانية ـ الأمريكية ظهور الولايات المتحدة بمظهر الدولة التي تقف في مصاف دول العالم القوية، هذا عدا أن فن بناء السفن وفن تسييرها في البحار كانا يمران بآخر مراحل الثورة الصناعية، كان الشراع يفسح الطريق للبخار، وكانت الهياكل الخشبية للسفن تختفي لتبرز إلى الوجود الجدران الحديدية، وكانت الأسلحة غير المخشخنة تحل مكانها أسلحة مخشخنة، ومن وراء الأفق بدت

=الماناك لسنة ١٩٦١ ص ٢٣٤) المترجم.

هنري كابوت لودج: سياسي أمريكي وكاتب، (١٨٩٣-١٩٢٤). (معجم ويستر طبع سنة ١٩٥٦).

كان من أقوى أعضاء مجلس الشيوخ، وكان على رأس المعارضة التي منعت الرئيس ويلسون من توقيع معاهدة الصلح والاشتراك في عصبة الأمم، كسب عضوية الشيوخ ضد جد الرئيس كنيدي الرئيس الحالي للولايات المتحدة، ولهذا كان انتصار الرئيس كنيدي على ابنه هنري كابوث لودج ردًا لاعتبار أسرة كينيدي.

American. History EM ٢٠٣p ١٩١.

JCHN KENNEDY by James Mac-Grgor Burns.

المترجم.

أسلحة جديدة قوية، كما وضعت التصميمات لطوابع خاصة للسفن البحرية التي تستخدم في الأغراض المتباينة.

ولكن كان التفكير الحربي ـ وبخاصة في الولايات المتحدة[١] ـ يقصر عن اللحاق بالتطور الفني، صحيح أن العقيدة البحرية الأمريكية في سنة ١٨٨٠ قد أوضحت تقدمًا قليلاً بالنسبة للأيام التي صحبت الثورة والتي سبقتها، وقد بدا أننا ما زلنا قلقين منزعجين للنظريتين التوأمتين: الدفاع الساحلي والإغارة على السفن التجارية، وعندما واجه الأمريكان ما سبق أن واجهوه في سنة ١٧٧٦ ثم في سنة ١٨١٢، من قوات بحرية أكبر، وتقبلنا القتال فقط في أحرج اللحظات وأكثر عنفًا، كانت استراتيجيتنا الدفاعية مصحوبة بالحكمة والحذر؛ ولكن يبدو أن ضباطنا البحريين وساستنا نسوا عندما سنحت الفرصة ـ بقتالنا ضد أسطول ضعيف ـ حصلنا على السيادة على البحر وأخذنا بخناق تجارة العدو.

وفي حكم چيفرسون خضنا غمار حرب هجومية في البحر المتوسط وحاصرنا ميناء القرصان البربر، وفي الحرب ضد المكسيك سيطرنا على مياه الخليج وبذلك عاونا الجيش الأمريكي لينزل بسواحل المكسيك، وكانت مهارة القيادة البحرية للاتحاد في البحر وسيطرتها على الملاحة النهرية في جنوب البلاد العامل الرئيسي لسقوط القوة الانفصالية في الجنوب أيام الحرب الأهلية الأمريكية، على أنه بالرغم من هذه التجارب البارزة الطابع

(١) لمناقشة تفاصيل سياسية أمريكا البحرية راجع كتاب:

H. & M. Sprout, The Rise of American Naval Power (rev. ed., Princeton ١٩٤٢).

أما عن «التكنولوچيا» فارجع إلى كتاب:

Bernard Brodie, Sea Power In The Machine Age (Princeton ١٩٤١).

فإن التجنيد الشعبي للأسطول في وقت الحرب الإسبانية كان بقصد الدفاع عن الساحل الأمريكي فحسب.

لقد عطل اعتبار الدفاع الساحلي والإغارة على السفن التجارية ـ أو على ما يقول الفرنسيون عنهما حرب السباق ـ عطل من تطور الاستراتيـچية البحرية الأمريكية كما عطل من التطور الفني البحري في الولايات المتحدة، ولكن ليس من الممكن استمرار السيطرة على مثل هذه الروح التحفظية، وبخاصة عندما بدئ في الحقبة التاسعة من القرن التاسع عشر إنشاء أسطول بحري جديد، مع شعور القوات البرية بأن الأسطول أداة لها أهميها في السياسة القومية؛ *والواقع* أن التقدم الفني يعتبر شيئًا طبيعيًا في أمة صناعية مثل الولايات المتحدة، ولكن كانت كتابات ماهان وتعاليمه هي الدعامة الاستراتيـچية بحرية جديدة.

- ١ -

في سنة ١٨٨٤ دعا الأدميرال ستيفن ب. لوس رئيس الكلية البحرية في نيوبورت بجزيرة رود Rhode المنشأة حديثًا، دعا الكابتن ماهان ليحاضر طلبة الكلية عن التاريخ والتكتيك البحريين وبذلك قدمه إلى المنبر الذي استطاع من فوقه أن يحقق لنفسه شهرة عالمية[١]، وكان ماهان طبقًا لدراساته ولتدريبه كفئًا لهذه الوظيفة في الكلية البحرية التي تقبلها توَّاقًا إليها.

كان ألفريد ثايير ماهان بن دنيس هارت ماهان الأستاذ السابق

(١) Capt. W. D. Puleston The Life and Work of Captin. Alferd Thayer Mahan (New Haven, ١٩٣٩), Chap. Xi.

بالأكاديمية العسكرية للولايات المتحدة والذي أبدى اهتمامًا بفن الحرب وكتب عددًا كبيرًا من الدراسات في الهندسة العسكرية، وهكذا فقد نما ماهان الصغير ليس فقط في الجو العسكري للأكاديمية العسكرية بويست بوينت بل وفي جو تتوافر له الثقافة العسكرية في منزله، وقد التحق بجامعة كولومبيا بنيويورك ثم انتقل إلى الأكاديمية البحرية بأنابوليس على نقيض رغبة أبيه، وأتم ماهان دراسته وترقى لرتبة ضابط في البحرية مع خريجي سنة ١٨٥٩ .

وخدم ماهان في البحرية في أثناء الحرب الأهلية ثم أرسل في رحلة بحرية لسنتين إلى المياه الآسيوية، وفي هذه الرحلة وضح انصرافه إلى دراسة التاريخ وهذه هواية صحبته طوال حياته، وعاد من الشرق الأقصى عن طريق أوروبا التي جال فيها لا كزائر بل كرجل يدرس الشئون التجارية والبحرية، ومن نوفمبر سنة ١٨٧٢ خدم «**الكوماندر**» ماهان لثلاث سنوات في إحدى القواعد البحرية في الأطلانطيق الجنوبي، وقد حاول فيما بعد جاهدًا بالعمل لإصلاح أحواض الأسطول في بوستون، ولكن لم يحقق نجاحًا في محاولته هذه(١).

وفي سنة ١٨٧٨ نشر أول كتاب له، كان الكتاب دراسة وسمت بعنوان «**التعليم البحري للضابط والجنود**» وكانت الدراسة قد نالت الجائزة الثالثة في مسابقة نظمها المعهد البحري للولايات المتحدة، وكانت الدراسة تملأ عليه حياته في ذلك الوقت، وقد قرأ يوم ذاك كل الكتب العسكرية التي صدرت في عصره بما في هذا الدوريات الفنية الأجنبية، وقد أثار انتباهه

(١) لدراسة المراحل الأولى من حياة ماهان يدرس نفس المرجع السابق الفصول ١-٩.

كتاب «**حرب شبه الجزيرة**» الذي كتبه نابيير Napier بسبب عنايته بإيضاح التبعات العسكرية للأسباب والمؤثرات، وقد عني هو بهذا في كتابه الذي نشر سنة ١٨٨٣ بعنوان «**مياه الخليج والجزيرة**»[١].

وفي قرابة ذلك الوقت أيضًا بدا ماهان بعرض فكرة جدية عن أثر وتأثير مشروع قناة برزخية في الوضع الدولي للولايات المتحدة، ومن الطريف ملاحظة أن ماهان طوال السنوات الأولى من حياته كان خصمًا للامبريالية لا يبارى وهكذا فإنه وهو يتولى قيادة سفينة حربية صغيرة ذات سارية واحدة في البحر لخارج الساحل الغربي لأمريكا الجنوبية في سنة ١٨٨٤ كان بعيد النظر، لأنه لم ينزل البحارة على البر لحماية المصالح الأمريكية عندما قامت الثورة في بيرو[٢].

وعندما كان ماهان في كياؤ في بيرو قرب ليما سنة ١٨٨٤ تلقى دعوة ليحاضر الطلاب في كلية الحرب، وتفتحت للرجل آفاق جديدة في حياته.

وفي السنتين التاليتين بدأ ماهان ـ الذي كان في الواقع معدًا لحياته الجديدة ـ بتزويد طلبته بالقاعدة التاريخية التي يعتبرها لازمة ضرورية للدراسات التي سيتلقونها عنه، وبدأ بكتاب تاريخ روما لمومسين "Mommsen's, History of Rome".

وجعلته مناقشة مومسين لأسباب اختيار هانيبال للوصول إلى إيطاليا بالطريق البري بدلاً من الطريق البحري أن يسأل نفسه: ترى ماذا تكون

(١) نفس المرجع ص ٥٠-٦٣.

(٢) نفس المرجع الفصل ١١ وكذلك كتاب:

A.T. Mahan " The Growth of our National Feeling " In World's Work, III (Febrauary, ١٩٠٢) PP. ١٧٦٣-١٧٦٤.

النتيجة لو كان هانيبال قد وصل إلى إيطاليا بطريق البحر؟، وانتهى من بحثه إلى أن «**السيطرة على البحر كانت عاملاً تاريخيًا لم يفكر فيه هانيبال التفكير الجدي اللازم**»(١)، وبدأ ماهان دراسة رتيبة منطقية للتاريخ العسكري والبحري للقرنين السابع عشر والثامن عشر قدمت له المادة الصالحة لتحليل العوامل المؤثرة في نهضة وانهيار الأمم، كما أمدته بالفرصة لدراسة وسائل القياس والمشابهة بين الحرب البرية وبين الحرب البحرية، والتي أمل أن يخرج منها بنظرية عن التكتيكات البحرية.

وقد قرر ماهان في إعداده لمحاضراته بكلية الحرب أن يناقش التاريخ العام لأوروبا وأمريكا مع العناية بخاصة بتأثير القوة البحرية(٢) وعلى هذا الأساس أعد ماهان وكتب كتبه الثلاثة التي صدرت على التوالي في سنة ١٨٩٠ وسنة ١٨٩٢ وسنة١٩٠٥وهي:

The Influence of Sea Power Upon History, ١٦٦٠-١٧٨٣.

The Influence of Sea Power Upon The French Revolution & Empire, ١٧٩٣-١٨١٢.

Sea Power in its Relation to the War of ١٨١٢.

وتعتبر هذه المجلدات الثلاثة معًا دعامة من دعامات التاريخ العام مع العناية بموضوع السياسة والاستراتيـجية والتكتيكات البحرية(٣)، على أن

---

(١) لدراسة إعداد ماهان لآرائه وأصول هذه الآراء يرجع إلى كتاب:

Puleston, Mahan PP. ٦٦-٧٣, ٧٤-٨٠, ٩٣ Quotations p. ٦٩.

(٢) نفس المرجع صفحة ٧٥ راجع أيضًا صفحة٣ من المقدمة لكتاب:

A.T. Mahan, The Influence of Sea Power upon History, ١٦٦٠-١٧٨٣. (١٨٩٠).

(٣) نفس المرجع صفحة ٦ مقدمة الكتاب.

ماهان أضاف إلى هذه المؤلفات الثلاثة العظيمة سيلاً لم ينقطع من الدراسات والمقالات والكتب عن الاستراتيجية البحرية وعن الشئون الدولية[١].

والواقع أن كتب ماهان ودراساته الأساسية هي في الواقع كتابات تاريخية عني فيها بدور القوة البحرية، ومن ثم فإن مناقشاته للسياسة القومية وللسياسة البحرية وللتكتيكات والاستراتيجية البحرية لم تقدم منفصلة عن غيرها بل جاءت متشابكة معها على طوال السرد التاريخي، وإن كانت في الواقع قد جاءت خبط عشواء على غير هدى.

ويتطلب التقدير الصحيح لمكانة ماهان في تاريخ الفكر العسكري أن نفصل عدة أشياء بعضها عن بعض، فإذا ما حققنا هذا استطعنا أن نقدر قيمة مساهمة ماهان العظيمة في الاستراتيجية الحديثة، وأن ندرك بأنه:

أولاً: استطاع أن يوجد فلسفة للقوة البحرية نالت تقدير وموافقة الكثيرين خارج الدوائر البحرية المحترفة، ووجدت طريقها إلى الهيئات والمجالس الحكومية في كثير من بلاد العالم...

ثانيا: وضع نظرية جديدة للاستراتيجية البحرية.

ثالثًا: كان ناقدًا جيدًا للتكتيكات البحرية.

* * *

ولقد كان ماهان يحكم على القوة البحرية وعلى الاستراتيجية البحرية تبعًا لعدة مظاهر (ظواهر) طبيعية أساسية مثل موضع الأمة في القارة

(١) راجع بيان المراجع في آخر الفصل، على أنه لدراسة أكثر تفصيلًا من الموضوعات التي كتب عنها ماهان يرجع إلى كتاب Puleston عنه الصفحات ٣٥٠-٣٦٤.

ومكانها على البحار المكشوفة، وتبعًا لسياستها القومية بالنسبة للأسطول البحري والأسطول التجاري والقواعد فيما وراء البحار.

وكانت التكتيكات البحرية في تقديره تعنى بالعمليات بعد أن يكون القتال قد بدأ، وكانت التكتيكات هي فن استخدام الأسلحة التي صنعها الإنسان، وهذه التكتيكات يمكن أن يتغير كما تتغير الأسلحة نفسها، ولكن مبادئ الاستراتيـچية البحرية تبعًا لمداها الواسع «**تبقى وكأنها قد قامت على صخرة صلبة**» تصلح لوقت السلم صلاحيتها لوقت الحرب»[١].

وكان الفاصل الواضح بين الاستراتيـچية والتكتيك واحدًا من الأشياء التي رفعت ماهان فوق مستوى الكتاب الذين سبقوه والذين اعتبروا القوات البحرية شيئًا لا يزيد كثيرًا عن أن يكون جزءًا من البناء العسكري، أقيم بخاصة لحماية السفن التجارية وللمعاونة على منع الغزو.

وقد اقتنع ماهان نتيجة لدراساته بأن القوة البحرية يمكن أن تزود الولايات المتحدة ـ بما سبق أن زودت به بريطانيا ـ بأداة سياسية تزيد من قوتها ومن مكانتها[٢].

ولما كان الموضوع الذي تعالجه مجلدات ماهان الثلاثة هو الأهمية الكبرى التي للقوة البحرية في رسم مصير الأمة، وقد أوضح مومسين (الذي كان كتابه أول ما أثار اهتمام ماهان بالتاريخ العسكري) بأن «**سير الحروب الفينيقية**[*] **يرجع من كل النواحي للقوة البحرية**»، ولكن اهتمام

(١) Influence of Sea Power upon History PP. ٨, ٢٠, ٢٣, ٢٨, ٨٨- ٨٩.

(٢) نفس المرجع الفصل الأول، وبخاصة ص ٢ وص ٢٨٧-٢٨٨.

(*) الحروب الفينيقية Punic Wars بين روما وقطاجنة، وهي ثلاث حروب: ٢٤٠-٢٤١ ق. م، ٢١٨-٢٠١ ق.م، ١٤٩-١٤٦ ق.م. =

ماهان بالقوة البحرية كان أوسع مدى، على ما يبدو من اختياره للقرنين السابع عشر والثامن عشر يدرس فيهما هذه القوة، ذلك لأن هذين القرنين كانا في الواقع عصر الإمبريالية التجارية، كما كانا البودقة التي انصهرت فيها تجارب الاستراتيـچية البحرية[١].

- ٢ -

وفي ضوء هذه النظرية الأساسية فإن القوة البحرية كانت لها أهميتها الحاسمة لنمو وتقدم ورخاء وأمن الأمة، وقد عمل ماهان لبحث العوامل المؤثرة في القوة البحرية وذكر ستة عوامل أساسية تؤثر في تطور هذه القوة هي:

* الوضع الجغرافي.
* التكيف الطبيعي.
* الامتداد الإقليمي.
* السكان.
* الاتجاهات القومية أي الاتجاهات الغريزية في الناس.
* النظام السياسي للحكم وأثره في توجيه السكان.

وكانت النتائج التي خرج بها في دراسته لهذه العوامل شيئًا مثل هذا..

فالوضع الجغرافي كعامل له أثره في القوة البحرية يمكن تفهمه

=وفي الحرب الأخيرة انتصرت روما وانتهت قوة قرطاجنة.

(١) راجع صفحة ٣ مقدمة المرجع السابق، وكذلك كتاب بولستون من ٧٠، كما يرجع إلى كتاب:

H. & M. Sprout, Toward a New Order of Sea Power (rev. ed . ١٩٤٣). PP. ٩ ff.

ليبحث وضع بريطانيا عندما نقارنها بالدولتين اللتين كانتا تنافسانها في القرنين السابع عشر والثامن عشر وهما: فرنسا وهولندة، فإن أمن الجزر البريطاني قد حرر الحكومة البريطانية من الحاجة للاحتفاظ بجيش كبير مع ما يسببه هذا من عبء في إنفاق الثروة القومية، والجزر البريطانية قريبة من قارة أوروبا، ومن ثم فهي في المدى الذي يمكنها من ضرب أعدائها ولكنها في نفس الوقت بعيدة بالقدر الكافي الذي يجعلها بمأمن من أن تتعرض للغزو.

والأسطول البريطاني يستطيع أن يحتشد من قاعدته الاستراتيـچية، وفي نفس الوقت يستطيع أن يستخدم للدفاع ولحصار موانئ القارة، وعلى نقيض هذا كانت فرنسا مرغمة على أن تقسم أسطولها بين سواحلها على الأطلانطيق وسواحلها على البحر المتوسط.

وموقع بريطانيا الجغرافي الفريد يُمكِّنها من السيطرة على خطوط الملاحة من، وإلى، شمال أوروبا، وتبعًا لتملكها لجزر هامة ولقواعد استراتيـچية مثل جبل طارق كانت في وضع يمكنها من الاحتفاظ بتدابير للسيطرة على البحر المتوسط، هذه السيطرة التي لعبت دورًا عظيمًا في تاريخ العالم من ناحيتي التجارة والحرب(١).

وللتكيف الطبيعي دوره في جعل السكان يعملون لتحقيق مكانة بحرية لبلادهم، فطبيعة الساحل تتحكم في سهولة ويسر الخروج إلى البحر الفسيح، والموانئ الجيدة تقدم القوة اللازمة لها، وطبيعة تربة البلاد، إما أن تجتذب الناس بعيدًا عن البحر، وإما أن تدفعهم دفعًا إليه للحصول على

---

(١) نفس المرجع ص ٣٣.

العيش. ولقد دفع الهولنديون إلى البحر ولكن اعتمادهم الكلي عليه كان مصدر ضعف لا قوة، وخصوبة تربة فرنسا جعلت اتجاه الفرنسيين للبحر مسألة لا إلزام فيها، وما من حاجة لهم بالاتجاه للبحر إلا عندما يكون هذا ضروريًا، والأمم الجزرية أي الشعوب التي تعيش في الجزر وأشباهها كبريطانيا وإسبانيا وإيطاليا يجب أن تكون قوية في البحر لتكون قوتها هذه ملموسة مؤثرة، والبحر يعتبر حدودًا فاصلة لكل دولة لها سواحل عليه، وتتقرر قوة الأمة تبعًا للحال التي تمد بها هي من هذه الحدود.

على أن امتداد الحدود قد تكون موضع ضعف بدلاً من أن تكون عامل قوة، ويتوقف هذا على مدى ما يتوافر في الأرض من عوامل القوة كالسكان والموارد، فإذا ما قطعت الأنهار المناطق الفسيحة من الأرض كانت الأنهار مصدرًا إضافيا من مصادر الضعف، ويرى ماهان أن الأرض في الولايات الجنوبية أيام الحرب الأهلية كانت كبيرة جدًا بالنسبة للسكان وللموارد، وأن السواحل والطرق المائية الداخلية كانت كبيرة جدًا بالنسبة لمصادر القوة.

ومن الضروري أن يوضع تعداد السكان وطبيعة تكوينهم موضع التقدير عند قياس القوة البحرية، ودولة بحرية كبريطانيا ليست في حاجة إلى عدد كبير من السكان فحسب بل وفي حاجة أيضًا ليكون ركوب البحر حرفة لهم بطريق مباشر وبطريق غير مباشر، وتجارة الدولة في وقت السلم من العوامل التي تقرر طاقة الأمة على البقاء والصمود في الحرب البحرية، ولهذا فمن الضروري أن يتوافر لها احتياطي كبير بين جملة السكان، وبخاصة ممن يعتبرون مهرة في صناعات السلم في وقت السلم من العوامل التي تقرر طاقة الأمة على البقاء والصمود في الحرب البحرية، ولهذا فمن الضروري أن



الفريد ثاپير ماهان

ضابط بحري ومؤرخ

(١٨٤٠-١٩١٤)

يتوافر لها احتياطي كبير بين جملة السكان، وبخاصة ممن يعتبرون مهرة في صناعات السلم في وقت السلم وفي وقت الحرب على السواء، وعلى سبيل المثال لم تكن دولة يركب أهلوها البحر فحسب، بل كانت أيضًا دولة تبني السفن ودولة لها مكانتها التجارية ومن ثم توافرت لها الموارد البشرية والفنية اللازمة للنجاح في الحرب البحرية، ومع هذا فمن الضروري الاحتفاظ دائمًا «**بالدرع التي توجد القوة الدفاعية ذلك لأنه – على ما يقول ماهان: «إذا كان الوقت هو العامل الذي له السيادة في الحرب، فإن هذه القوة الدفاعية تُلائم وتُناسب الأمم غير العسكرية الطابع والاتجاه، والتي يعترض سكانها – مثلهم في هذا مثل كل الشعوب الحرة – على ازدياد النفقات للمنشآت العسكرية، مُقدرين أن تكون في أقل ما يمكن من قوة على شريطة أن يكون هذا بالقدر الكافي لاكتساب الوقت اللازم لتحويل روح وطاقة رعاياها إلى النشاط الجديد الذي تتطلبه الحرب، فإذا كانت القوات التي تعمل في البحر وفي البر كافية للصمود والبقاء حتى ولو كان هذا لا يحقق نفعًا، فإن الأمة تعتمد على مواردها الطبيعية وعلى قوتها عندما تشترك في غمار هذه الحرب التي لم تكن تريدها أصلًا**».

وبهذا التصوير أكد ماهان الدرس الذي تحتاج إليه الشعوب الديمقراطية، الذي يجب أن تتعلمه وأن تعرف بأن «**القوة التي يجب أن توجد، والقوة الموجودة فعلًا ليستا شيئين متماثلين، وأنه من الضروري الاحتفاظ دائمًا بنسبة متوازنة بينهما**»[1] أي أنه يجب أن تكون لدى كل أمة نسبة منطقية صحيحة من القوات تمكنها من إعداد القوات التي تحتاج إليها

(١) نفس المرجع ص ٤٨.

فعلًا.

فطبيعة الناس واتجاهاتهم عامل ضروري لنجاح الشعب الذي يركب أفراده البحر، والرغبة في الاتجار مع القدرة لإنتاج ما يستخدم في التجارة هما اللتان توجدان الخاصية المهمة اللازمة لتطور القوة البحرية، «فإذا ما توافر هذان العاملان لشعبٍ ما، لم تُعطله أخطار البحر من التحول عن التطلع إلى الثروة عن طريق التجارة عبر المحيطات، وإذا ما توافرت لشعب الرغبة في التجارة فإنه ولا شك يوجد حركة تجارية في وقت السلم هي الخطوة الأولى لإقامة القوة البحرية، لقد كانت التجارة البحرية الواسعة المدى مع القدرة على بناء المنشآت البحرية هما اللتان جعلتا من بريطانيا قوة بحرية عظيمة.

على أن العمل المتواصل لزيادة الحركة التجارية والبحث عن الأسواق من العوامل الدافعة للحصول على المستعمرات ولهذا فلا يثير الدهشة أن بريطانيا، كما كانت لها المكانة الأولى في التجارة، وكما حققت لها سفنها السيادة البحرية، كانت الدولة الأكثر في عدد المستعمرات.

وهنا عامل آخر له أهميته هو طابع الحكومة التي تتولى الأمر، فإن هذا الطابع يمكن أو لا يمكن من تحقيق قيام القوة البحرية، ذلك لأنه على قدر نجاح الحكومة في توجيه الناس للاهتمام بالبحر يكون نجاحها في إنشاء القوة البحرية، ولقد كانت السياسة البريطانية منذ أيام چيمس الأول تستهدف الحصول على المستعمرات وازدياد الحركة التجارية وضمان السيادة البحرية، مع القيام بكل التدابير التي تؤكد هذا وتضمنه، ويعتقد ماهان بأنه كان من السهل الميسور انصراف الناس إلى سياسة يمكن إجمالها في سطر واحد، وذلك بسبب أن الحكومة كانت في طبقة واحدة من الناس هم

النبلاء مُلاك الأراضي(١).

ولقد أثار ماهان الشك في إمكان استمرار هذا في ضوء الحكومة الديمقراطية التي عاصرها؛ ذلك لأنه كان يعتقد أن الديمقراطيات لا ترغب في احتمال النفقات المستمرة لقوة بحرية كبيرة قائمة، ولاستعدادات عسكرية دائمة. ولقد حاولت فرنسا أيام كولبير Colbert أن تكون دولة بحرية عظيمة، ولكن هذه السياسة لم تستمر بعد انتهاء حكم كولبير، ولم تحصل على معاونة كافية من التجارة ومن المستعمرات التي كانت للإمبراطورية الفرنسية.

* * *

وقد يكون من الضروري أن نذكر هنا أن كفاية الحكومة وحصافتها وعزيمتها هي العوامل المؤثرة في تطور القوة البحرية، فالحكومة تسيطر على الأسطول وهي التي تقدر عَدَدَ وعُدَدَ وعَتَادَ سفنه، وهي التي تقرر طبيعة المنشآت البحرية، وقدرة المنظمات البحرية على التوسع بسرعة عند الحرب، وهي التي توجد روح رجال الأسطول ومدى احتمالهم للقتال، ثم إن العقائد الاستراتيجية التي تضعها الحكومة لها العلاقة الحاسمة في إعداد قوة الأمة في البحر، فالحكومة الفرنسية مثلًا قد أصرت على أن يقوم أمراء البحر في أسطولها بالمناورة في المحيطات الفسيحة مع تجنب أي اشتباك قد يؤدي إلى خسارتها لسفنها، وكانت هذه استراتيجية منعت الأسطول

(١) ألقت الأبحاث الحديثة ظلال الشك على تحليلات ماهان التاريخية من ناحية الدور الذي للنبلاء ملاك الأراضي، وتدل تلك البحوث على أن العامل الفعال إنما كان الطبقات الصاعدة من الناس العاملين في التجارة.

الفرنسي من الاشتباك في معارك حاسمة، وأضاعت كل فرصة ممكنة للانتصار على الأسطول البريطاني (أشار كيرالفي في الفصل التاسع عشر من هذا الكتاب إلى أن هذه الاعتبارات نفسها يبدو أنها كانت تسيطر على الفكر البحري الياباني، وقد يكون هذا عاملًا له أهميته في سير الحرب العالمية الثانية).

وقد وصل ماهان في تحليله للعوامل التي تؤثر في القوة البحرية لأن ينظر إلى الإمبريالية نظرة تختلف عن تلك التي كان يراها بها في فجر حياته، فلقد رأيناه في البداية يضاد الاستعمار، ولكنه انتهى بعد سنين إلى أن يضع موضع التقدير العلاقة بين المستعمرات والقوة البحرية، وهنا يقول: «وبالحصول على المستعمرات تكسب الدولة البحرية موطئ قدم لها في أرض أجنبية، وتجد مخرجًا لمتاجرها، ومنطقة جديدة لسفنها وعملًا أكثر لسكانها، ثم ثراء لها».

«ولكن لم تتحقق كل مطالب التجارة عندما كان الأمن والسلامة يقفان بعيدًا في آخر الطريق، فقد كانت الرحلات طويلة جدًّا مليئة بالمخاطر، فالبحار تزخر بالخصوم والأعداء وهنا وثبت إلى الضوء الحاجة إلى المحطات البحرية على طول الطريق، مثل الكاب، وسانت هيلانة، وموريتيوس[(١)]. وهي حاجة لم تكن بسبب التجارة وحدها، بل وبسبب الدفاع والحرب. وكانت هذه هي الحاجة التي تطلبت تملك مواقع مثل جبل

(١) موريتيوس Mauritius جزيرة بريطانية في المحيط الهندي للشرق من مدغشقر كانت أصلاً ملكاً لفرنسا واستولى عليها الإنجليز سنة ١٨٤٠، مساحتها ٧٢٠ ميلاً مربعاً تعداد سكانها ٤٩٧.٠٠٠ (إحصاء سنة ١٩٤٦) والعاصمة بورت لويس «المترجم». مُعجم ويبستر سنة ١٩٥٦ ص ٩٠٨.

طارق، مالطة، لويزبودج[١]، ومدخل خليج سانت لورنس، مواقع قيمتها في الغالبية استراتيـچية الطابع، ومن هنا لم يكن من الضروري أن تكون كل هذه المواقع مناطق للاستعمار وللتجارة، فقد تكون كذلك وقد تكون في بعض الأحيان عسكرية الطابع. ولهذا فلا يمكن الحكم على علة تملك مكان ما والدوافع وراء هذا، إلا إذا وضعنا هذه المؤثرات كلها موضع التقدير[٢].

ولهذا يكون قرار الحكومة «هل» و «أين»؟ يكون لتملك الدولة للقواعد البحرية تأثيره الحاسم في قوة الدولة في البحر، وكانت سفن الولايات المتحدة – بسبب عدم توافر القواعد لها فيما وراء البحار - «مثلها مثل طيور البر التي لا تستطيع أن تطير بعيدًا عن سواحلها».

ويتضح من تحليل ماهان للعوامل التي ترسم طبيعة القوة البحرية أن سيادة بريطانيا لم تكن تستند إلى القوة المادية وإلى أفضلية العقائد البحرية للأسطول البريطاني فحسب، بل وتستند أيضًا إلى سيطرتها على «البحار الضيقة»، وهذه البحار الضيقة التي تلعب دورًا هامًا في التاريخ البحري الحديث يمكن أن تعرف بأنها المناطق المائية مثل القنال الإنجليزي، مضيق جبل طارق، الممرات الضيقة عند صقلية ثم الدردنيل والبوسفور والتي يمكن السيطرة عليها في سهولة ويسر من أيٍ من الساحلين اللذين يحفان بها.

ولقد نجحت بريطانيا في تملك عدد من المواقع الأمامية للقوة البحرية والتي أعطتها بالإضافة إلى قوة أسطولها سيطرة لم تكن عُرضة للتنازع بعد معركة الطرف الأغر، سيطرة على البحر المتوسط والأطلانطيق الشرقي.

(١) على الساحل الشرقي لتوفاسكوتيا بكندا ٥٥ 45ْ شمالاً و 60ْ غرباً.

(٢) نفس المرجع ص ٢٧ – ٢٨.

ولما لم تكن هناك أي قوة بحرية عظيمة خارج أوروبا سنة ١٨٩٠ عندما أصدر ماهان أول كتبه عن القوى البحرية، فإن السيطرة على المياه الأوروبية كانت تعني السيطرة على كل محيطات العالم.

ولم تهدد سيطرة بريطانيا على بحار العالم إلا عندما بدت من وراء الأفق قوة غير أوروبية، ومع هذا فعلى طوال القرن التاسع عشر جعلت سيادة بريطانيا البحرية كل الطريق البحرية الرئيسية في العالم كخطوط مواصلات داخلية في قلب الإمبراطورية البريطانية[(١)].

- ٣ -

ولقد شك ماهان فيما إذا كانت بريطانيا ستستمر في الاحتفاظ بمكانتها كأكبر قوة بحرية في العالم، ولقد كتب بأن الدعامات الأساسية لهذه القوة: «لا تزال هي توافر التجارة، صناعة آلية كبيرة، ثم مستعمرات واسعة النطاق ولكن يبقى هنا سؤال يتطلب الإجابة هو:

هل يتوافر للحكومة الديمقراطية بُعد النظر مع الحساسية لتقدير الموقف الوطني والرغبة لضمان رخاء الوطن نتيجةً لتدفق النقد الكافي في وقت السلم؟ هل يتوافر هذا كله مع ملاحظة أن كل هذه العوامل ضرورية

(١) يرجع إلى حديث ملخص عن هذا في كتاب سبروت:

Toward a New Order of Sea Power pp. ٣-٢٨.

ويقارن هذا بما كتبه ماهان في كتابه وفي دراساته التي نشرتها الدوريات البحرية الفنية:

Influence of Sea Power upon the French Revolution and Empire, ١٧٩٣-١٨١٢ (١٨٩٢), I, pp. ١٥ ff and II, P. ١٠٦. "Considerations Govering the Disposition of Navies" in The National Review XXXIX (July ١٩٠٢), pp. ٧٠١, ٧٠٩-٧١١. The Interests of America in Internaional Conditions (١٩١٠) – pp. ٥ ff., ٦١-٦٢.

Naval Strategy (١٩١١) p. ١٧٧.

للاستعداد العسكري؟[١].

ومع هذا فالواقع أن التغييرات التي حدثت في توازن القوى البحرية أثناء القرن العشرين كانت نتيجة للتطورات التي لم يكن لبريطانيا أية سيطرة عليها، كانت هذه التطورات هي نشأة قوة بحرية جديدة مع الازدياد الكبير للقوة البحرية في مقابل القوة البحرية داخل أوروبا، وكان كذلك قيام عدة تطورات فنية جعلت الحصر البحري سلاحًا أقل تأثيرًا مما كان له من قبل[٢]. ومن المشكوك فيه أن يكون ماهان قد أدرك أهمية هذه التغييرات التي جاءت في نطاق عالمي، بل من المشكوك فيه أن يكون أي فرد آخر قد أدرك هذه الأهمية اللهم إلا في تاريخ متأخر.

وقد حطم بروز قوة اليابان البحرية السيادة الاستراتيـجية التي كانت لبريطانيا في أوروبا كما حطمتها في الشرق الأوسط، ومما يستحق السخرية أن الإنجليز أنفسهم قد عاونوا على بروز قوة اليابان البحرية، ففي السنوات العشر بين ١٨٨٠ و١٨٩٠ كانت أحواض السفن البريطانية تبني لليابان السفينة الحربية إثر السفينة الحربية، وأعارت بريطانيا ضباطها البحريين لحكومة الميكادو ليُعلموا الضباط اليابانيين علوم البحار، وقد يرد على هذا بأنه لو كانت بريطانيا قد رفضت بناء هذه السفن وامتنعت عن تقديم النصيحة والتدريب لليابانيين لكانت دولة أخرى قد فعلت هذا، وقد يمكن أن يُناقش هذا على أساس أن بريطانيا كانت تحتاج إلى قيام دولة تقف ضد أطماع الروسيا الإمبريالية والتي كانت يوم ذاك تهدد مكانة بريطانيا في آسيا،

(١) Mahan, Influence of Sea Power upon History p. ٦٧ & Naval Strategy, p. ١١٠.

(٢) يمكن الرجوع لكتاب سبروت Toward a New Order of Sea Power وبخاصة الفصل الثاني فإن الكاتب قد نقل عنه الكثير من الجمل.

ولكن هذا الجدل المنطقي لن يُغير من حقيقة أن الأسطول الياباني الحديث في المياه الآسيوية قد غير الموقف الاستراتيجي لغير صالح بريطانيا، ثم إن السفن البريطانية التي تحرس القنال الإنجليزي والبحر المتوسط لم تعد لتعتبر ضربة لازب وكأنها تسيطر على المواصلات البحرية إلى الشرق الأقصى.

***

وفي أثناء هذا كانت تحدث في نصف العالم الغربي تطورات مقابلة فقبل الحرب الأهلية كانت للولايات سياسة بحرية بعامة، وسياسة خاصة بالأسطول البحري، ولكن لا هذه ولا تلك أثرت بصورة ما في التيارات الرئيسية للسياسة العالمية، وحتى في نصف العالم الغربي كانت بريطانيا لا الولايات المتحدة هي التي لها السيادة البحرية، فلما انتهت الحرب الأهلية بدأ الأسطول – في أعقاب مرحلة نمو قصيرة الأجل – مرحلة طويلة من الانحدار نحو المغيب، ثم بدأت من جديد مرحلة عودة النمو في الحقبة التاسعة من القرن التاسع عشر وفي سنة ١٨٩٠ كانت حركة النمو تسير سيرًا رتيبًا، وقد زادت كتابات ماهان وغيرها من العوامل المؤثرة من سرعة خُطى النمو كما غيرت من اتجاهها.

وفي سنة ١٨٩٨ تحول أسطول الولايات المتحدة من حفنة من السفن المطاردة التي تغير على السفن التجارية إلى أسطول من البوارج القوية، ولم تعد السيطرة على البحار الضيقة في أوروبا تضمن السيادة البحرية في العالم الجديد، ولم تستطع الإمبريالية الإنجليزية الاحتفاظ بسيادتها في المياه الأمريكية وفي مياه الشرق الأقصى إلا بتقويتها لمجموعاتها البحرية فيما وراء

البحار، ولكن لم تلبث التطورات في المناطق القريبة من الجزر البريطانية أن جعلت هذا من الناحية العملية أمرًا مستحيلًا.

وقد هددت سرعة الخطى الإنشائية للبحرية في أوروبا – وبخاصة النمو السريع للأسطول الألماني بعد سنة ١٩٠٠ – من السيادة التاريخية لبريطانيا على المياه الأوروبية، وهكذا فإنه بدلًا من أن تقوى الحكومة البريطانية مجموعات سفنها فيما وراء البحار فإنها قد اتجهت إلى ترقيقها للاحتفاظ بسيادة محدودة في البحار الضيقة وفي الأطلانطيق الشرقي، وبصعوبة كبيرة استطاعت الحكومة البريطانية حقًا الاحتفاظ بهذه السيادة المحدودة على البحار المؤدية إلى أوروبا. وكان من الواضح مع هذا أن بريطانيا لا تزال قادرة على قطع خصومها في قارة أوروبا عن ممتلكاتهم فيما وراء البحار، بل وقطعهم عن موارد الغذاء والمواد الخام في العالم الغربي والشرق الأقصى، ولكن مع هذا فإن الطاقة على القيام بهذا الحصر البحري كانت تعتمد لا على سيادة بريطانيا في المياه الأوروبية وحسب، بل وتعتمد أيضًا على سياسة واتجاهات القوى البحرية عبر المحيطات، قوى الولايات المتحدة واليابان.

وكان الساسة البريطانيون ما زالوا يستطيعون ممارسة نفوذ حاسم على الحوادث العالمية عن طريق التجارة والمالية والدبلوماسية والدعاية، ولكنهم كانوا قد فقدوا اليد العليا التي كانت لهم في الشرق الأقصى وفي نصف العالم الغربي.

كانت سيادة بريطانيا على البحار العالمية قد اختفت واختفى معها هذا التوازن التاريخي للآلة التي تجري في يسر آلة الاقتصاد العالمي والنظام السياسي القوي التي تبناها الأسطول البريطاني وأمدها بالمعونة والقوة

طوال القرن السابق.

ومن المحتمل أن يكون ماهان نفسه قد زاد من سرعة القوى التي حطمت سيطرة بريطانيا على بحار العالم، فإن تفسيره للتاريخ بربطه بين القوة البحرية وعظمة الأمة وبين الإمبريالية والقوة البحرية، هذا التفسير قد اجتذب انتباه دعاة التوسع في أوروبا وفي الشرق الأقصى وفي أمريكا؛ وكان تمجيده للقوة البحرية قد قوَّى من اتجاهات الحوادث السياسية والاقتصادية التي كانت تشجع نمو الأسطول، وقد تبنت هذه الأساطيل وعضدت بدورها الإمبريالية الجديدة التي زادت من خطى الإنشاء البحري، وبنفس النسبة التي زادت بها قوة الأساطيل البحرية انخفضت بها السيادة البريطانية على البحار.

على أنه لم يكن الوضع الاستراتيجي لبريطانيا في مواجهة القوى البحرية الأخرى هو وحده الذي يتهايل وينهار، بل إن تطورات فنية وآلية كانت هي الأخرى تدور وتحدث فتضعف من الأهمية العسكرية والسياسية التي للقوة البحرية، وأحد هذه التطورات كان تحسين الخطوط الحديدية وتحسين النقل البري في قارة أوروبا، وتطور آخر لم يدرك تماما حتى كان قيام ألمانيا النازية هو صنع المواد الخام ذات الأهمية الاستراتيـچية والتي كانت أوروبا فيما سبق تجيء بها عبر البحار.

لقد كان النفوذ البريطاني وهو في ذروته مدينًا بالكثير للحال البدائية التي كان فيها النقل البري في قارة أوروبا، كان جزءًا كبيرًا جدًّا من حركة التجارة الأوروبية تسير على الماء في الأنهار والقنوات وفي المياه الساحلية، بل وفي أعالي البحار، وكانت المتاجر التي ترسل من شمال غربي ألمانيا إلى جنوبها مثلًا تنقل في الغالبية بالسفن من الموانيء الشمالية وتمر بها السفن في القنال

الانجليزي وحول جبل طارق إلى البحر المتوسط؛ فالدردنيل ثم تسير في نهر الدانوب إلى أهدافها في جنوب ألمانيا، ولكن إنشاء شبكات كبيرة من الخطوط الحديدية، وبالتبعية إنشاء الكثير من الطرق الممهدة المُعبدة قد غيرت من هذه الحال إلى حد كبير، وكان لهذا أهميته الاستراتيـجية والتجارية.

وقد قدر ماهان ولا شك هذه التطورات الحديثة، ولكنه بقي قانعًا بأن: «**نقل كميات كبيرة من المتاجر ولمسافات طويلة أيسر وأسرع أن يتم بطريق البحر لا بطريق البر**»، وكان هذا هو السبب في أهمية السيادة على البحار، وقد أصر على أن الطرق البحرية (هي الطرق الداخلية للمواصلات) التي لها النفع العسكري الحاسم[١].

وفي مقال كتبه ماهان سنة ١٩٠٧ قال: إنه قد برز إلى الوجود عدد من الوسائل التبادلية للنقل البحري، ولكن لمناقشة مسألة أن الكفاية السابقة التي كانت للنقل البحري لم تعد قائمة فإن رخص النقل البحري هو الذي تبقى له مكانته، صحيح قد تقل أهمية النقل البحري ولكن «**ما لم ينجح في استغلال الجو فسيبقى الماء ويجب أن يبقى الوسيلة الكبيرة القيمة في النقل**»[٢].

وفي سنة ١٩٠٧ برغم أن النقل على الخطوط الحديدية كان ما زال وليدًا في طابعه فإن الأشياء التي ستجيء مستقبلًا كانت تبدو في الأفق،

(١) Problem of Asia pp. ١٢٤.
أما بالنسبة لآراء ليست عن أهمية الخطوط الحديدية لألمانيا ولمكانة بريطانيا في الشرق الأوسط فيرجع إلى الفصل السادس من الكتاب الثاني «رواد الاستراتيـجية الحديثة».

(٢) Some Neglected Aspects of War (١٩٠٧) pp. ١٧٤

The Problem of Asia (١٩٠٠), pp. ١٢٥-١٢٦.

ولكن ماهان لبث في تحفظه بالنسبة لها كما كان بالنسبة لغيرها من المسائل الفنية الأخرى، وهو بلا شك لم يحلم قط بخفة الحركة التي حققتها القوات البرية في الحرب العالمية الثانية، فإن خفة الحركة الحديثة هذه لم تحرم القوة البحرية من خطوطها الداخلية للمواصلات فحسب بل وهددت أمن القواعد البرية التي بدونها لا تستطيع القوة البحرية البقاء.

لقد كان من الصعوبة بمكان في السنوات الأولى من القرن العشرين التنبؤ بالتقدم العلمي الذي ربما يمكن من إخلاء الدول العظمى في قارة أوروبا من اعتمادها على المنتجات التي تجيء بها من بلاد بعيدة، لقد كان من الواضح أن إنتاج زيت الوقود للمحركات من الفحم وصناعة المطاط الصناعي وما إلى هذا من المعجزات التي للعلم التطبيقي، كان من الواضح أن هذا لا تزال أمامه سنوات مستقبلًا حتى يتحقق بالقدر الكبير، ولكن مجيء هذا كله وتحقيقه سيمكن يومًا ما من حرمان الحصر البحري من الأثر الفعال الذي له، كما أنه سيسبب ضرورة استمرار الحصار لوقت طويل جدًّا ليكون مؤثرًا، ومن المقبول منطقيًا أنه في وقت قادم سيمكن للنقل الجوي أن يقضي تمامًا على النقل البحري ولكن مع هذا فإن القوة البحرية ودورها في السياسة الدولية ستظل قائمة في صورة ما لوقت أطول، ومن المؤكد أن القرنين السابع عشر والثامن عشر اللذين أقام ماهان نظرياته على أساسهما كانا عصر الازدهار للقوى البحرية.

لـقد آمن ماهان بأن القوة البحرية في كل الفروع «**التي تتشعب إليها**» هي الطريق «**الملكي**» المُمهد للثروة القومية وللمكانة لكل البلاد التي تتوافرلها الطاقة لتطورها، وقد أشار ماهان إلى أن كل أوجه الأفضلية تقف إلى جانب فرنسا لتمكنها من تطور أسطولها التجاري وأسطولها البحري،



تيودور روزڤلت (١٨٥٨ – ١٩١٩)

كان الرئيس السادس والعشرين للولايات المتحدة وتولى الرياسة من ١٩٠١ إلى ١٩٠٨ وخلفه في الرياسة وليم هوارد تافت

كان موقع فرنسا أقوى من موقع أي دولة أوروبية أخرى في العمليات ضد بريطانيا، ولكن فرنسا اختارت أن تكون قوة برية أساسيًا لا بحرية، وقد قاومت ألمانيا الكثير من العوامل المُعطلة ذلك لأن غالبية تجارتها المنقولة بطريق البحر يجب أن تمر بالقنال الإنجليزي أو ببحر الشمال تحت رحمة مدافع الأسطول البريطاني[١].

وفضلًا عن هذا فليس من المحتمل – على ما أشار ماهان – أن تدافع أي أمة أوروبية لها حدود برية ضد جيران أقوياء إذا ما استطاع هؤلاء الجيران أن يحرموا جيشها مما يحتاج إليه من الموارد المادية والبشرية نتيجةً لسيادتهم على البحار.

- ٤ -

ومن الطبيعي أن ماهان – كضابط بحري أمريكي – قد أكد قيمة القوة البحرية للولايات المتحدة، كما أكد الخُطى الضرورية لضمان هذا، وفي الوقت الذي كتب فيه ماهان كتابه: (تأثير القوة البحرية على التاريخ) كان غير راغب في تقبل برنامج الاتساع الإقليمي الذي بدا وكأنه جزء لا ينفصل عن نظرياته عن القوة البحرية، ومن ثم فإن وجهات نظره عن البرنامج البحري الأمريكي يجب أن تُعتبر مُعتدلة[٢].

وقد صرح فيما يختص بالدفاع عن موانينا البحرية بأن هناك خلافًا بين النظرية والتطبيق، وقد يبدو أن مبدأ: «السفن الحرة تضمن التجارة الحرة» يجعل من الأصلح والأكثر أمنًا للولايات المتحدة أن تترك تجارتها وقت

(١) Interest of America in International Conditions PP. ٥٣, ١٩٢ – ١٩٥.

(٢) Influence of Sea Power upon History, pp. ٨٣-٨٦.

الحرب لسفن البلاد المحايدة، ولكنه أشار إلى أن هذا المبدأ ليس بصالح في كل وقت عندما تقصد السفينة ميناء محاصرة، ومن ثم فلكي يمكن للولايات المتحدة أن تخترق الحصار وأن تتجنب تعرض موانيها للحصار يجب أن تتوافر لها القوة البحرية التي تكفي لطرد القوات المحاصرة، ولقد أثبتت حوادث الحرب الأهلية أن طول سواحل الولايات المتحدة لم يجعل - على خلاف ما ظن البعض - الحصار مستحيلًا.

وعلى خلاف النظرية الأمريكية القديمة يجب إبقاء العدو ليس فقط خارج موانينا، بل يجب إبقاؤه بعيدًا جدًّا عن سواحلنا؛ وقد أضاف ماهان: «يجب أن يكون نفوذ حكومتنا واضحًا ملموسًا، ولهذا يجب أن تُبنى للأمة أسطولًا إن لم يكن مستطيعًا الوصول إلى بلاد بعيدة فعلى الأقل يستطيع إبقاء طرق الاقتراب إلى بلاد ما مفتوحة مأمونة»(١).

ولقد رأى ماهان أن الولايات المتحدة تمتلك كل العناصر التي تمكن من نمو قوتها البحرية إلى درجة أقل بقليل مما يتوافر لانجلترة، فالموقع الجغرافي للولايات المتحدة يمكن أن يُقارن بالموقع الجغرافي لانجلترة من الناحية الجزرية، من ناحية ساحل ممتد يحف به البحر، وأعتقد أن شق قنال في بنما سيُغير علاقة الولايات المتحدة بالبحر الكاريبي، فيكون أشبه بالعلاقة بين انجلترة «**والقنال الإنجليزي**» أو أشبه بعلاقة انجلترة بالبحر المتوسط، ومع الاستعدادات العسكرية الصحيحة يمكن أن تكون للولايات المتحدة السيادة البحرية على تلك المنطقة.

ولكن ماهان - مع هذا - فشل في الإشارة إلى خلاف واحد حرج،

(١) نفس المرجع ص ٨٤ - ٨٨.

فليست في البحر الكاريبي جبهات لقوى بحرية أخرى، ومن ثم فإن السيطرة الأمريكية على هذه المنطقة لن تُعطي الولايات المتحدة قوة على الدول الكبرى الأخرى، على مثال ما تنال بريطانيا من سيطرتها على قنال المانش أو على البحر المتوسط(١).

فإذا ما نظرنا إلى العوامل المادية التي توافرت للولايات المتحدة وما لها من تأثير في القوة أو الضعف، وجدنا أن كثرة عدد موانيها وعمق هذه المواني لأمران لهما خطرهما ما لم يُدافع عن هذه المواني دفاعًا صحيحًا، ورأى ماهان أن الولايات المتحدة قد حصلت على جمال الأرض ووفرة الغلات، الأمرين اللذين حالا بين الشعب الفرنسي وبين الانصراف إلى البحر، وكان الموقف بالنسبة للولايات المتحدة يُخالف هذا عندما كانت لا تزيد على بعض مستوطنات على ساحل الأطلنطي، كان مركز القوة على الساحل قلما اتسعت رقعة الولايات المتحدة انتقل مركز القوة إلى الداخل، ولكن إذا عادت تلك الأيام ثانيةً وعاد للخروج إلى البحر ثماره المادية، وعندما تكشف الحدود البحرية الثلاثة عن أنها ليست ضعفًا عسكريًا فحسب، بل وأكثر من هذا بسبب افتقارها إلى السفن القومية فإن الجهد المتحد قد يجعل الأمريكان يضعون من جديد أسس قوتهم البحرية، واعتقد ماهان أنه إلى أن يجيء هذا الوقت فسيظل أولئك الذين يعرفون أهمية القوة البحرية يأسفون لأن بلادهم قد سلكت السبيل الذي سلكته فرنسا بإهمال هذا السلاح البحري(٢).

---

(١) نفس المرجع ص ٣٣ – ٣٤ راجع أيضاً ص ١٠٤ و ١١٠ و ١٢٤ من كتاب:
Interest of America in Sea Power (١٨٩٧) - Arms and Arbitration. طبع سنة ١٩١٢

(٢) Influence of Sea Power upon History, pp. ٨٣-٩٣.

ويناقش ماهان مسألة شق قنال بنما فيقول:

«وفيما عدا ساحل آلاسكا، فإن على سواحل الولايات المتحدة نقط قليلة تعتبر بخاصة ضعيفة تبعًا لبروزها ونتوئها للأمام، ثم إن كل النقاط الأخرى على الساحل يسهل الوصول إليها من الداخل بالخطوط الحديدية أو بالطرق المائية، وليس للولايات المتحدة مستعمرات بعيدة لازمة ضرورية لبقاء الولايات المتحدة، وهكذا فإن مواردها الوافرة التي لا حصر لها تمكن الناس من الحياة لنفسهم وبنفسهم، ومن ثم فإنه ما لم توجد طريق بحرية جديدة عبر المنطقة الضيقة في أمريكا ا لوسطى فلن يستيقظ أولئك الذين غفلوا عن الحق المشترك لكل الناس في البحر»[١].

«وسيُعطي إنشاء القنال في أمريكا الوسطى Isthmus لكل المواقع على البحر الكاريبي قيمة تجارية وعسكرية عظيمة، وستكون القنال نفسها مركزًا استراتيجيًا حاسم الأهمية، والأمة التي تسيطر على خطوط الاقتراب البحرية للقنال ستسيطر على القنال نفسها، وقد خشي ماهان أنه لو لم تتوافر للولايات المتحدة قوات عسكرية وبحرية أكثر مما لها في سنة ١٨٩٠ فإن شق هذه القنال لن يكون أكثر من نكبة بالنسبة لها»[٢].

وقد صرح ماهان بأنه من وجهة النظر للتجارة وللتجارة المحمولة بالبحر فإن مركز الولايات المتحدة يُعتبر مركزًا فريدًا «**فهي تواجه العالم القديم من الشرق والغرب**» وسواحلها تحف بالمحيطات التي قد تساحل دولة أو أخرى ولكنها تُساحل كلها الولايات المتحدة وحدها، ومن ثم فإن لهذا الموقع فوائده الكبرى في الدفاع أيضًا، فإن بعد الدولة البحرية والأمم

(١) نفس المرجع ص ٤٢ – ص ١٩٨ من كتاب Problem of Asia.

(٢) Interest of America in Sea Power pp. ١٢-١٣; Problem of Asia pp. ١٨٢-١٨٤.

العسكرية الكبيرة عن سواحل الولايات المتحدة يجعل العمليات البحرية ضد الولايات المتحدة من الصعوبة بمكان، ثم إن الحسد والغيرة بين مجموعة الدول الأوروبية. هذه الغيرة التي يُقال لها توازن القوى ستحدد من قدرة وطاقة هذه الدول على إرسال القوات ضد سواحل الولايات المتحدة(١).

ولكن من جهةٍ أخرى فإن سعة رقعة الولايات المتحدة قد تكون عاملًا من عوامل ضعفها ضد دولة قوية على مثال ما كان موقف الولايات الجنوبية من الولايات الشمالية في الحرب الأهلية، فلم يكن لدى الولايات الجنوبية أسطول، ولم يكن أهلها يهتمون بالبحر، ولهذا لم يقدروا عظم الساحل البحري الذي كان عليهم واجب الدفاع عنه، ومن ثم فإن الولايات المتحدة يجب أن تكون قادرة على إيجاد القوة اللازمة للدفاع ليس عن ساحل واحد، بل عن ساحلين اثنين(٢).

وأشار ماهان إلى أن الولايات المتحدة مثلها مثل هولندة لا ينفق الناس المال للدفاع عن أنفسهم إلا عندما يُصدمون بالخطر أمام أعينهم يكاد يلمس وجوههم. ***والواقع*** أنه ليس للولايات المتحدة «الدرع الدفاعية التي تستطيع أن تعُد خلفها قواتها الاحتياطية، وتعداد الناس الذين يودون ركوب البحر أقل مما يكفي للحاجة الضرورية جدًّا» وقد اعتقد ماهان بأنه

---

(١) Interest of America in Sea Power pp. ٦, ١١٠, ١٨٢; «Current Fallacies upon Naval Subjects» in Harper's Monthly Magazine, XCVII (June ١٨٩٨) pp. ٤٥, ٤٩, & Naval Strategy pp. ١٨–١٩.

(٢) Influence of Sea Power upon History, p. ٤٣; Problem of Asia pp. ١٨١, ١٩٨, ١٩٩ Also "The Panama Canal and Distribution of the Fleet" in North American Review, (Sept. ١٩١٤).

من غير الممكن إعداد هذه الطبقة من الناس الذين يُقبلون على ركوب البحر إلا بقيام حركة تجارية بحرية واسعة النطاق في سفن تحمل الأعلام الأمريكية[١].

ولم يرقب ماهان من سبب للشك في أن المواطنين تتوافر فيهم الروح التجارية والنزعات الفطرية للحكم الذاتي وللاستقلال على مثال ما يتوافر للإنجليز، وقد أدرك بأنه لو أمكن أن تتوافر في الميدان المشروعات المُجزية فإن القوة البحرية لا تلبث أن تتطور وتتقدم، فإن «**الغريزة الفطرية للتجارة**» و«**الميل إلى الوسائل التي تؤدي إليها**» و «**الجرأة في العمل للحصول على الكسب**» كلها عوامل غريزية تتوافر للشعب الأمريكي[٢].

على أن ماهان رأى في الديمقراطية عاملًا يحد من النفع بالنسبة للولايات المتحدة، فالدول الديمقراطية عادةً تفتقر إلى الرغبة وبُعد النظر للإنفاق على قواتها العسكرية في وقت السلم[٣].

وكانت الولايات المتحدة تواجه عاملًا مُعطلًا هو افتقارها للمستعمرات، وفي سنة ١٨٨٠ لم يكن لها مستعمرات ولا محطات بحرية، وكانت الولايات المتحدة من وجهة نظر ماهان تملك فقط الحلقة الأولى من الحلقات الثلاث اللازمة للقوة البحرية، ألا وهي: التطور الداخلي وإنتاج السفن البحرية في وقت السلم، ثم المستعمرات.

ويُتابع ماهان حديثه فيقول: «**وتبعًا للصورة الحالية للأسطول فإن محاولة القيام بحصار موانئ الولايات المتحدة لن تتطلب جهدًا أكبر مما قامت**

(١) Influence of Sea Power upon History, p. ٤٩.

(٢) نفس المرجع ص ٥٧ – ٥٨.

(٣) نفس المرجع ص ٦٧.

به الأمم البحرية العظيمة في الماضي، ولن يجوع شعب الولايات المتحدة ولكنه سيُقاسي متاعب كثيرة، ولهذا فمن الضروري أن تتوافر للولايات المتحدة قوة بحرية بالحجم الذي يُبقي قوات العدو بعيدًا عن سواحلها»، وقد أسف ماهان لأنه في الوقت الذي كان يكتب فيه هذا كان الناس يفتقرون إلى الدافع الذي يحثهم على أن يقوموا بتطور بحريتهم، وهكذا ظن بأن مثل هذا الدافع قد يوجد نتيجةً لشق قناة عبر أمريكا الوسطى(١).

ومع أن الأسطول الأمريكي كان ضعيفًا، ولم يكن من الممكن مقارنة موقع الولايات المتحدة بموقع إنجلترة من ناحية العوامل الضرورية اللازمة للقوة البحرية، فلقد أحس ماهان بأن الولايات المتحدة يمكن أن تجعل من نفسها قوة بحرية عظيمة، إن لم تكن أعظم القوى البحرية كلها، وذلك لو أن الشعب قد اتخذ سياسة تستهدف باستمرار تقوية الأسطول الأمريكي، وإعداد القواعد البحرية المناسبة، والحصول على مستعمرات فيما وراء البحار، وبناء أسطول تجاري كبير، وبذلك كله يمكن الولايات المتحدة أن تطمئن إلى موقعها على البحر، وسيمكن التغلب على أوجه النقص الأخرى بسبب المركز المتوسط الذي للولايات المتحدة ولأمنها النسبي من الهجوم ولاقتران هذا بالطاقة الصناعية العظيمة التي تتوافر لها.

وكما أن الوقت والفن كانا يجعلان للقوة البحرية أهميتها كآلة في السياسة الدولية، فإنهما كانا يُقللان أيضًا من أهمية بعض العوامل التي كان ماهان يعتبرها عوامل أساسية رئيسية لازمة للقوة البحرية، وقد رأى ماهان أن البخار بجعله السفن لا تعتمد على الرياح قد سبب الحد من تقديرات

---

(١) نفس المرجع ص ٥٦ وكتاب: Interest of America in Sea Power, pp. ١٩٩-٢٠٠.



الجغرافية والقوة البحرية الأمريكية ١٨٩٨ - ١٩٢٢

الوقاية التي يفرضها الوضع الجزري للبلاد، أي التي يسر منها كون البلاد أشبه بجزيرة وسط البحر الفسيح[١].

وقد زاد البخار أيضًا من أهمية المحطات البحرية بزيادته من مدى عمل الأسطول، ولكن كان هذا مُجرد بداية، فإن الغواصات ثم الطائرات فيما بعد كانت تحطم من القيمة الوقائية التي للشكل الجزري، على أن ماهان لم يعش ليشهد كيف قامت الغواصات الألمانية بحصر مضاد للحصار البريطاني، وكيف هددت بريطانية سنة ١٩١٧ بالمجاعة التي توشك أن ترغمها على الاستسلام؛ ولم يعش كذلك ليرقب الهجوم الجوي البرقي لسنة ١٩٤٠ ضد الموانى والمراكز الصناعية التي كانت هي العمود الفقري للبحرية البريطانية فلم تعد السيطرة التقليدية على البحار بواسطة السفن الكبيرة ضمانًا بحالٍ ما لأمن الجزر البريطانية.

وبالإضافة إلى هذا فإن أسطول المعركة نفسه يتعرض لهجوم هذه الأسلحة الجديدة، ومن الضروري القيام دائمًا وفي كل وقت بحماية الأسطول من غواصات العدو، وأضحت البحار الضيقة والمياه الساحلية التي تقع تحت سيطرة طائرات العدو التي تخرج من قواعد برية مناطق حرجة جدًّا بالنسبة للسفن الكبيرة، وهكذا فإن الأسلحة الحديثة قد حددت من المناطق التي يمكن للأسطول أن يستخدم قوته فيها.

وقد كرر ماهان أكثر من مرة حقيقة أن القواعد الآمنة هي الدعامة اللازمة لبقاء الأسطول في البحر، ولم يكن من الممكن أن يتنبأ ماهان بأن

---

(١) Interest of America in International Condition pp. ٦٢-٦٣, «Blockade in Relation to Naval Strategy» in U.S. Naval Inst. Proc. XXI pp. ٨٥١-٨٥٦.

الحرب الميكانيكية ستُهدد من بقاء القوة البحرية وكيانها تبعًا لمهاجمتها القواعد البحرية المُعرضة وبخاصة من الجو، لقد باتت لسعة أرض الدولة أهمية أكثر مما قدرها لها ماهان، فمن الممكن تحويل «**العمق**» إلى دفاع ليس فقط ضد السلاح الجديد الآلي في الحرب البرية، بل وضد هجوم أي نوع من الطائرات، والقواعد البحرية التي لا عمق لها والتي لا تتوافر لها موارد إمدادات كبيرة مثل سنغافورة وهنج كنج لم يعد من الممكن أن تحتفظ بها أي قوة بحرية ضد هجوم بري قوي بقوات ميكانيكية.

ولقد أضحت الحرب منذ سنة ١٩١٤ صراعًا بين المُستحدثات الفنية، ولم تعد الأهمية مقصورة على مدى الإمكانيات والموارد التي يمكن أن تتوافر للأمة، بل كان للقدرة الفنية التي يمكن أن تتوافر لأفراد الشعب أنفسهم أهميتها كذلك، وأضحت قدرة الأمة على اختيار الطريق الوسط بين التحفظ الذي لا مبرر له، وبين الاندفاع والتعجل في تجربة المسائل الفنية، هو الفيصل بين الانتصار والهزيمة.

على أن كل أوجه التطور الحديثة في القوة البحرية كانت في جملتها تقف إلى جانب الولايات المتحدة، وفي ضوء التطورات التي توافرت لقاذفة القنابل البعيدة المدى كانت القواعد الأمريكية ومراكز صناعاتها الحربية أقل تعرضًا للهجوم من قواعد ومراكز صناعات أي دولة أخرى من الدول الكبرى.

وفي ضوء هذا، وفي ضوء مسائل أخرى، كان من الضروري إعادة تقدير قيمة العوامل الستة التي ذكرها ماهان كدعائم للقوة البحرية، ولكن من الواضح أن آراءه الأساسية لا تزال معقولة، ولا تزال عوامل: الموقع، التنسيق الطبيعي بما في هذا الجو والموارد الطبيعية، وطبيعة الناس، ثم طبيعة

الحكومة القائمة بالأمر، لا تزال هذه كلها العوامل الرئيسة التي تؤثر في القوة البحرية لأية أمة.

- ٥ -

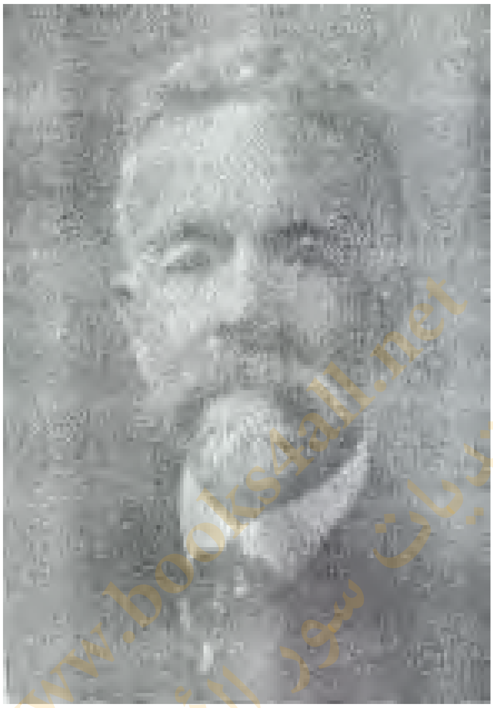
وإذا كان غرض ماهان الأول هو تقدير تأثير القوة البحرية في مصير الأمم، فإن غرضه الثاني كان استخلاص بعض مباديء أساسية ثابتة باقية لا تتبدل، مباديء في الاستراتيـچية البحرية يستخلصها من دراسته للحرب البحرية مع مقارنتها، أو يمكن أن تُقارن، بمباديء الحرب البرية على ما صاغها چوميني.

ومع أن الموضوع الأساسي في مؤلفاته الثلاثة يعني بتأثير القوة البحرية في التاريخ قاصرًا هذا على الأهمية السياسية للقوة البحرية، فإن هذه المُجلدات تحوي بين صفحاتها – مُبعثرة هنا وهناك – مناقشات تدور حول عناصر كثيرة من نظرية ماهان عن الاستراتيـچية البحرية والدفاع، وقد جاءت هذه الآراء كاملة وأكثر تطورًا في آخر كتبه ودراساته.

وقد قضى ماهان أكثر من سنة ونصف سنة يقرأ التاريخ الأوروبي وبخاصة تاريخ فرنسا عندما بدأ يدرس مؤلفات چوميني(١) **وبخاصة كتابيه «تاريخ الحملات الحربية للثورة وللإمبراطورية» و«موجز فن الحرب»**(*)، وقد اعترف ماهان كثيرًا بفضل الكاتب السويسري، ذلك لأنه تعلم من چوميني أن ينظر إلى حوادث التاريخ البحري كتصويرات للمباديء الحية

(١) لتبين تأثير چوميني في كتابات ماهان راجع كتاب: Puleston, Maham pp. ٦١, ٦٩, ٧٧, ٢٧ff, ٢٩٥ff.

(*) History of the Campaigns of the Revolution and Empire. The Summary of the Art of War.



هنري كابوت لودچ (لوچ)

(١٨٥٠ – ١٩٢٤)

سياسي أمريكي احتفظ بعضوية مجلس الكونجرس

من ١٨٩٣ - ١٩٢٤

وقد كشف من دراسته لـچوميني أنه ليس هناك ما يُعتبر فاصلًا حادًا بين الاعتبارات الدبلوماسية وبين الاعتبارات العسكرية، كما خرج من نفس المصدر بأسلوب النقد التحليلي للحملات الحربية والمعارك.

وقد صاغ چوميني مبادىء الحرب[١] التي قامت على أساس: الموقع – خطوط المواصلات – حشد القوة.

وقد حاول ماهان أن يكتشف مبادئ للتكتيكات والاستراتيـچية البحرية، ووجد أن الكثير من آراء چوميني صالحة للتطبيق على الحرب البحرية وإن كان بعضها قد تطلب التعديل والتحديد، وهكذا كانت المبادئ التي صاغها ماهان أساسًا للاستراتيـچية التي أثرت في تخطيط وسياسات الأساطيل التي لها الصدارة.

ويرى ماهان أن الموقع المتوسط له في حال البحر نفس الفوائد في الدفاع والهجوم التي له في حال البر، ومثل هذا الموقع يكون على الخطوط الداخلية، الخطوط القصيرة التي تسير عليها عملية الهجوم، والخط الداخلي ليس أكثر من «امتداد للموقع المتوسط» أو «لسلسلة من المواقع المتوسطة المتصلة وبعضها بعضًا»، والشخص الذي يتملك مثل هذه الخطوط يستطيع أن يحشد قواته على أي جبهة بين عدة جبهات بسرعة أكبر مما يستطيع العدو هذا، وبذلك يكون أحسن استخدامًا لقواته من العدو[٢]، فالسويس[*] –

(١) نفس المرجع ص ٧٨ – ٧٩، راجع الفصل الرابع من كتاب بولستون Puleston عن ماهان لتبين تفصيل كتابات چوميني.

(٢) Naval Strategy pp. ٣١.

(*) السويس يُقصد قناة السويس وهي بالطبيعة تمر بها خطوط الملاحة عبر البحر المتوسط والبحر الأحمر إلى المحيط الهندي، فهي ممر داخلي بالنسبة للدوران الخارجي حول أفريقية

على سبيل المثال – تعتبر خطًا داخليًا عند مقارنتها بطريق رأس الرجاء الصالح، وكذلك يكون موقف بنما بالنسبة لمضيق ماجلان(*)، وقنال كيبل بالنسبة لسكاجراك(*).

ويقول ماهان إن القيمة الاستراتيـجية لموقع ما تتوقف ليس فقط على علاقته بالنسبة لخطوط استراتيـچية بل وعلى الموارد التي تتوافر للمكان نفسه، أو للمنطقة المحيطة به. وموقع مثل دوفر أو جبل طارق، وكلٌ على مقربة من خطوط بحرية أو على مقربة من تقاطع عدة طرق بحرية، من الطبيعي أن يُعتبر موقعًا مركزيًا متوسطًا، وقيمة مثل هذا الموقع الاستراتيجي تَعظُم وتزداد تبعًا لحقيقة أن الطرق البحرية في هذه الأماكن تضيق بدرجة كبيرة فضلًا عن أنه من الضروري أن يجتاز هذه المناطق الضيقة عدد كبير من السفن وقد تزداد القوة العسكرية لموقع معين تبعًا للتحصينات التي تُقام عنده، ولكن إذا ما كان من الضروري نقل كل المواد اللازمة للموقع من مناطق بعيدة كان هذا الموقع مع قوته أقل قيمة من موقع آخر يقع حوله إقليم صديق(١)، وفي ضوء هذا تبدو لنا أوجه التضاد بالنسبة

(*) وهكذا الحال في المرور بقناة بنما بدلاً من الدوران في مضيق ماجلان في أقصى الجنوب من أمريكا اللاتينية .

(*) وكذلك عند المرور بقناة كييل من البلطيق إلى بحر الشمال بدلاً من المرور بسكاجراك ذراع بحر الشمال الذي يمتد لمسافة مائة وخمسين ميلاً وسعة ثمانين ميلا فاصلاً الدانيمارك عن النرويج (المترجم). معجم ويبستر ص ١٣٦٥ .

(١) نفس المرجع ص ١٣٠ و ١٦٣، راجع أيضاً ج١ ص ١١٠ و ١٨٤ من كتاب:

Influence of Sea Power upon the French Revoution

وكذلك:

Interest of America in Sea Power pp. ٤١ – ٤٢. و "Considerations Governing the Dispositions of Navies" in The National Review XXXIX (July ١٩٠٢) pp. ٧٠٧ – ٧٠٩.

لجبل طارق وموقف أسبانيا العدائي من قيام هذه القاعدة البريطانية في أراضيها.

وتعني كلمة «المواصلات» في نظرية ماهان «خطوط التحرك بين القوة وبين موارد تموينها»، وقد كتب ماهان: «والمواصلات أهم عامل فردي في الاستراتيـچية السياسية أو الاستراتيـچية العسكرية، وتكمُن خطورة القوة البحرية في سيطرتها على طرق المواصلات هذه، ومن ثم فإن واجب القوة هو ضمان نفعها للفرد وتعطيل انتفاع العدو بها، ويؤثر هذا إلى أعماق ما يتوافر للأمة من قوةٍ وجهد» ... «إن هذا هو الضروري بداءةً واللازم سلفًا للقوى البحرية – وبهذا أساسيًا إن لم يكن به وحده – يجب أن تعمل هذه القوى ضد العوامل المُعطلة من ناحية العدد أو ناحية الموقع»، وكلما طالت المواصلات كان عظم النفع الذي يمكن الحصول عليه من القوة البحرية.

والموقع المتوسط الذي يضمن الوقاية لخطوط المواصلات له فائدته أيضًا من اتجاهات أخرى، فإن موقع فرنسا المتوسط كان له نفعه في حربها ضد النمسا وأسبانيا، وكان لموقع بريطانيا نفعه في أي عداء بينها وبين فرنسا، فإن الأسطول البريطاني يستطيع حصار ساحل فرنسا وفي نفس الوقت يستطيع وقاية وتغطية المصالح البريطانية «من البلطيق إلى شرق البحر المتوسط»(١).

***

ويؤكد ماهان أن «حشد القوة» عامل رئيسي في الحرب البحرية وفي

(١) Problem of Asia. pp. ١٢٤; Influence of sea Power upon the French Revolution and Empire I pp. ٩٥ – ٩٦, ١٨٤ II, p. ١٠٦.

الحرب البرية، وتكمن قيمة الموقع المتوسط في حقيقة أنه «الموقع المتوسط» ييسر بل ويُشجع الفرد على حشد قواته، فإذا ما ووجه أسطول بعدوين في وقتٍ واحد فإن العمل الصحيح أن يعمل الأسطول للقضاء على أحد العدوين أولًا، وعندما ينتهي من تحطيمه يتجه نحو الآخر إذا كان هذا ممكنًا[١]، وكان هذا المبدأ هو الذي جعل الرئيس تيودور روزفلت يُلح على خلفه ألا يرضى مهما كانت الظروف بتقسيم الأسطول الأمريكي بين المحيطين الهادي والأطلنطي.

وقد اقتنع ماهان من دراساته التاريخية للمعارك السابقة في البحر وفي البر «أن النجاح أو الفشل في هذه المعارك كان يتبع مدى التمشي مع هذا المبدأ في الحرب»[٢].

وكانت سيادة الأسطول البريطاني ترجع بقدر كبير لأفضلية الاستراتيـجية البحرية الإنجليزية. فلأكثر من مائة عام اكتشف الإنجليز أن نوعًا خاصًا من العمليات البحرية أكثر نجاحًا من غيرها، ويشير ماهان بأنه في الحرب الهولندية – البريطانية هزم أسطول شارل الثاني بسبب تقسمه إلى قسمين للاصطدام بالهولنديين وبحلفائهم الفرنسيين في وقتٍ واحد، وانتهت الحرب عندما احتل الهولنديون مدخل نهر التايمس. وقد حدث هذا بعد خمس عشرة سنة فقط من نجاح سفن أسطول كرومويل في إغلاق تجارة هولندة في موانيها[٣].

ويستعيد ماهان الحوادث بين سنتي ١٦٨٩ و ١٦٩٨ عندما أرسل

(١) Naval Strategy pp. ٤٥ff.

(٢) Influence of Sea Power upon History, p. ٧٤.

(٣) نفس المرجع ص ١١٨ و ١٢٥ و ١٣١ – ١٣٣. Naval Strategy, p. ٧٤.

الفرنسيون أساطيل عظيمة لانتزاع السيطرة على البحار من الإنجليز الذين احتملوا خسائر كثيرة فيما بعد أيام حرب الوراثة الأسبانية ١٧٠٢ – ١٧١٢، ومع أن الأساطيل الفرنسية قد انسحبت عمليًا من المحيط إلا أن عدد السفن الفرنسية التي كانت تقوم بالإغارة على سفن النقل التجاري ازداد بقدرٍ كبير، ولكن مع خسارة الإنجليز للمئات من السفن التجارية فإن تجارتهم قد ازدهرت على حين اختفت السفن التجارية الفرنسية من البحار تمامًا(١). وهكذا بدا أن حرب التنافس التجاري بديل غير موفق للقتال بالأساطيل.

وتوضح العمليات البحرية الإنجليزية ضد فرنسا في حرب السبع السنوات (١٧٥٦ – ١٧٦٣) كيف استمر تطور الاستراتيـچية الإنجليزية، ويشير ماهان إلى أنه في هذا النزاع قام الأسطول البريطاني لأول مرة بحصر قريب لميناء «بريست» لمنع أي سفن للخروج إلى البحر إلا بعد أن تشق طريقها بالقتال، وقد عاون الحصار على تعطيل السلاح الهجومي الوحيد لدى فرنسا ألا وهو أسطولها للمعركة، كما عاون الحصار على إبقاء الفرنسيين أقل قدرة على استخدام سفنهم استخدامًا عمليًا له قيمته؛ وقام الأسطول الإنجليزي بمهاجمة سواحل فرنسا بمجموعات من السفن السريعة الحركة بقصد إبقاء القوات البرية الفرنسية مُقسمة موزعة.

ووضع الإنجليز أسطولًا لهم في البحر المتوسط قرب جبل طارق لمنع الأسطول الفرنسي في طولون من الخروج إلى الأطلانطيق ليتجمع مع القوات الفرنسية الأخرى هناك، ومع احتجاز السفن الفرنسية بهذه الصورة

(١) Influence of Sea Power Upon History pp. ١٣٣.

أرسل الإنجليز قوات للاستيلاء على المستعمرات الفرنسية في جزر الهند الغربية، وهكذا أمكن القضاء على التجارة الفرنسية على حين ازدهرت التجارة الإنجليزية[(١)]، ويختتم ماهان حديثه هنا بأنه في نهاية الحرب أدركت الحكومة الإنجليزية أن السيطرة على البحر هي السر في الرخاء والنجاح، وبهذه الوسيلة تحولت مملكة بريطانيا إلى الإمبراطورية البريطانية[(٢)].

على أن الفرنسيين من جانبٍ آخر لفشلهم في رؤية خطر فقدان السيطرة على البحار أبقوا أساطيلهم – طوال تلك الحرب وفيما جاء بعدها من منازعات – في المواني إلى غاية ما كان هذا مُستطاعًا، فإذا ما اضطر الأسطول مُرغمًا للخروج إلى البحر بقي الغرض الأساسي للفرنسيين إنقاذ السفن وتجنب القتال كلما أمكن هذا، وقدروا أنه من الأفضل والأهم أن يمسكوا بالسفن البريطانية لا أن يدمروها فإذا ما اضطروا للقتال برغم هذا كله اختار أمراء البحر الفرنسيون أن يلجأوا للجانب الذي يهب منه الهواء، ذلك لأن هذا يفرض على العدو الهجوم مع المخاطرة فضلًا عن أن هذا يُعاون الفرنسيين على إضعاف العدو عند اقترابه وكان الإنجليز عادةً يختارون الجانب المضاد حيث يستطيعون أن يتحكموا في توجيه سفنهم دون مؤثر خارجي، وكانت سياستهم الاقتحام لتحطيم العدو[(٣)].

والخلاف بين الآراء الفرنسية والآراء البريطانية في الاستراتيجية

---

(١) نفس المرجع ص ٢٩٦.

(٢) نفس المرجع ص ٢٩١ راجع أيضاً ص ٩ ج ١ من كتاب: Sea Power and its Relations to the War of ١٨١٢, I, p.p.qff

(٣) Influence of Sea Power upon History p. ٢٨٩.

وفي ص ٥ من نفس المرجع إيضاح تفسيري «للاتجاه الذي يهب منه الهواء» و«الاتجاه المضاد» وما إلى هذا من المصطلحات.

البحرية ليعكس على ما يرى ماهان وجهات النظريات المختلفة لإيضاح الغرض الحقيقي النهائي من الحرب البحرية، فإذا كان الغرض مجرد تأمين موقع أو أكثر على الساحل كان الأسطول تبعًا لهذا في بساطة فرعًا من الجيش له عمل خاص ويُنفذ عمله في ضوء هذا، وكان ذلك في الواقع هو وجهة النظر الفرنسية بعامة، ودون ما تقيد بحقيقة أن أحد كبار رجال التكتيك الفرنسيين بيـجو دو موروچيه Bigot de Morogue – أول مدير للأكاديمية البحرية الفرنسية – قد صرح بأنه «في البحر لا يوجد مسرح للمعركة يجب الاحتفاظ به ولا مواقع للاستيلاء عليها». دون تقيد بهذا فإن التاريخ لا يترك أي شك في أن الحرب البحرية الفرنسية كانت «حرب مواقع» وكانت «عمليات الأساطيل» عملية تابعة للهجوم على ... «والدفاع عن المواقع»(١).

ويقول ماهان: «فإذا كان الغرض الحقيقي للقوات البحرية – من جانب آخر – التغلب على أسطول العدو والسيطرة على البحر، كانت سفن العدو وأساطيله هي الأغراض الحقيقية التي يجب اقتحامها في كل الظروف»، وهذا يمثل وجهة النظر البريطانية، فلقد حاول الأسطول الإنجليزي دائمًا تحطيم قوة العدو في البحر، قطع كل مواصلاته مع بقية المناطق التي تتبع الدولة، تجميد موارده للثروة عن طريق التجارة، ثم جعل إغلاق موانيه مسألة ممكنة مُستطاعة(٢).

وقد يمكن أن تفسر لنا، النظرية الفرنسية للحرب البحرية كمجرد فرع من الحرب البحرية، مع انشغال الفرنسيين تمامًا بالحملات الحربية

---

(١) نفس المرجع ص ٢٨٨ – ٢٨٩ وص ٥٣٣ و ٥٣٨.

(٢) نفس الهامش السابق.

الكثيرة النفقات في قارة أوروبا، يمكن أن يفسر لنا هذا تفضيل الفرنسيين للسفن المطاردة أي السفن التي تقوم بالإغارة على السفن التجارية وهذا النوع من الحرب، «حرب التنافس والسبق»، لم يكن قليل التكاليف فحسب، بل كان يمكن من مهاجمة الوسيلة الأبرز لإظهار قوة بريطانيا وثرائها أي مهاجمة السفن التجارية.

وهكذا غفل الفرنسيون عن «الجذع» ليتشبثوا «بالفرع»، ولم يُدرك الفرنسيون أنه من الخطأ الكبير اعتبار مهاجمة السفن التجارية الوسيلة الصحيحة لتحطيم قوة العدو البحرية، أو على ما قال ماهان: «الانصراف إلى تجسيم المظهر الرخيص أمام ممثلي الشعب»(١).

ولا شك أن شعبية السفن المُخصصة لمهاجمة السفن التجارية في فرنسا والولايات المتحدة لأقوى دليل على إيمان الحكومتين بهذا النوع من الحرب.

ويقدم تاريخ النزاع بين فرنسا وانجلترة - على ما أعاد ماهان عرضه - الكثير من الأمثلة التي توضح استراتيجيتهما وتكتيكاتهما المختلفة، فحتى في سنوات حروب الثورة الفرنسية قام الفرنسيون بتحطيم السفن التجارية البريطانية بجرأة وعنف لا مثيل لهما في أي فترة أخرى من تاريخهم، ولكن هذا النوع من العمليات الحربية لم ينجح في إرغام الإنجليز على التفاهم معهم، بل على النقيض كانت السيطرة الإنجليزية أكثر اكتمالًا عامًا بعد آخر، وكان الدخول إلى الموانى الفرنسية أكثر خطورة مع الوقت، وارتفعت نفقات المعيشة في فرنسا، وازدادت المتاعب في القارة، وفي طوال هذه السنين ازدادت التجارة البريطانية اتساعًا وازدادت قوة البحرية البريطانية(٢).

(١) نفس المرجع ص ٥٣٩.

(٢) Influence of Sea Power upon the French Revolution II pp. ٢٢٢ – ٢٢٣, ٢٢٧, ٢٨٨, ٣٤٣.

وقد أشار ماهان إلى أن الأمريكان كسبوا استقلالهم في الوقت الذي أغفل الإنجليز فيه سياستهم العادية بحصر الأسطول الفرنسي في ميناء بريست بقصد محاولة وقاية مستعمراتهم الموزعة بتقسيم قواتهم.

وقد فشل الفرنسيون وحلفاؤهم في انتهاز الفرصة وتحقيق السيطرة على القنال الإنجليزي، ولكنهم مع هذا حققوا سيطرة موقوتة على المياه الأمريكية مما أنتج استيلاء الفرنسيين والأمريكان على كورنووليس في يورك تاون(١).

وكان لُب العقيدة الاستراتيـچية لماهان هو الحاجة للسيطرة على البحر، هذه السيطرة التي اعتقد بأنه لا يمكن تحقيقها إلا بحشد قوة قادرة على طرد أسطول العدو وسفنه التجارية من البحار، وهنا يقول ماهان: «ليس الاستيلاء على بعض السفن قل عددها أو كثُر هو الذي يُعتبر ضربة قوية ضد الطاقة المالية للأمة، إن الذي يُحقق هذا هو تملك القوة التي تستطيع إزاحة علم بلاد العدو من البحار أو تسمح ببروزه فقط فوق سفن مُستولى عليها، القوة التي تستطيع أن تسيطر على طرق الملاحة التي تسير فيها سفن العدو التجارية جيئةً وذهابًا، من وإلى سواحل بلاد العدو، وهذه القوة لا يمكن أن تتوافر إلا للأساطيل الكبيرة»(٢).

«فإذا لم يكن غرض الأسطول المطاردة، بل كان مجرد السيطرة، فإن الظاهرة البارزة التي يجب توافرها له هي قوة العمل الهجومي لا سرعة السفن، فلا فائدة من أن يتحقق السبق والوصول قبل العدو إذا لم تكن القوة الأكبر لك عندما يصل العدو».

---

(١) Influence of Sea Power upon History, Chap. XIV, esp. pp. ٥٢٩, ٥٣٤.

(٢) Influence of Sea Power upon History, p. ١٣٨.

وقد اعتقد ماهان بأن هذا المبدأ، مبدأ توافر القوة الأكبر في ميدان المعركة، أصدق تقدير أو أكبر قيمة بالنسبة للبحر عنه بالنسبة للبر، ذلك لأنه لا يمكن توازن القوى إذا افتقر أي الجانبين للمدافع على مثال ما قد يحدث أحيانًا في المعركة البرية[*]، فللسرعة نفعها ولكن يجب ألا يكون هذا على حساب قوة المدافع، وهكذا كانت السفن الثقيلة (البوارج فيما بعد) هي العمود الفقري لقوة الأسطول[١].

فإذا ما كانت أمة ما سيئة الجد ولم يتوافر لها غير أسطول أقل قوة من أسطول العدو، فإن أفضل ما يجب أن تفعله هذه الأمة، أن تحتفظ بهذا الأسطول في ميناء قوي، وبذلك تفرض على العدو واجب القيام بحراسة مستمرة لمنع فكاك هذا الأسطول، وكان هذا هو الذي فعله الأسطول الألماني في الحرب العالمية الأولى، وفعله الأسطول الإيطالي في الحرب العالمية الثانية، ويُعتبر هذا الأسطول الذي يُرغم العدو على أن يُجدد عمليات أسطوله حتى يمكن القضاء على السفن المُحتجزة في الميناء الحصين «أسطولًا مُحتفظًا به» وقد ناقش ماهان هذه الفكرة، فكرة «الأسطول المُحتفظ به» بإفاضة في كتابه: دروس من الحرب الأسبانية (١٨٩٩) وانتهى ماهان من مناقشته للنظرية إلى أن الأسطول الأقوى سيُحقق في النهاية تحطيمه لهذا الأسطول حبيس الميناء[٢].

(*) في المعركة البرية قد يمكن أن تعوض قوة المناورة وخفة الحركة وحُسن استخدام الأسلحة عن النقص في سلاحٍ ما، ولكن لا يمكن أن يُعوض شيء في المعركة البحرية عن قوة مدافع السفن. (المترجم)

(١) Lessons of the War with Spain (١٨٩٩) p. ٨١.

(٢) نفس المرجع ص ٧٥.

ولكن ماذا كان الدور الصحيح لأسطول الولايات المتحدة في ضوء هذه العقيدة، عقيدة سيطرة البوارج على البحر؟

يقول ماهان: إن وجهة النظر الأمريكية السائدة كانت أن الأسطول أعد للدفاع فقط. ولكن هذه الفكرة أُسيء فهمها بسبب التضارب بين «الدفاع» تبعًا للنظرية «السياسية»، و«الدفاع» تبعًا للنظرية «العسكرية» ويوضح ماهان هذا بقوله: «إن إعداد الأسطول للدفاع فقط في ضوء النظرية السياسية معناه أن الأسطول لن يستخدم إلا عند اضطرار الأمة لخوض غمار الحرب، أما إعداد الأسطول للدفاع فقط في ضوء النظرية العسكرية فمعناه أن الأسطول ينتظر حتى يُهاجمه أسطول العدو ثم يعمل للدفاع عن سفنه وعن سواحل بلاده، ومعنى هذا أنه يترك العدو طليقًا حرًا يختار الوقت الذي يبدأ فيه معركته ويختار الأسلوب الذي يُقاتل به»[١].

والطابع الذي يفصل به ماهان بين الهجوم الاستراتيجي وبين الهجوم السياسي لعامل أساسي في أي برنامج معني به للاستعدادات العسكرية، ولكن الأمريكان في سنة ١٨٩٠ كانوا ما زالوا يُفسرون استخدام الأسطول للدفاع في أضيق نطاق عسكري، أي في منع العدو من قذف المواني على طول الساحل بالقنابل ومنعه من حصرها أو احتلالها، وهنا يندفع ماهان في حماسة ليذكر أن الأسطول «ليس الآلة الصحيحة للدفاع الساحلي في أضيق صوره هذه، أي في تحديد عمله بالدفاع عن المواني»، فإن «الدفاع السلبي» عن السواحل واجب الجيش، وإذا ما قام الأسطول بمثل هذا الواجب الدفاعي كان معناه أنه سيستخدم جنوده المدربين كحاميات للمواني على

(١) "Current Fallacies upon Naval Subjects" in Harper's New Monthly Magazine, XCVII (June, ١٨٩٨) pp. ٤٤-٤٥.

حين أنه يمكن استخدامهم في واجبات أفضل وأصلح، فإذا ما أوكل للأسطول الدفاع عن المواني وهي عادةً كثيرة العدد كان معنى هذا تقسيم قوات الأسطول وبذلك تفقد القوة الفعلية التي لها، إن القوة التي تدافع عن السواحل يجب أن تعتمد على التحصينات؛ وليس هذا واجب الأسطول بل إن للأسطول مصلحته في وجود هذه التحصينات لأن القواعد ضرورية للقوة البحرية(١).

ويتابع ماهان حديثه فيقول: «فإذا كان لنا بدلًا من أسطول «لأغراض الدفاع فقط» أسطول كبير كان العدو مضطرًا ليرسل عددًا أكبر من السفن عبر الأطلانطيق، وهنا تنشأ الفكرة: هل يستطيع العدو أن يبعث حقًا بهذا العدد من السفن في ضوء الأحوال الحرجة جدًّا في السياسة الأوروبية»، «فإذا كان لدى الولايات المتحدة عشرون بارجة فلا دولة أوروبية – عدا بريطانيا – «تستطيع أن تُرسل خمسًا وعشرين بارجة، وهذا أقل عدد تحتاج إليه إذا ما وضعنا موضع التقدير بُعد مسافة العمليات عن الوطن». ولكن بريطانيا في الواقع لا تستطيع أن تقف موقف العداء من دولة لها عشرون بارجة، إن مثل هذا الأسطول الذي به عشرون بارجة يمكن أن يكون أسطولًا للدفاع فقط على أساس أن وجوده يحمي البلاد من الغزو بسبب سيطرته على البحار»(٢).

على أنه حين كان ماهان ما زال يكتب كانت العقول القلقة قد بدأت تفكر وتبحث عما يمكن أن يكون تأثير التطورات الفنية الحديثة على نظرية

---

(١) Naval Strategy pp. ١٤٥ff., quoted in Allan Westcott, Mahan on Naval Warfare (١٩٤١) pp. ٧١; Influence of sea Power upon History p. ٨٧ note.

(٢) "Current Fallacies" p. ٤٥; and Allan Westcott, op. cit., p. ٧٢.

ماهان عن السيطرة على البحر، وفي سنة ١٨٩٥ سأل (معهد الخدمة المتحدة الملكية) Royal United Service Instutition ماهان عن رأيه فيما إذا كان الحصار البحري القريب الذي كانت الاستراتيـجية البحرية تستند إليه في الماضي يمكن أن يتم أيضًا في ضوء وجود البخار والصلب والطوربيد، فكانت إجابة ماهان مُجملة في كلمة واحدة هي: «نعم»، وكما كانت الرياح تُحدد تحركات السفن ذات الشراع في الماضي فإن الأساطيل الحديثة تعطل من تحركاتها نفس العوامل التي تدين لها الأساطيل بالكثير من قوتها، وقد تكون لمقذوفات الطوربيد خطرها على السفن التي تقوم بالحصار ولكنها يمكن أن تستعمل أيضًا ضد السفن التي تحاول الفرار، وهكذا فإن هذه الأحوال الجديدة «قد أوسعت من المسألة ولم تغير من طبيعتها»(١).

وبعد ست عشرة سنة أثيرت المسألة من جديد بالنسبة لظهور الغواصة ولتحسن وسائل إطلاق الطوربيد وتبعًا لإيجاد التلغراف اللاسلكي، وكانت إجابة ماهان نفس الإجابة الأولى، ولقد قال بأن الغواصة والطوربيد الجديد يمكن «أن يضعا جهدًا جديدًا على القوات التي تقوم بالحصار ويرغماها على أن تظل على مسافة أكثر بكثير»، ولكن مبادئ الاستراتيـجية تبقى ثابتة دون أن تتغير(٢).

والواقع أنه عندما تعرضت كفاية الحصار البحري للاختبار في الحرب العالمية الأولى فإن السيطرة الإنجليزية على محطات الإمداد بالفحم وأماكن الرسو وغير هذا من التسهيلات البحرية قد عاونت الإنجليز لإيجاد

---

(١) "Blockade in Relation to Naval Strategy" in U.S. Naval Inst. Proc., XXI (November, ١٨٩٥), pp. ٨٥١ – ٨٦٦, esp. P. ٨٥٧.

(٢) Naval Strategy, pp. ٢ff.

تنظيم جديد يمكن من القيام بهذا الحصار، وقد منحت سفن البلاد المحايدة – والتي استطاع أصحابها أن يثبتوا للمندوبين التجاريين البريطانيين أن حمولة سفنهم لا تتعارض وقوانين مصادرة المواد التي تستخدم في صناعات الحرب – منحت السفن تراخيص مرور حمت السفن من المصادرة ومن الاستيلاء عليها، ومكنتها من استخدام أماكن الرسو وأماكن الإمداد بالفحم التي بدونها لا تستطيع هذه السفن قطع هذه الرحلات البحرية الطويلة.

وقد استخدم هذا الأسلوب نفسه في الحرب العالمية الثانية، وعلى أية حال فقد استمرت عمليات الحصر البحري من مسافات طويلة فلم يعد في الإمكان القيام بحصار قريب ولا أن يكون الحصار ساحليًا بحالٍ ما.

وقد نشأ التحدي لنظرية (السفن الكبيرة) البوارج من تعرض هذه السفن لهجوم الغواصات والطائرات، وقد أثارت تجربة قذف بعض السفن الألمانية – التي سلمت للحلفاء بعد الحرب العالمية الأولى – بالقنابل من الجو، أثارت هذه التجربة نقاشًا جدليًا ما زال قائمًا يدور حول الطائرات ضد البوارج، وقد يكون من الممكن هنا الخروج برأيين اثنين لهما طابع التيقن والتأكيد، أولهما أن البحار الضيقة التي تكون داخل مرامي طائرات العدو التي تعمل من قواعد برية قد أمست منطقة لا تأمن البوارج الملاحة فيها إلا لوقت قصير على أن تصحب البوارج بوقاية جوية قوية وثانيهما أنه في البحر المكشوف يجب أن تتوافر للبوارج وقاية ضد الغواصات، ووقاية ضد الطائرات، وأن تكون الوقاية ضد كلا السلاحين كبيرة، ولم تخرج إلى الوجود القوة البحرية أو العسكرية التي تستطيع أن تحل مكان أسطول المعركة ببوارجه وطراداته بالرغم من أن الحرب في الباسفيك طوال الحرب

العالمية الثانية قد جاءت بتطور في الاستراتيـجية البحرية باستعمال حاملات الطائرات كقوة ضاربة ذات غرض محدد سريع الحركة وذلك في العمليات التي تجري لمسافات طويلة(١).

- ٦ -

ولم يترك غير عدد قليل من الناس دورهم واضحًا بعمق في مجريات الحوادث العالمية على مثال ما ترك ماهان، ولم يعش كذلك غير عدد أقل من الناس ليروا ثمار عملهم واضحة جلية. وعندما مات ماهان في ديسمبر سنة ١٩١٤ كان تأثير كتاباته ملموسًا محسوسًا في كل رياسة للبحرية في العالم كله، وكانت وجهات نظره لها بدورها تأثيرها في الرأي العام في أمريكا وأوروبا، بل وحتى في الشرق الأقصى.

على أن تأثير ماهان في السياسة البحرية الأمريكية قد بدا واضحًا حتى قبل ظهور كتابه «تأثير القوة البحرية على التاريخ» سنة ١٨٩٠، وقد ألقى محاضراته في كلية الحرب سنة ١٨٨٦، وفي السنوات التي سبقت سنة ١٨٩٠ كان الكثيرون من الضباط البحريين ومن الرجال العاملين في ميدان السياسة بينهم تيودور روزفلت على دراية بكتاباته(٢) ولعل وزير البحرية ب. ف. تراسي قد سمع أو قرأ بعض محاضراته لأن تقريره السنوي الذي صدر سنة ١٨٨٩ فيه الكثير من آراء ماهان.

ومع أن الدفاع لا الغزو كان هو الغرض في السياسة الأمريكية فإن

(١) للدفاع عن البوارج ضد القوة الجوية، راجع كتاب:

Bernard Brodie, A Layman's Guide to Naval Strategy (Princeton, ١٩٤٢), Chap. VIII.

(٢) Puleston, Mahan, Chap, XIII.

تراسي قد بقي مُحتفظًا بفكرة احتياج الولايات المتحدة لقوة مقاتلة ولم تكن الطرادات غير المدرعة تصلح لإيجاد هذه القوة، كانت الولايات المتحدة تحتاج إلى عشرين بارجة مُدرعة تستطيع بها إجراء الحصار و ضرب أسطول العدو عند اقترابه، إن ما تحتاج له أمريكا هو أسطول تتوافر له كفاية طرد قوات العدو عن سواحلها بتهديد سواحل العدو نفسه، أسطول يصلح لخوض غمار حرب يمكن برغم كونها دفاعية من ناحية المبدأ أن تكون حربًا هجومية بطبيعة عملياتها[١].

وجاءت في أعقاب تقرير تراسي وثيقة ثورية بدرجة أكبر هي تقرير ما يُقال عنه مجلس رسم السياسة البحرية، والمجلس عبارة عن ستة ضباط بحريين اختارهم تراسي لدراسة الاحتياجات البحرية للولايات المتحدة، وقد رسم هذا المجلس مجمل برنامج يقوم على أساس الاحتياجات القومية في ضوء تفسير ماهان للتاريخ.

ومع أن المجلس قد اعترف بأنه ليس للولايات المتحدة مستعمرات، وأن تجارتها لما وراء البحار تحملها سفن محايدة، وأن صناعات أمريكا لا تلقى منافسة من صناعات الأمم الأخرى إلا في عدد قليل من الأسواق، برغم هذا فإن المجلس قد نصح ببناء مائتي بارجة حديثة الطراز من كل الأنواع، وأوضح أعضاء المجلس عن إيمانهم بأن الولايات المتحدة ستدخل بعد قليل فترة تنافس واتساع تجاريين بها في هذا تطور وسائل نقل منتجات أمريكا، وأن شق قناة في أمريكا الوسطى سيكون مصدر خطر، وقد أوصى المجلس أيضًا، وبخاصة، أن تبني بعض بوارج قصيرة مدى الرحلة للقيام

(١) Sprout, Rise of American Naval Power, pp. ٢٠٧ - ٢٠٩.

بواجب الدفاع الساحلي، مع بناء أسطول من البوارج البعيدة المدى للقيام بالعمليات الهجومية[١].

وقد أثار التقرير عاصفة من الاحتجاج داخل مجلس الكونجرس وخارجه، ولكن الشيء الذي يستحق الذكر على التحقيق أن لجنة الشئون البحرية في المجلس قد تقدمت في الميزانية البحرية للعام التالي ما يشير إلى: بناء ثلاث بوارج للدفاع الساحلي تصلح للخروج إلى البحر الفسيح على أن تكون ثقيلة التدريع قوية المدافع.

ومع إصدار القانون البحري لسنة ١٨٩٠ كان من الواضح أن مجلس الكونجرس يتحرك في اتجاه سياسة بحرية تتمشى مع تحليلات ماهان التاريخية للقوة البحرية[٢]، وعلى حين كان الكونجرس يُناقش احتياجات البلاد البحرية كانت إدارة البحرية تكافح لتطبيق الاستراتيـچية الجديدة للدفاع البحري، وكانت نتيجة هذا أن مجموعة السفن لشمال الأطلنطي راحت تتطور لتكون القوة المقاتلة التي يمكن من الناحية الواقعية أن يُقال لها الأسطول المقاتل[٣].

وبقى مجلس الكونجرس يعني ببناء البوارج إلى جانب سفن القتال الأخرى، وفي نوفمبر سنة ١٨٩٣ وافق وزير البحرية هيربرت في غمرة اقتناعه بما جاء في الكتاب الثاني لماهان: تأثير القوة البحرية في الثورة الفرنسية وفي الإمبراطورية الفرنسية، ١٧٩٣ – ١٨١٢، وافق على نظرية استخدام السفن الكبيرة في الدفاع الساحلي، واستخدم في قراره ألفاظًا

(١) نفس المرجع ص ٢٠٩ – ٢١١.
(٢) نفس المرجع ص ٢١١ – ٢١٣.
(٣) نفس المرجع ص ٢١٧.

أقوى من تلك التي استخدمها سلفه.

والواقع أن هيربرت قد سار شأوًا بعيدًا في هذا الشأن باعتباره الأسطول آلة للقوة يمكن بها حماية مصلحة الوطن في الخارج وتقوية الدبلوماسية بعامة حتى في وقت السلم، وكانت العوامل الأخرى تندفع في نفس الاتجاه وقد فسرت المعارك البحرية للحرب الصينية – اليابانية (١٨٩٤ – ١٨٩٥) تفسيرًا واسع النطاق لإثبات قيمة البوارج كقوة مقاتلة، وقد سبب النزاع على الحدود بين ڤنزويلا وبريطانيا الاهتمام بالاستعدادات البحرية، وكانت بداية الأزمة التي أدت إلى الحرب ضد أسبانيا مادة جيدة للدعاية.

على أن الأهم كان الازدياد التدريجي لبروز ماهان نفسه وسط الأضواء، ففي المناقشات حول الشئون البحرية سنة ١٨٩٠ لم يذكر اسم القبطان ماهان حتى ولا مجرد ذكر اسمه كرجل من رجال البحرية، ولم تكن هناك أية علائم تدل على أن أيًا من الشيوخ أو النواب قد سمع بمحاضراته أو كتابه، ولكن في سنة ١٨٩٥ كان اسم ماهان وآراؤه معروفة مروية يتحدث عنها كل المعنيين بالشئون البحرية وتزخر بها دراسات مجلس الكونجرس، وفي المناقشات التي دارت في المجلس لسنتي ١٨٩٥ و ١٨٩٦ وضح لأول مرة أن عددًا كبيرًا من الشيوخ والنواب يفهمون فهمًا جيدًا النظريات الاستراتيـچية التي سيطرت على التشريع الأمريكي البحري منذ سنة ١٨٩٠، وكان هذا التقدير العام لنظرية ماهان هو الذي جمع بين الهيئة التشريعية والسلطة السياسية التنفيذية في العمل لتحقيق السيطرة على البحر في منطقة فسيحة حول سواحل القارة الأمريكية، وفي سنة ١٨٩٧ وضح بأنه ليس بعيدًا هذا اليوم الذي سيستطيع فيه الأسطول الأمريكي برغم أنه

أقل – من الناحية العددية – من أساطيل عدد من الدول الأوروبية البحرية أن يسيطر على كل خطوط الاقتراب البحرية إلى الولايات المتحدة[١].

وكانت الحرب ضد أسبانيا هي – من الناحية التاريخية – حجر الزاوية في تطور الفكر البحري الأمريكي، كما كانت الحرب نفسها أيضًا دُعامة نهضة القوة البحرية الأمريكية، وقد فسر النزاع كدليل إثبات صلاحية المبادئ الاستراتيـچية التي قدمها ماهان في الكثير من كتبه ومقالاته المرة بعد الأخرى، دون أن يمل هذا الحديث، على أن هنا مسألة لها أهميتها، فإن هزيمة القوة البحرية الأسبانية في خليج مانيلا، وهي قوة ضعيفة أصلًا، كانت هذه الهزيمة في الواقع ذات أهمية لنتائجها السياسية أكثر من أن تكون كنموذج للاستراتيـچية البحرية، ولكن كان الموقف بالنسبة للبحر الكاريبي غيره بالنسبة للموقف في الفلبين، ففي البحر الكاريبي كان من الواضح الجلي أن الموقف الاستراتيجي يتوقف على السيطرة البحرية، ولتحرير كوبا من الحكم الأسباني الهدف السياسي من الحرب، كان من الضروري إبعاد القوات الأسبانية البرية والبحرية من كوبا ومن المياه الكوبية، ووضع موضع التقدير أن الحصار البحري للجزيرة سيجعل حاميتها تتضور جوعًا وأن الغزو العسكري قد يعجل من سقوطها، ومع هذا فإن السلطات العسكرية الأمريكية كانت راغبة في المغامرة بالغزو فقط عندما تتوافر لها السيطرة على مياه كوبا والمناطق المجاورة، ولن يكون هذا مستطاعًا إلا بعد تدمير وتحطيم القوات البحرية الأسبانية التي ستبذل غاية ما تستطيع للاحتفاظ بمواصلات أسبانيا مع

(١) نفس المرجع ص ٢١٧ – ٢٢٢.

كوبا[١].

وبدت ظاهرة غريبة هي في الواقع من أهم النتائج التي برزت عن هذه الحرب، ظاهرة جهل الناس بعامة بمبادىء الاستراتيـچية البحرية على ما بشر بها ماهان، كان الناس بعامة وكانت الصحف اليومية بخاصة في فزع للشائعات التي انتشرت عن احتمال الإغارة على السواحل الأمريكية (سواحل الولايات المتحدة)، وراحت الصحف كصدى لأحاديث الناس تطالب بوقاية، وقاية في صورة بوارج تقف للدفاع عن كل مدينة على ساحل الولايات المتحدة، وكان مثل هذا التقسيم لقوات الولايات المتحدة البحرية – التقسيم الذي بعث ماهان ببرقية من أوروبا يعلن فيها عدم موافقته على هذا الإجراء – كان من الضروري أن يسبب – لو حدث – نتائج لها خطرها[٢].

وقد عارضت وزارة البحرية ما يطلبه الناس من وقاية للمدن التي على ساحل الاطلنطيق، ووجهت الأسطول الأمريكي كله إلى البحر الكاريبي حيث حاصر المياه الكوبية أولًا ثم دمر ما كان في هذه المياه من سفن الأسطول الأسباني وقررت السفن التي تعمل على مسافة من ساحل الولايات المتحدة نتائج كل مرحلة من مراحل هذه الحرب، ولكن الناحية المهمة أنها وجهت ضربة قاتلة قضت على نظرية الدفاع الساحلي كجزء من الاستراتيـچية البحرية.

وإذا كانت الحرب ضد أسبانيا قد أكدت نظرية ماهان عن الاستراتيـچية البحرية فإنها كانت بداية مرحلة اتساع الولايات المتحدة على

(١) نفس المرجع ص ٢٢٣ – ٢٣٢.

(٢) نفس المرجع ص ٢٣٤ – ٢٣٧ و ص ١٨٧ من كتاب: Puleston, Mahan.

ما أشار ماهان، ولو أن السيادة في البحر الكاريبي كانت قد تقررت كغرض يجب أن تعمل الولايات المتحدة لتحقيقه، وقد تقرر هذا قبل الحرب ضد أسبانيا بوقت طويل، صحيح أن ضم بورتريكو واحتلال كوبا لم يغير مشكلة الدفاع الإقليمي إلا بقدر قليل، ولكن الحرب وما تبعها قد أوضح الحاجة إلى شق قناة في أمريكا الوسطى وأكد الحاجة للسيطرة على كل خطوط الاقتراب إلى هذه القناة[١].

***

وقـــد غير استيلاء الولايات المتحدة على بعض الجزر في الباسيفيك من الموقف الاستراتيجي بالنسبة لها (للولايات المتحدة)، كان ماهان قد أشار منذ بعيد إلى أن احتلال جزر هوايي ضرورة عسكرية لتأمين الساحل الباسيفيكي، وأضاف الاستيلاء على الفلبين جديدًا إلى ضرورة ضـــم الولايات المتحدة لجزر هوايي، وكان هو العامل الحاسم في إتمام هذا الضم في صيف سنة ١٨٩٨، ثم كان الحصول على جزء من أرخبيل ساموا samoa في سنة ١٨٩٩ تكملة لسلسة من الممتلكات الجديدة، وللأحسن أو الأسوأ فإن الولايات المتحدة بدأت برنامجًا للاتساع فيما وراء البحار، كان – على ما قال ماهان – حلقة من الحلقات الثلاثة الضرورية لقيام القوة البحرية[٢].

وقد دعمت هذه المواقع الأمامية الجديدة القوة البحرية التي آمن ماهان بضرورتها لتقوية الدبلوماسية الأمريكية في الشرق الأقصى، ولكن كان من

---

(١) Sprout, Rise of America Naval Power, pp. ٢٣٧ – ٢٤١ قطعت السفينة أوريجون المسافة من سان فرنسسكو إلى كي ويست عن طريق مضيق ماجلان في ستة وثمانين يوماً، وتصل المسافة تقريباً إلى ثلاثة عشر ألف ميل بحري.

(٢) نفس المرجع ص ٢٤١ – ٢٤٥.

الضروري – من جهة أخرى – الدفاع عن هذه المواقع الأمامية وتأمينها، ومع أن المشكلات الاستراتيـچية التي أوجدتها ضرورة هذا الدفاع كانت مشكلات صعبة إلا أنها لم تكن مشكلات مستعصية الحل، فقط كانت هناك عدة قوى سياسية وعاطفية تسير طريق التنفيذ الكامل للخطط العسكرية التي أعدها للأسطول، ولكن مع أن الولايات المتحدة كانت قد وقفت في الواقع على الطريق لتكون دولة بحرية قوية على ما قال ماهان، إلا أن الشعب في جملته لم يكن على استعداد ليدفع الثمن الضروري لتنفيذ بقية البرنامج بل وحتى احتمال النفقات اللازمة لتأمين ما أمكن تحقيقه منه، وعاشت الولايات المتحدة في شعور مريح بالأمن والسلامة حتى كان صباح الأحد السابع من ديسمبر سنة ١٩٤١ وسقط مطر من القنابل على بيرل هاربر فأرغم شعب الولايات المتحدة على أن يخوض حربًا في الباسيفيك.

ومع أن الولايات المتحدة لم تضع قط موضع التنفيذ العملي الكامل فلسفة ماهان للقوة البحرية، إلا أن الشعب الأمريكي في جملته قد تقبل عقيدة ماهان عن الاستراتيـچية البحرية كما رضي عن إيمانه بالحاجة إلى قيام قوة بحرية لها وزنها وخطرها، وقد تطورت صلات ماهان بتيودور روزفلت إلى صداقة دائمة، واقتنع روزفلت اقتناعًا تامًا بآراء ماهان، ووجد روزفلت في خضم عمله كمساعد لوزير البحرية – قبيل قيام الحرب ضد أسبانيا – الكثير الذي يجب أن يعمله، ثم أدى اغتيال ماك كينلي في سبتمبر سنة ١٩٠١ ليتولى تيودور روزفلت رياسة جمهورية الولايات المتحدة. وهكذا تغير كل اتجاه التطور البحري الأمريكي، ذلك لأن فلسفة ماهان عن القوة



الوضع الاستراتيجي للولايات المتحدة في بحر الصين الجنوبي وجنوب شرقي آسيا بعد احتلالها للفلبين

البحرية دخلت البيت الأبيض في شخص تيودور روزفلت[١].

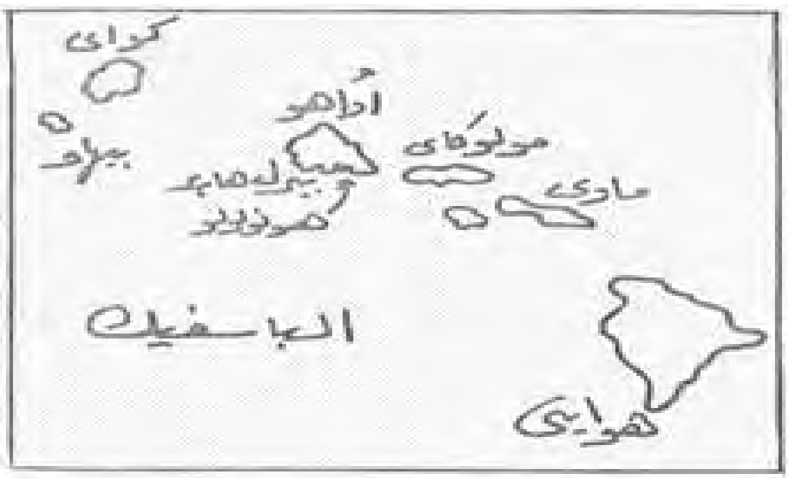
وفي السنوات التي تلت هذا، سيطر روزفلت سيطرة تامة على السياستين البحرية والخارجية للأمة[٢]، ولقد تولى تيودور روزفلت الرياسة مرتبطًا بشق قناة في أمريكا الوسطى، وكان بدء العمل في هذا المشروع نجاحًا كبيرا لحكومة روزفلت؛ وفي غمرة تأثر روزفلت بالتحذير الذي خرج به ماهان من أن شق هذه القناة سيحقق عملًا استراتيجيًا طيبًا إذا ما توافرت للولايات المتحدة سيطرة كاملة على خطوط الاقتراب إليها (إلى هذه القناة)، في غمرة هذا بدأ روزفلت حملة قوية لزيادة قوة الأسطول الأمريكي، وبالرغم من حقيقة أن الأسطول البريطاني والأسطول الألماني الذي كان يمر بمرحلة تقوية وتطور كانا جدا مشغولين بالتنافس والتضاد

في المياه الأوروبية، برغم هذا كان روزفلت يثق بأن الألمان سيثيرون المتاعب يومًا ما في مكان ما من نصف الكرة الغربي، ولن يمكن مقاومة هذا الاعتداء كما لن يمكن ضمان أمن وسلامة قناة بنما إلا إذا كان للولايات المتحدة ثاني أسطول في العالم ولا يسبقه في القوة إلا الأسطول البريطاني وحده، وعاد روزفلت مرة أخرى بعد ذلك فاصطنع أزمة مع اليابان لكي يؤكد الحاجة إلى توافر أسطول أمريكي أقوى في الباسيفيك.

وتابع روزفلت عامًا بعد آخر هذه القوة الدافعة لإعداد أسطول أقوى، وفي سنة ١٩٠٥ كان قد حقق نتائج لها وزنها وخطرها، فلقد وافق

(١) نفس المرجع ص ٢٤٩ – ٢٥٠ Puleston, Mahan, Chap. XXVII; ibed, index: Theodore Roosevelt.

(٢) راجع لسبروت أثرتيودور روزفلت على السياسة البحرية الأمريكية كتاب: Sprout, op. Cit, Chap. XV.



=«بيرل هاربر» =

من القواعد الأمريكية في الباسيفيك

كان ماهان يعتبر احتلال هوايي ضرورة عسكرية لتأمين ساحل الولايات المتحدة على الباسفيك، وكان نقاشه هو العامل الحاسم لإثارة هذا في صيف سنة ١٨٩٨

الكونجرس على بناء عشر بوارج من الدرجة الأولى مع أربع مطاردات مدرعة وسبع عشرة سفينة من سائر الأنواع الأخرى، وفي السنة الأخيرة من رياسته استطاع روزفلت أن يحصل على موافقة الكونجرس لبناء أربع سفن كبيرة أخرى مع عشرين مدمرة.

والواقع أن الإيمان الكامل بعقيدة ماهان الاستراتيـچية والعمل على تنفيذها كانا يتطلبان عددا أكبر من السفن، وكانت هذه السفن تتطلب الضباط والبحارة الذين يتولون قيادها؛ تتطلب إعدادهم وتدريبهم كأطقم ذات كفاية كبيرة وكان هذا واجبًا عظيمًا برغم أنه كان أقل بروزًا من ناحية المظهر من بناء السفن نفسها، فالناس عادةً تستهويهم السفينة التي تشق عباب الأمواج ولا يثيرهم إعداد بحارتها، ومن الممكن القول بأن الجهد الذي بذله روزفلت للوصول بأسطول الاطلنطيق إلى مرتبة عالمية برغم معارضة الكونجرس في بعض الأوقات يعتبر تاريخ بدء خروج الولايات المتحدة إلى المسرح العالمي كواحدة من الدول البحرية العظيمة في العالم.

على أنه في السنوات الخمس التي تلت خروج روزفلت من البيت الأبيض سار نمو الأسطول سيرا بطيئًا، ولكن جاءت أولى سنوات الحرب العالمية الأولى بفورة نهوض وثبت بالبرنامج البحري الأمريكي وثبة واسعة إلى ما وراء المعدل الذي رُئى من قبل، معدل جعل الأسطول الأمريكي ثاني أسطول في العالم بعد الأسطول البريطاني، والذي كان هدف السياسة الموجهة منذ عام ١٩٠١.

ولو كان ماهان قد عاش سنة أخرى – حتى ديسمبر سنة ١٩١٥ – لكان قد سمع الرئيس ويلسون وهو يُطالب الكونجرس بجعل أسطول

الولايات المتحدة مساويًا لأقوى أسطول في العالم، وقد جعل القانون البحري لسنة ١٩١٦ أسطول الولايات المتحدة أقوى أسطول في العالم[١].

- ٧ -

ولم يتباطأ مواطنو ماهان في أن يعترفوا له بحقه من الشكر؛ ولكن الرجل – على ما أشار كل أولئك الذين أرخوا لحياته – قد حصل على أعظم تقدير شعبي في بريطانيا وقد نشر كتابه تأثير القوة البحرية في التاريخ في انجلترا في اللحظة المناسبة سيكولوچيا ليكسب أعظم تقدير وليجتذب كل الأنظار إلى المؤلف[٢].

وفي الحقبة الثامنة من القرن التاسع عشر ولد لون جديد من الإمبريالية نتيجة للتنافس العميق بين الأمم الأوروبية للحصول على الأسواق والمواد الخام، وقد اصطدمت المصالح البريطانية في التجارة إلى ما وراء البحار والسفن والقروض وتملك الأرض ومناطق النفوذ، اصطدمت بالمصالح المماثلة للأمم الأخرى، وأوجد هذا الاصطدام اتجاهًا عامًا نحو العودة للتسلح البحري.

ومع أن الإنجليز كانوا يعتبرون أسطولهم ضرورة وحاجة مُلحة وكانت الأمم الأخرى التي لا تعيش على البحار تعتبر أساطيلها مجرد مظهر للثراء والمتعة إلا أن نمو هذه الأساطيل كلها كان في الواقع دليلًا على إمكان الاعتداء على الإنجليز أنفسهم[٣]، ومن الممكن أن يتفهم الفرد دوافع هذه

(١) نفس المرجع الفصول ١٦ – ١٨.

(٢) Puleston, Mahan, p. ١١٠.

(٣) A.j. Marder, The Anatomy of British Sea Power (١٩٤٠), Chap. II, esp. pp. ١٠ – ١١, ١٣ also Puleston, Mahan, Chap. XVI. Marder p. ٢٥.

الغيرة إذا استطاع الفرد أن يُدرك اعتماد بريطانيا لبقائها كأمة حرة اعتمادًا تامًا على القوة البحرية.

وفي سنة ١٨٨٩ قدمت الحكومة للبرلمان برنامجًا للاتساع يقوم على أساس مبدأ مساواة الأسطول البريطاني لأي أسطولين آخرين من أساطيل الدرجة الأولى الأوروبية، وقد صدر كتاب ماهان في اللحظة الصحيحة لإيضاح صحة وعدالة هذا البرنامج، كما أن الكتاب قدم السلاح المطلوب للانتصار على مطالب ضباط الجيش وغيرهم ممن يريدون إقامة استحكامات كثيرة النفقات على طول ساحل بريطانيا(١).

وكان الشعب البريطاني في السنوات السابقة قد بدأ يهتم بالأسطول، ولكن كان كتابا ماهان اللذان صدرا سنة ١٨٩٠ وسنة ١٨٩٢ أهم عامل فردي لجعل الأمة كلها تفكر في الأسطول ويتوافر لها وعي بحري، وليس من الصعب تفهم صدى آراء ماهان في الشعب البريطاني؛ وقد لاحظ ماهان بأنه وراء الحوادث في التاريخ البحري والتاريخ السياسي لبريطانيا المبادئ الأساسية التي جعلت بريطانيا سيدة البحار، وقد عرض ماهان هذه المبادئ في أسلوب مُبسط يستطيع حتى الرجل العادي أن يتفهمه.

والواقع أنه ليس من المدهش أن يمتدح الإنجليز كتابات ماهان فور صدورها، فقد كان للإنجليز ماضٍ له تقاليده كقوة بحرية، وكانوا يخوضون سباقًا بحريًا قائمًا مستمرًا، كما كانوا يعيشون في عصر إمبريالية جديدة تتشكل وتتخذ طابعًا أصيلًا(٢).

---

(١) Puleston, Mahan, و R. H. Heindel, The American Impact on Great Britain (١٩٤٠), p. ١١٧. pp. ١٠٦ – ١٠٧.

(٢) Marder, op. cit. pp. ٢٥, ٤٥ – ٤٨; Heindel, op. cit., pp. ١١٧ – ١١٨.

وقد زار ماهان بريطانيا عدة مرات في رحلات بحرية إلى المياه الأوروبية في سنوات ١٨٩٣ – ١٨٩٥، وقد قوبل في بريطانيا مقابلة لا مثيل سابق لها، فلقد تناول طعام العشاء مع الملكة ومع رئيس الوزراء ومُنح لقبًا علميًا شرفيًا من جامعتي أوكسفورد وكمبردج ثم استقبل كضيف الشرف في النادي البحري الملكي، وكان هذا شرفًا لم يُمنح لأجنبي قبله، وقالت جريدة التيمس اللندنية في امتداحها له أنه قد فعل للتاريخ البحري ما فعله كوبرنيسوس(*) لعلم الفلك، وقارن ناقد بحري بينه وبين بريستلي(**) Priestley فقال:

«**إن القوة البحرية قد أثرت في العالم – ولا شك – في كل العصور، وهكذا كان الأكسجين فهو في العالم منذ فجر الخليقة، ولكن لولا بريستلي لظل الأكسجين حتى اليوم عاملًا غير مُحدد لم يُكشف عنه، وهكذا كان من الممكن أن تظل القوة البحرية عاملًا غير مفهوم لولا ماهان**».

وقد نشرت آراء ماهان على نطاق واسع في الصحف اليومية والأسبوعية والدوريات الربع السنوية والدوريات المهنية، وبواسطة هيئات لها نفوذها ومكانتها مثل معهد الخدمة المتحدة الملكي، وكان الإنجليز يقولون في غُنة مليئة بالحزن والأسى أنه من المؤلم (أن يكون أمريكي هو الذي يُيقظ هذا الجبل من الإنجليز ليفهموا وليدركوا أهمية القوة البحرية)، ولكن مع

(*) كوبرنيسوس Copernicus نيقولاس كوبرينسون فلكي بولندي (١٤٧٢ – ١٥٤٣)، وقد أطلق على النظام الفلكي الذي أوجده الإصلاح (كوبريكان) وتختصر (كوب) معجم ويبستر لسنة ١٩٥٦ ص ٣٢٥ – المترجم.

(**) بريستلي: جوزيف بريستلي (١٧٣٣ – ١٨٠٤) كيموي إنجليزي اكتشف عنصر الاكسجين. مُعجم ويبستر ص ١١٥٧ (المترجم).

هذا كان الأسطول الإنجليزي والحكومة الإنجليزية والجامعات البريطانية بل والشعب الإنجليزي بأكمله ليسره أن يعترف له بالفضل كالأجنبي الوحيد الذي له كل الحق (في أن يُقدم لهم النصيحة لتوجيه شئونهم الخاصة)، وحتى غلادستون الرجل الذي كان خصمًا للتسليح قال عن كتاب ماهان عن الثورة الفرنسية والإمبراطورية الألمانية أنه كتاب الجيل.

وكان ماهان يستحق كل هذا المديح والإطراء؛ ذلك لأن ماهان قد وضع اصطلاح القوة البحرية في الكلمات التي يستخدمها الرجال الإنجليز المُعاصرون وفعل أكثر مما فعله أي شخص آخر لإثارة اهتمام الإنجليز بأسطولهم، ولقد كتب سيدنهام لورد أوف كومب: لأول مرة تكون لنا فلسفة بحرية تقوم على دُعامات التاريخ، وقد يمكن أن يُضاف هنا بأن ماهان قد أسهم في نمو المشاعر على كلا جانبي الأطلنطي بأن السيطرة على خطوط الملاحة العالمية في المحيطات لمسألة تشجع بل وتجعل من الضروري قيام تفاهم وتعاون إنجليزي - أمريكي[١].

ولكن نفوذ ماهان في أوروبا لم يكن مقصورًا على بريطانيا ففي سنة ١٨٩٠ كان الأسطول الفرنسي ثاني أسطول في العالم، وفي فرنسا ترجم كتاب ماهان الأول وأثار انتباه الضباط البحريين الفرنسيين، وقد تأثر الكابتن داريوس وهو أستاذ سابق للاستراتيـجية وللتكتيكات البحرية في كلية الحرب البحرية الفرنسية، تأثر بنقد ماهان للسياسة البحرية الفرنسية، وقد كرر هو نفسه في كتاب له – غطى نفس المدة التاريخية التي اشتمل عليها كتاب ماهان – أخطاء الاستراتيـجية البحرية الفرنسية التي أشار لها

(١) Heindel, op cit., p. ١١٧; Marder, op. cit., ٤٥ – ٤٧; Pules bon, chap. XXIII.

ماهان[١].

وصرح ضابط بحري فرنسي آخر هو الأميرال راؤول كاستكس من كلية الحرب الفرنسية بأن فكرتي ماهان عن:

١- الأهمية التي للسيادة البحرية.

٢- الحاجة إلى القوة المُنظمة هما اللتان تكسبانه كل اعتبار، ولكن كاستكس لم يكن يُعجبه أسلوب ماهان، إلا أنه اعتقد أن هذا لا يُقلل بحال ما من القيمة التي لا تُقدر لكتاب ماهان والذي يُعتبر دُعامة قوية في ميدان النظرية الاستراتيـچية[٢].

على أن آراء ماهان لم تلق في فرنسا ما لقيته من التقدير الكبير في بريطانيا وألمانيا والولايات المتحدة، وكان من الصعب في الواقع توقع أن يتقبل الفرنسيون بالتقدير فلسفة تختلف وتتباين مع سياستهم التاريخية.

وكان لكتابات ماهان تأثير عملي على السياسة الألمانية لم يزد عليه إلا التأثير الذي كان لها في الولايات المتحدة، وكما حدث بالنسبة لبريطانيا وبالنسبة للولايات المتحدة فإن كتاب: تأثير القوة البحرية على التاريخ قد صدر في لحظة حرجة، كان الإمبراطور غليوم الثاني قد طرد حديثًا بسمارك الشيخ، ويرجع هذا للإصرار العتيد من جانب بسمارك بضرورة بقاء ألمانيا قوة قارية أي قوة أوروبية فقط، وكانت الأمة الألمانية تحت حكم الإمبراطور الشاب قد بدأت تعُد نفسها لسياسة إمبريالية تعمل للاتساع فيما وراء البحار، وكان الأسطول الألماني الحديث جزءًا من هذه السياسة

(١) Puleston, Mahan, pp. ١٠٧, ٣٢٦.

(٢) نفس المرجع ص ٣٣٢.

الجديدة، ومع صغره فإنه كان يقوى وينمو(١).

على أن القوة البحرية بالنسبة لألمانيا لم تكن نتيجة لعملية طبيعية تطوعية كما كانت الحال بالنسبة لإنجلترا، فلقد جاء الاهتمام بالأسطول من البداية عملًا بالاصطناع، وقد قامت عصبة الأسطول الألماني Reichsmarineamt التي تحولت فيما بعد إلى منظمة رجال الأسطول Flottenverein بحملة واسعة لإيجاد وعي شعبي نحو الأسطول(٢).

وقد أدرك الزعماء الذين يتولون هذا الواجب قيمة كتابات ماهان لإثارة اهتمام الشعب ومن ثم تولي رجال الأسطول ترجمة كتابات ماهان إلى اللغة الألمانية، وكتب إيرنست ڤون هال أحد زعماء هذه الحركة كتابًا طبق فيه عقائد ماهان على حوادث التاريخ الألماني، وأوضح القائمون بالدعوة والدعاية لها حاجة ألمانيا إلى أسطول بحري، واستخدموا كلمات ماهان في أن المصالح الاقتصادية المُثمرة فيما وراء البحار إنما تعتمد الاعتماد كله على تملك قوة بحرية(٣).

ولم يكن لألمانيا – على خلاف فرنسا وبريطانيا – تاريخ بحري على الإطلاق، ومن ثم فإن تقاليدها البحرية كانت قليلة، وهكذا كان الضباط

---

(١) Marder, op. cit., pp. ٢٨٨ ff., A. Vagts, Deutschland und die Vereinigten Staaten in der Weltpolitik (١٩٣٥), p. ٦٥٢.

(٢) راجع الفصل ١٣ هامش ص ١٤٩ والتعريف الذي صحبه من الكتاب الثالث رواد الاستراتيـچية الحديثة للمترجم

(٣) E. Kehr, Schlachtflottenbau und Parteipolitik ١٨٩٤ – ١٩٠١ (Berlin, ١٩٣٠), pp. ٣٨, ٤٥, ١٠١ – ١١٠.

E. Von Halle, Die Seemaclhtin der deutschen Geshichte (Leipzig, ١٩٠٧) See esp. p. ٦ on bas epochemachende Werk des Amerikaners A. T. Mahan.

الألمان تواقين لتقبل العقائد الاستراتيـچية التي صاغها ماهان.

وكانت الصورة التي رسمها ماهان للقوة البحرية كشيء ينتج عن المستعمرات والتجارة فيما وراء البحار والأسطول البحري لها تأثير كبير على شعب قد استيقظ لتوه ليدرك أهمية المستعمرات والتجارة الخارجية، وتدل الرسالة التي بعث بها الإمبراطور الألماني لصديق له في مايو سنة ١٨٩٤ على ما استقبلت به آراء ماهان في ألمانيا، فقد جاء فيها: إنني لا اقرأ، بل استوعب تمامًا كتاب ماهان، وأحاول أن أحفظ هذا الكتاب عن ظهر قلب، إنه من أمهات الكتب القيمة، إن الكتاب في كل سفينة من سفن أسطولي وينقل عنه كل ضباطي البحريين من كل الرتب[١].

وكان ألفريد ڤون تيربتز هو الروح الموجهة للسياسة البحرية الألمانية، وكان تيربتز مسئولًا تمامًا عن المادة وعن الإدارة وعن التنظيم الأيديولوچـي للأسطول الألماني، وكان تيربتز أيضًا على دراية بكل كتابات ماهان ويحسن التحدث عنها، كما أن تأثير آراء الضابط الأمريكي على برنامج تيربتز وسياسته واضح جلي[٢]؛ وقد بقي تيربتز مصرًا على أن كلمتي قوة عالمية، إنما تعنيان القوة التي لها مصالح في كل الكرة الأرضية،فإذا كانت هذه من الدول الكبرى كان من الضروري أن تتملك أسطولًا، وكان عامل تقدير الأمة التي تمتلك قوة بحرية ليس هو تملكها أسطولًا من سفن

(١) ڤاچتس – نفس المرجع ص ٦٣٢، جاء نص تصريح القيصر في كتاب (ماهان) لبولستون ص ١٥٩.

(٢) لوجهات نظر تيربتز عن قيمة الأسطول لألمانيا يرجع إلى مشروع خطبة تيربتز في مجلس الريشستاغ في مارس سنة ١٨٩٦ التي نشرها هـ. هالمان في ص ٨٥ من كتابه:

H. Hallman, Krügerdepesche und Flottenfrage (Stuttgart, ١٩٢٧)

أما عن تأثير ماهان في آراء تيربتز فيرجع إلى ص ١٢٨ من كتاب:

Hallman, Der Weg zum deutschen Schlachtflottenbeau (Stuttgart, ١٩٣٣), p. ١٢٨.

المطاردة تستخدمها في حرب التنافس ضد سفن العدو التجارية، بل هو تملكها لأسطول من البوارج، ومن الطريف أن أول عمل قام به تيربتز عندما عين وزيرًا للبحرية أن استبدل برنامج سلفه ببرنامج يستهدف بناء أسطول من البوارج بدلًا من أسطول من سفن المطاردة.

والواقع أن تيربتز كان يقيس القوة البحرية على أساس قوة البوارج، كما أنه قد أكد بخاصة الأهمية السياسية للأسطول فالأسطول يزيد من قوة التحالف الذي تعقده أمة مع غيرها، ويمكن الأسطول من الحصول على النفوذ ومن اكتساب الأصدقاء.

وقد أوضح فيما بعد في ذكرياته أن الأسطول الذي يمثل قوة التحالف مع الدول الكبيرة الأخرى هو وحده الذي يضع في أيدي رجالنا السياسيين الأداة – التي لو أحسن استخدامها – يمكن أن تدعم قوتنا في القارة[١]، وكانت فكرة قيمة التحالف هذه هي قاعدة نظرية تيربتز الشهيرة عن المخاطرة والتي كان لُبها كما يلي:

لما كان من غير الممكن تقوية الأسطول الألماني بالقدر الكافي الذي يجعل فرصة الأنصار ضد كل خصم منطقية معقولة، كان من الضروري أن يكون قويًا بالقدر الذي يكلف تدميره حتى أقوى الدول البحرية خسائر فادحة، ويكون مجرد التفكير في هذه المخاطرة هو العمل المضاد ضد أي هجوم[٢].

وقد أمل تيربتز بأنه بدلًا من أن تغامر بريطانيا بسيطرتها على البحار لمقاتلة الأسطول الألماني يجب أن تحاول التفاهم مع ألمانيا، ولكن حوادث

---

(١) My Memoirs (Eng.. trans. ١٩١٩) I, p. ٧٩.

(٢) H. Rosinski, German Theories of Sea Warfare", Brassey's Naval Annual, ١٩٤٠, p. ٨٩.

الحرب العالمية الأولى لم تدعم نظرية تيربتز فالإنجليز لم يحاولوا التفاهم مع الألمان ولم يتراجعوا عن مهاجمة الأسطول الألماني، وأغلقت البوارج الألمانية في النهاية داخل المياه الألمانية، وتمكنت أساطيل الحلفاء من أن تعرض مرة أخرى القيمة الحقيقية للسيطرة على البحر.

وتأثير ماهان في الفكر البحري الألماني قبل سنة ١٩١٤ غير منكور، ولكن توجد أدلة قوية على أن الألمان قد طبقوا آراء ماهان التي أساؤا فهمها[١]، فإن كتابات ماهان تحتوي على مناقشات كثيرة للمضار التي فرضتها الجغرافية على الأمة الألمانية بالنسبة للقوة البحرية الكبيرة التي توافرت لألمانيا، ولو كان الألمان قد فهموا المعنى الصحيح للقوة البحرية لكانوا ولاشك قد أدركوا بأن القوة البحرية الكبيرة التي تكفي لهزيمة الأسطول البريطاني هي وحدها التي تمكن من تحويل ألمانيا لتكون دولة بحرية قوية في المعنى الذي استهدفه ماهان، ويبدو أن ماهان لم يفهم التحديات الجغرافية الأساسية لموقع ألمانيا الجغرافي بالنسبة للسيطرة على البحر[٢]، هذا فضلًا عن أن تيربتز قد فشل في الانتفاع من تحذير ماهان من أن الأمة لا يمكن أن تأمل في أن تكون دولة برية قوية في نفس الوقت الذي تكون فيه قوة بحرية كبيرة.

ويبدو أن الألمان من أصحاب النظريات البحرية قد أدركوا في السنوات السابقة للحرب بأن الاستراتيـچية البحرية الخاطئة هي التي تحتمل مسئولية فشل الأسطول الألماني في أن يلعب دورًا نافعًا في الحرب، وقد بقيت مكانة تيربتز عالية إلى حد أن أحداً لم يجرؤ على مهاجمته علانية،

---

(١) Rosinski, Mahan and the Present War, Brassey's Naval Annual, ١٩٤١, pp. ٩ – ١١.

(٢) ڤاچتس، نفس المرجع ص ١٥٢٤.

ولكن لا شك أنه كانت هناك اتجاهات لضرورة وضع نظرية بحرية جديدة تتفق مع الوضع الجغرافي لألمانيا، وقد انحدر بندول الساعة إلى أقصى الطرف الآخر، وفي السنوات الأخيرة وجه الألمان انتباههم إلى لون جديد من حرب التنافس بواسطة الغواصات والطائرات وسفن الإغارة، ولكنهم قاموا بهذا الأسلوب الذي اتبعه الاستراتيجيون الفرنسيون في الماضي(١).

على أنه من غير الممكن تقدير تأثير ماهان على الفكر العسكري تقديرًا كاملًا دون ذكر الدور الذي لعبته نظريات ماهان في تطور الـجيوبوليتيكية الألمانية(٢)، فإن الإقتراب الألماني الجديد إلى صناعة الحكم يجمع بين نظرية قوة الدولة وبين نموها (الدولة) التي يقوم على أساس امتداد قوتها البرية أي في وضع يتمشى عكسيًا مع فلسفة ماهان لنمو القوة البحرية.

وكان ماهان – على ما أشار روبرت ستراوزس هوبي في كتابه الأخير الذي يشرح فيه الـچيوبوليتيكا الألمانية – واحدًا من المفكرين الأنجلوساكسون الذين يبدو تأثرهم واضحًا جليًا في تعاليم هوزهوڤر بالرغم من – أو ربما بسبب – حقيقة أن عقيدة هوزهوڤر عن القوة البرية هي أقصى الطرف المضاد لنظريات ماهان(٣).

ويعني قسم كبير من الكتابات والتفكير الـجيوبوليتيكي بالنزاع بين القوة البرية وبين القوة البحرية، وكان خصوم القوة البرية تواقين ليجدوا

---

(١) راجع تحليلات النظرية البحرية الألمانية قبل الحرب في مقال: Rosinski, German Theories of Sea Warfare in Brassey's Naval Annual, ١٩٤٠, pp. ٨٨ – ١٠١.

(٢) راجع الفصل ١٦ من هذا الكتاب عن الـجيوبوليتيكي.

(٣) R. Strausz-Hupé, Geopolitics: The Struggle for Space and Power (New York), ١٩٤٢, p. ٢٤٦.

النقاط الضعيفة في الوضع الاستراتيجي لبريطانيا، وهكذا فإنهم اتجهوا نحو أعمال الجغرافي الإنجليزي السير هالفورد ماكيندر الذي أشار إلى المناطق الحساسة في تشريح بناء القوة البحرية الإنجليزية[١].

وفي تطوير ماهان لنظريته عن قارة أور - آسية وقلب العالم، أعاد ماكيندر بحث عقيدة ماهان عن القوة البحرية، ولكنه درسها من جديد دراسة نقدية، وقد قدم ماكيندر عدة خواص لنظرية القوة البحرية كان ماهان قد أشار إليها ولكن أغفلها من تبعوه، فلقد كان موقع بريطانيا ومواقع خصومها – كان هذا – هو الذي أعطى الأسطول البريطاني هذه القوة الكبيرة في الشئون العالمية، فإن كون بريطانيا جزيرة ليس هو الذي مكنها من السيادة البحرية، وقد أثار ماكيندر أيضًا المسألة البالغة الأهمية مسألة العلاقة بين قواعد القوة البحرية وبين القوة البرية[٢].

وقد درس الـچيوبوليتيكون الألمان تاريخ القوة البحرية وقد اقترح ستراوز هوبي هذه الدراسة فقط للقدرة على الانتهاء إلى أن عصر الإمبراطوريات البحرية يقترب من نهايته وأن مستقبل القوة البرية يسمو ويزدهر، وقد تفهم كارل هوزهوفر وأتباعه التغييرات في الجغرافية الاستراتيـچية التي جاءت بها الخطوط الحديدية، ثم التي جاءت بها في تاريخ لاحق الحرب الميكانيكية، وقد تفهمها هؤلاء بأسرع مما تفهمها خصوم القوة البحرية، وقد وضع هؤلاء أصابعهم على ضعف هونج كنج وسنغافورة قبل أن تثبت الحرب فعلًا هذا الضعف بسنوات طوال.

(١) نفس المرجع ص ٢٥٢ وص ٥٣.

(٢) نفس المرجع ص ٥٣ و ٢٤٩، وقد لخصت وجهات نظر ماكيندر عن موقع بريطانيا في كتابه: Britain and the British Seas (٢nd. ed. ١٩٣٠), Chap. XX, and esp. p. ٣٥٨.

وقد أدرك هؤلاء – إذا كان باقي دول العالم لم تدرك هذا – إن الإمكانيات السياسية للقوة البحرية تتراجع القهقري أمام الإمكانيات المتزايدة للقوة البرية، وقد أدركوا هذا قبل وقت طويل من انغمار أول غواصة تحت سطح الماء، وقبل أن ترتفع في طبقات الجو أول طائرة(١).

وقد عبر الكتاب الـچيوبوليتيكيون الألمان كثيرًا عن إعجابهم بماهان والذي قامت فلسفته للكرة الأرضية كلها في مستوى أعظم وأروع مما قامت عليه نظريات أيٍ من دُعاة التوسع الإمبريالي في عصره، وقد اعتبر كارل هوزهوڤر، اعتبر ماهان مفكرًا چيوبوليتيكيا فذا وجه الولايات المتحدة في الطريق الصحيح نحو العظمة، وكان هو الذي علم السياسيين الأمريكيين أن يفكروا كقوة عالمية تتوافر لها مساحة عظيمة(٢).

❊ ❊ ❊

والواقع أنها واحدة من صور المراوغة والتدليس الغريبة في التاريخ أن تكون العقائد التي صاغها ضابط بحري أمريكي والتي كانت هي المبادئ القائدة الموجهة للدول البحرية الكبيرة في العالم، قد أوجدت نظرية مضادة للقوة البرية، ولو كانت استراتيـچية هوزهوڤر وهتلر قد نجحت لكانت قد سببت القضاء على القوة البحرية على ما فهمه ماهان؛ ولما كان العالم الحديث قد أكثر من التنبؤ بما تم من السيطرة الإنجليزية – الأمريكية على البحار فإن نتائج انتصار النازية كانت ولا شك ستكون ثورية لمدى أبعد بكثير مما آمل الألمان، بل ولمدى أبعد بكثير مما خاف منه الأمريكان أنفسهم.

❊ ❊ ❊

---

(١) Strausz-Hupé, op. cit. pp. ٢٥٣ – ٢٥٤, ٢٥٥ – ٢٦٤. esp. P. ٢٦١.

(٢) نفس المرجع ص ٢٤٣ – ٢٤٦.

حديث المراجع

الفصل السابع عشر

ماهان:

المبشر الداعية للقوة البحرية

بقلم مرجريت تتل سبروت

نقلت الخريطة التي في هذا الفصل عن كتاب «نحو تنظيم جديد للقوة البحرية» من قلم هارولد ومرجريت سبروت إصدار مطبعة جامعة برنسيتون ١٩٤٠.

وللأدميرال ماهان ثلاثة كتب تكون معًا وحدة واحدة تجمع نظريته عن القوة البحرية، وهذه الكتب هي:

The Influence of sea power upon History, ١٦٦٠ ١٧٨٣ (Bosten, ١٨٩٠).

The Influence of sea power upon French Revelution and Empire, ١٧٩٣ – ١٨١٢ (Bosten ١٨٩٢).

Sea power and its Relation to the War of ١٨١٢ (Bosten,١٩٠٥).

وعندما كان ماهان يكتب كتابه الكبير عن القوة البحرية أعد تأريخًا قصيرًا لحياة الأدميرال فاراجوت (١٨٩٢) وقد مكنه ابن فاراجوت الذي كان يعيش يوم ذاك في نيويورك من الإطلاع على الكثير من أوراق الأب وخطاباته، ومع هذا فإن هذا الكتاب الخاص بالأدميرال فاراجوت لا

يمكن أن يقارن بكتابه (The life of Nelson) الذي صدر سنة ١٨٩٧، وفي هذا الكتاب الثاني عمل ماهان ليكتب تاريخًا للرجل الذي كان رمزًا للقوة البحرية البريطانية، عارضًا كلا (الرجل وعبقريته) موضحًا العلاقة الصحيحة بينهما، وهو واجب لم يكن سهلًا ميسورًا ولكنه حقق نجاحًا فيه.

وقد كتب ماهان كتابين آخرين في الحديث عن حياته هو هما:

From Sail to Steam: Recollections of Naval Life (١٩٠٧).

The Harvest Withen (١٩٠٦).

وقد جمعت كتابات ماهان في الموضوعات العامة في عدة مُجلدات، اشتمل أولها على ثمانية موضوعات كتبها بين ١٨٩٠ و ١٨٩٧ وصدرت سنة ١٨٩٧ بعنوان:

The Interest of America in Sea Power, Present and Future.

وصدر الثاني بعد عامين اثنين بعنوان:

Lessons of the War with Spain and Other Articles.

وصدر المُجلد الثالث سنة ١٩٠٠ بعنوان:

The Problem of Asia and Its Effect upon International Policies.

وقد تبع كتابه The War in South Africa الذي صدر سنة ١٩٠٠ أيضًا، بكتابين آخرين اشتملا على عدة موضوعات عامة كانا بعنوان:

Types of Naval Officers Drawn from the History of the British Navy (١٩٠١).

ويقدم الكتاب بعض رسوم تخطيطية سريعة للضباط البحريين، وثم

جاء كتاب ثالث:

Retrospect and Prospect, Studies in International Relations, Naval and Political (١٩٠٢).

ويشتمل على موضوعين مثلهما مثل المُجلدين اللذين تحدثنا عنهما من قبل مما يهم القارئ الإنجليزي أكثر من غيره.

❊ ❊ ❊

وقدم كتاب: (Some Neglected Aspects of War) الذي صدر سنة ١٩٠٧ وجهات نظر ماهان على بعض المسائل التي عرضت أمام مؤتمر لهاي الثاني، وفي سنة ١٩٠٨ أصدر مجموعة مقالات عن (الإدارة البحرية)، وفي سنة ١٩١١ أصدر:

Naval Strategy Compared and Contrasted with the Principles and Practice of Military Operations on Land.

وكلها تهم رجال صناعة البحر، ولكن الذي يهم القارئ المدني هو كتابه الذي صدر سنة ١٩١٠ بعنوان:

The Interest of America in Internaional Comditions.

وفي سنة ١٩١٣ أصدر ماهان كتابًا له كان قد صدر سنة ١٩٠٧ كفصل من كتاب:

Clowes', History of the Royal Navy.

وقد وسم بعنوان:

The Major Operations of the Navies in the War of American

Independence.

وكان آخر ما صدر مما كتب ماهان مجموعة من مقالاته ورسائله، صدر في آخر سنة ١٩١٤ بعد أن كانت القوة البرية والقوة البحرية قد اشتركتا معًا في الحرب العالمية الأولى.

❊ ❊ ❊

والواقع أن أصدق دراسة للتاريخ لحياة ماهان، هي الدراسة التي قامت على أساس أوراقه وهي:

Captain W. D. Puleston, The Life and Work of Captain Alfred Thayer Mahan (New york, ١٩٤٠).

❊ ❊ ❊

لدراسة تأثير دراسات ماهان في بريطانيا يرجع إلى:

A. J. Marder, The Anatomy of British Sea Power (New york, ١٩٤٠).

R. H. Heindel, The American Impact on Great Britain (Philadelphia, ١٩٤٠).

أما بالنسبة لتأثير هذه الدراسات في ألمانيا فيرجع إلى:

A. Vagts, Deutshland und die Vcreinigten Staaten in der Weltpolitik ٢ vols. (New york, ١٩٣٥).

E. Kehr, Shlachtflottenbau und Parteipolitik ١٨٩٤ – ١٩٠١ (Berlin, ١٩٣٠).

E. Von Halle, Die Seemacht in der deutschen Geshichte (Leipzig, ١٩٠٧).

H. Hallman, Krugerdepeshe und Flottenfrage (Stuttgart, ١٩٢٢).

Der Weg zum deutschen Schlachtflottenbau (Stuttgart, ١٩٣٣).

Admiral Tirpitz, My Memoirs (English translation) (New york, ١٩١٩).

H. Rosinski "Mahan and the Present War" in Brassey's Naval Annual (١٩٤١) pp. ٩ – ١١.

أما عن السياسة البحرية الأمريكية فيرجع إلى:

H. and M. Sprout, The Rise of American Naval Power (rev. ed. Princeton, ١٩٤٣).

G. T. Davis, A Navy Second to None: The Development of Modern Amerian Naval Policy (New York, ١٩٤٦).

Allan Westcott, Mahan on Naval Warfare (Boston, ١٩٤١).

والأخير مجموعة موجزة وإن لم تكن جيدة لبعض كتابات ماهان.

أما عن چيوبوليتيكية الحرب البحرية فيرجع إلى ما جاء في مراجع الفصل السادس عشر عن كارل هوزهوڤر، كما يرجع إلى:

Robert Strausz-Hupé, Geopolitics; The Struggle for Space and Power (New York, ١٩٤٢).

Hans Weigert, Generals and Geographers (New york, ١٩٤٢).

ويرجع إلى الوضع الـجيوبوليتيكي لبريطانيا في كتاب:

Halford MacKinder, Britain and the British Seas (٢nd. ed. New York, ١٩٣٠).

❊ ❊ ❊

الفصل الثامن عشر

العقائد الأوروبية للقوة البحرية

بقلم تيودور روب

بالرغم من تقبل نظريات ماهان في كلا الأسطولين البريطاني والأمريكي، ومع تقدير تأثيره (ماهان) في الفكر البحري الألماني فإن مؤلفاته العظيمة لم تقلل إطلاقًا من مكانة مختلف المدارس للاستراتيـچية البحرية في قارة أوروبا.

ومع أن كل أصحاب النظريات عن البحرية في قارة أوروبا يعترفون بمدى ما هم مدينون له به من معرفة فإنه في الواقع لم يكتب شيئًا عن المشكلة البحرية الحرجة التي تُقلقهم وتشغلهم، مشكلة الوسائل التي يمكن بها الوقوف أمام بحرية بريطانيا بقوات تقل عنها من الناحية العددية. ولقد استهدفت كتابات ماهان حقيقة، الإجابة جزئيًا على كل المناقشات الجدلية التي دارت في أكثر المدارس البحرية بقارة أوروبا أصالة: المدرسة البحرية للأسطول الفرنسي المدرسة الفتية في فجر سنة ١٨٨٠.

وكان اهتمام المدرسة الفرنسية بتدمير التجارة يرجع إلى سلسلة من المحاولات الفرنسية التي لم تنجح لهزيمة بريطانيا بواسطة حرب السباق والتنافس guerre de course في حروب القرن الثامن عشر(١)؛ ولكن آراءهم الأساسية جاءت وليدة الحروب من ١٨٥٤ – ١٨٧١، الحروب التي كانت أول ما اختبرت فيها الأسلحة الجديدة لعصر النهضة الصناعية.

---

(١) Ráoul Castex, Synthése de la guerre sous-marine de Pontchartrain á Tirpitz (Paris, ١٩٢٠).

ولقد أدت هزيمة فرنسا في حرب ١٨٧٠ – ١٨٧١ بدولة لم يكن لها ما يعتبر أسطولًا بحريًا، أدت هذه الهزيمة إلى وقوف أصحاب النظريات البحرية موقف الدفاع، ولقد اعتبرت هذه الحرب في ألمانيا وفرنسا بأنها تؤكد وجهات النظر التقليدية للعسكريين من أن القوة البحرية مسألة تعني بالتجارة والمستعمرات، وأنه من الأفضل أن يوكل إليها دور ثانوي في العلاقات بين الدول الأوروبية الكبيرة، فلقد احتل رجال البحر ووضعت الأسلحة البحرية (المدافع) في قلاع باريس بعد معركة سيدان، ولم يفعل الأسطول بهذا إلا الشئ القليل لتجنب الهزيمة، وكانت محاولة الأسطول الفرنسي لحصار السواحل الألمانية محاولة فاشلة تمامًا، واستطاعت السفن المحايدة أن تخترق الحصار في سهولة ويسر على مثال ما حدث منها بدخول موانئ الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة الأمريكية أيام الحرب الأهلية، ولم تستطع السفن الفرنسية متابعة القيام بمحاولات الحصار إلا بحصولها على حاجتها من الفحم من هيليجولاند المحايدة، وسدت الألغام وسفن الدفاع الساحلي الصغيرة والتي أثبتت تأثيرها الكبير في حرب القرم وفي الحروب الأمريكية، سدت مصبات الأنهار الألمانية ضد أي هجوم بحري فرنسي، وكذلك فإن عمليات إنزال الجنود والتي لعبت دورًا هامًا في الحروب الأهلية الأمريكية كانت مستحيلة في وجه نظام وشبكة الخطوط الحديدية الجيدة للجيش البروسي، وتبعًا للاستخدام الجيد لهذه الخطوط الحديدية في تحركات قوات الاحتياطي الألماني.

ولما كان العسكريون قد أعدوا أنفسهم لحروب قصيرة الأمد مثل حرب ١٨٦٦ أو حرب سنة ١٨٧٠ فإن القوة البحرية لم تلعب إلا دورًا صغيرًا في التفكير العسكري الأوروبي، وبقي الأسطول كطفل بالتبني في

استراتيــچية قارة أوروبا.

وعلى نقيض إهمال الأسطول في فرنسا كان الأسطول الألماني يزود باحتياجاته طوال حكم غليوم الثاني على مثال حشو المريض الضعيف بالغذاء بفكرة إبلاله من مرضه نتيجة للتغذية، ولكن مع هذا فإن العسكريين في فرنسا وفي ألمانيا بقوا ينظرون للأسطول البحري نظرتهم لطفل بالتبني(*).

وقد تقبلت المدرسة الفرنسية هذا اللون من التحليل للقوة البحرية، كان الناس يعرفون أن فرنسا المهزومة لا تستطيع بناء أسطول كبير كأسطول بريطانيا، وقد اتفقوا على أن أي حرب انتقامية ضد فرنسا ستكون أساسًا في البر، أي ستكون حربًا برية. وقد رأى عدد من المفكرين الفرنسيين ضرب التحالف الثلاثي (ألمانيا والنمسا وإيطاليا) بالقيام بهجوم بري وهجوم بحري عن طريق إيطاليا، ولكن الفكرة لم تلق تعضيدًا واسعًا لا في سنة ١٨٨٠ ولا في سنة ١٩٣٩، فإن القيام بحصر بحري في الطابع التقليدي كان مستحيلًا تقريبًا، وفي أي حرب قصيرة الأمد لن تتأثر فرنسا، ولن تتأثر ألمانيا التأثير الكبير الضار نتيجة للحصر البحري حتى لو أمكن تنفيذ هذا الحصار، وقوة برية تحملها السفن على مثال ما حدث في القرم من نقل ستين ألف جندي بالسفن البحرية ستكون قليلة الأثر في ضوء القوة العسكرية في العصر الحديث.

والواقع أنه من الناحية العملية كانت كل العمليات البحرية في منتصف القرن التاسع عشر عمليات ساحلية واجهت مقاومة بحرية صغيرة

(*) التصوير الصحيح هو الطفل الذي يلحق بالرجل نتيجة بنائه بأمه (المترجم).

أو لم تواجه مقاومة ما، وقد نسي استراتيجيو ذلك العصر أهمية عمليات الأسطول المنظمة، وكان الجميع يثقون بأن عصر المعارك البحرية العظيمة قد انتهى وأن الأسطول الأقل قوة يمكن أن يعني العناية كلها بالمحافظة على بقائه وكيانه بأية وسيلة، وكان الغرض الإستراتيجي للأسطول الألماني الصغير في سنة ١٨٨٠ الدفاع عن السواحل الألمانية، وكانت السفن الكبيرة التي تحمي المصالح الألمانية في الخارج لا تستطيع القتال ولا تستطيع في نفس الوقت الفكاك من عدو تتوافر له قوة بحرية حديثة، وكانت وجهات نظر الفيلد ماريشال السير هنري ويلسون – وجهات النظر المعروفة عن قلة نفع الأسطول البريطاني في أي حرب بين بريطانيا وفرنسا وألمانيا – تعكس الفكر العسكري الأوروبي لذلك العصر[١].

ولتقوية هذه الاستنتاجات العامة التي أمكن استخلاصها من حروب سنة ١٨٦٠ فإن الحقبات التالية من السنين قد شهدت إيجاد قوارب الطوربيد السريعة، السفن التي كانت الطابع السابق لقيام المدمرات التي نجدها اليوم في الأساطيل البحرية، ولقد كانت قوارب الطوربيد الإجابة على المشكلة المالية التي تواجه كل الأساطيل الأوروبية، فلقد اعتبرت سلاحًا لا مثيل له في الدفاع الساحلي الخفيف الحركة، ولقد بلورت قوارب الطوربيد آراء جيل كامل من المفكرين البحريين في المدرسة الفرنسية، واعتبرها الأدميرال ثيوفيل Théophile في وقتٍ ما أساس نظريته البحرية[٢].

ولقد اعتبرت تكتيكات الأدميرال ثيوفيل سابقة لعصرها على مثال ما

---

(١) G.E. Tyler the British Army and the Continent, ١٩٠٠ – ١٩١٤ (London, ١٩٣٨) Ch. VI.

(٢) كان أهم ما كتبه ثيوفيل سلسلة من المقالات جمعت وصدرت بعنوان: Aterre et á bord, notes d'un marin (Paris, ١٨٨٤).

اعتبرت آراء ماهان قد جاءت بعد زمانها الذي كان يجب أن تجيء فيه، ولكن مع هذا فإن كتابات ثيوفيل قد نالت تقدير عدد كبير من الأنصار الذين منحوها تعضيدهم ولم يحاولوا نقدها بصورة ما[١]، وعندما وصلت فكرة بناء قوارب الطوربيد السريعة إلى ذروتها أغفلت ألمانيا والنمسا والمجر والروسيا برامجها لبناء البوارج، وأحست الحكومة البريطانية بواجبها للاعتذار لمجلس العموم عن اضطرارها لإتمام هذه البوارج التي تحت الإنشاء فعلا.

وإن غاية ما نستطيع أن نقول اليوم نتيجة للتقارير الخاصة بالمناورات في وقت السلم فإن قوارب الطوربيد قد أثبتت صلاحيتها كسلاح ساحلي قوي، ولكن كان أمل المدرسة الفرنسية في إرهاب سكان المناطق الساحلية في إيطاليا وبريطانيا بالقنابل الحارقة والشديدة الانفجار التي تقذفهم بها قوارب الطوربيد أحسن تمثيل للتصورات التي انتشرت يوم ذاك، وكان هذا الإغفال الكامل لمبادئ القانون الدولي والتقدير المبهم للأضرار والتلفيات التي يمكن أن تسببها قوارب الطوربيد هذه تماثل الجدل الذي دار بين الكثيرين لأول بروز السلاح الجوي، وعلى أية حال فإن قوارب الطوربيد كانت أول سلاح قصير المدى هدد من سيادة البوارج، ومع أن هذه السفن الصغيرة التي تشبه مقلاع داود لم تطرد عمالقة جالوت من البحار إلا أن حرية العمل التي كانت للبوارج قد واجهت تحديدًا كبيرًا لها، وبدأت الدول العسكرية تحد من سيادتها لتغطي البحار من حولها، وبنى الفرنسيون قوارب طوربيد خاصة للعمليات بين كورسيكا وشمال أفريقية وبدأوا إنشاء قواعد بحرية حديثة على كلا ساحلي غرب البحر المتوسط.

---

(١) ربما كان أهم هؤلاء الصحفي جبرييل تشارمز الذي كتب: La reforme de la marine (Paris, ١٨٨٦).

وعكست النظرية البحرية الإيطالية لذلك العصر نفس الاتجاه العام هذا، فإن بوارجهم الكبيرة أعدت أساسًا لتكون سفنًا للدفاع الساحلي مع القدرة للخروج إلى البحر الفسيح، وأوكل إليها واجب منع عمليات التدمير وعمليات إنزال الجنود من جانب الفرنسيين، ولم يقصد الإيطاليون قط أن ينتزعوا بسفنهم الخفيفة التدريع السيادة على غرب البحر المتوسط من السفن الفرنسية الثقيلة التدريع، ولم ينفق الإيطاليون أي مبلغ من المال على سفن لهم خارج غرب البحر المتوسط ولم يحتفظوا بأي قواعد بحرية، وكان كل ما أملوا فيه أن يستطيعوا كبح جماح الأسطول الفرنسي في هذه المنطقة المُحددة(١).

وكان الموقف كذلك بالنسبة للولايات المتحدة، فبالرغم من مصالحها الدبلوماسية الواسعة النطاق بعد سنة ١٨٩٨ فقد أبقت كل جهدها البحري للدفاع عن نصف العالم الغربي، وقد استطاعت أن تُسيطر تدريجيًا على هذا الجزء من العالم باستنادها إلى قواعد بحرية كثيرة في المنطقة، وبنفس الأسلوب كسبت اليابان السيادة المحلية على بحار شرقي آسيا.

وفي كل من هذه الحالات أضعفت هذه السيطرة الإقليمية من سيادة بريطانيا على البحار العالمية، ومن الطريف أن نلاحظ أن أول الدول البحرية التي حالفت بريطانيا كانت هي الولايات المتحدة وفرنسا واليابان، وفي تاريخ مبكر أيام الحرب الروسية – اليابانية كان بعض المفكرين الفرنسيين يشعرون بعدم إمكان الدفاع عن الهند الصينية ضد هجوم ياباني جدي، وبدأ الإنجليز بدورهم يسقطون من حسابهم الأهمية التي لهنج كنج.

وكانت كل الاعتبارات في البداية دفاعية، كانت لا تزال هناك

(١) كان أهم أصحاب النظريات من الإيطاليين الكاتب دومينيكو بوناميكو Domenico Bonamico, II problema marittime dell'Italia (Turin, ١٨٨١).

مشكلات أخرى توجد ضغطًا على قوة بريطانيا البحرية، وتحاول تفتيت الاحتكار الاستعماري والبحري الذي حصلت عليه بريطانيا ولا تزال تعمل على زيادة مداه، وكانت هناك عدة حلول نظرية لهذه المشكلات يرجع أولها إلى تاريخ استخدام السفن التي تسير بالبخار لأول مرة سنة ١٨٤٠، وكان حلم الفرنسيين أن كل العوامل التي عطلت وسببت فشل مشروعات الغزو الفرنسي لقرن كامل من الزمان قد انتهت، ومن الممكن استخدام القوة العسكرية الفرنسية استخدامًا مباشرًا ضد العدو، فلقد كان البخار بمثابة المعبر (الكوبري) فوق القنال الإنجليزي، فسفن البخار لا تحتاج إلى انتظار المد أو انتظار تحول اتجاه الريح، ولم يعد في استطاعة الإنجليز أن يحاصروا الفرنسيين في موانيهم.

ومع أن هذا الاتجاه في التفكير لم يكن أكثر بروزًا في سنة ١٨٨٠ مما كان قبل ثلاثين سنة فإن غزو اليابان للصين في سنة ١٨٩٤ قد أثار من جديد المسألة بأكملها، وكان الموضوع من الدراسات المُحببة لهيئتي أركان الحرب الفرنسية والألمانية في قرابة وقت قيام حرب البوير أي قبل إعداد لورد هالدان(*) للجيش البريطاني.

ومع أن تأثير هذا التهديد يخرج عن نطاق موضوع هذه الدراسة إلا أن الكثيرين من المفكرين على كلا جانبي القنال قد عنوا بهذا البحث، وفي

(*) هالدان Haldane ڤيسكونت ريتشارد بوردون هالدان سياسي وفيلسوف نقادة (١٨٥٦ – ١٩٢٨) تولى وزارة الحربية سنة ١٩٠٥ وقد أكمل تنفيذ مشروع كاردويل لإصلاح الجيش بإنشاء قوات عسكرية للقيام بالحملات الحربية كما أنشأ هيئة أركان الحرب للوحدات العسكرية بناءً على توصية لجنة آشر وهو صاحب كتاب (حياة هنري ويلسون) إيـڤري ماتر إنسيكلوبديا ج ٦ ص ٦٨٨. (المترجم).

النهاية تنبأ الاستراتيجيون الفرنسيون بأن هذا التهديد بالغزو سيُرغم الإنجليز على الاحتفاظ بجزء كبير من الجيش الإنجليزي في الجزر البريطانية ومن ثم يخف الضغط البريطاني عن المستعمرات الفرنسية.

على أن الأدميرال أوب Aube كان قليل الاهتمام بمشروعات الغزو هذه، كانت الورقة التي يفضل اللعب بها هي إحياء حرب التنافس guerre de Course ضد سفن الإنجليز التجارية، وكان النجاح الذي حققته المدمرات التي عملت لتحطيم تجارة الجنوبيين في الحرب الأهلية الأمريكية قد أحيا التقدير الفرنسي التقليدي لهذا اللون من الحرب، ومع أن بعض أوجه النقاش التي استند إليها الأدميرال أوب ترجع إلى أيام لويس الرابع عشر فإن عاملين جديدين كانا يُمهدان السبيل للنجاح حيث فشلت جهود فرنسا في الماضي، فلأول مرة يتوقف كل البناء الاقتصادي لبريطانيا على الغذاء والمواد الخام التي تجئ من خارج بريطانيا، ولأول مرة – على ما أثبتت الحرب الأهلية الأمريكية – لن تستطيع بريطانيا إبقاء سفن الإغارة داخل قواعدها، ولا يزال هذان العاملان أساس الحرب التجارية الحديثة، فبريطانيا تعتمد اعتمادًا كاملًا على الإمدادات التي تنقلها بالبحر، ومن الضروري أن يقوم الأسطول البريطاني بحماية قوافل النقل ووقاية كل طن من المتاجر ينقل إلى الجزر البريطانية، والجهد الذي احتمله السلاح الجوي البريطاني بالاشتراك مع المجموعة الثامنة من السلاح الجوي للولايات المتحدة الأمريكية بإعداد وقاية مباشرة للسفن وضرب قواعد الغواصات الألمانية بالقنابل ليدلنا على خطورة هذه المشكلة، مشكلة الحاجة لحماية النقل البحري إلى بريطانيا.

وقد أوضحت قوانين القمح، كما أوضحت الحاجة الملحة للقطن سنة ١٨٦٠، اعتماد بريطانيا اعتمادًا كاملًا – في غذائها وفيما تستخدم في صناعتها

من المواد الخام – على ما تجئ به منقولًا عبر البحار، وكان الجيل الذي عاش فيه أوب Aube هو أول جيل يفهم تمامًا خطورة مشكلة ضرورة حماية بريطانيا لخطوط تموينها من وراء البحار، وقد غطت مطالبة ماهان وتيربتز بالحصول على المستعمرات والاستزادة من التجارة الخارجية، غطت هذه المشكلة بالسجف في كل من ألمانيا والولايات المتحدة، ولا يمكن أن تتوقع من الذي يُطالب بالاستزادة من التجارة الخارجية أن يبرز صعوبة حماية هذه التجارة، ومن ثم فإن المدرسة الفرنسية التي قدرت الاكتفاء الذاتي في فرنسا – كانت هي وحدها التي عنيت بمشكلة حماية تنظيم اقتصادي قائم، واهتمت بدراسة هذا في دراستها لحرب التنافس gueree de course.

ولقد كان الكثير من الخسائر التي لحقت بالسفن الأمريكية أثناء الحرب الأهلية ترجع إلى فزع وخوف أصحاب السفن، ومثل هذا الفزع يمكن أن يعطل كل الحياة الاقتصادية لبريطانيا.

وكان من المظنون أن المقترحات الأولى للتأمين القومي ضد خسارة السفن في الحرب ستعطي الحكومة قوة كبيرة على أعمال النقل، وهكذا أحس الكثيرون من أصحاب السفن أن الوسيلة الوحيدة لهم هي الانتقال لاستخدام أعلام الدول المحايدة فوق سفنهم، فكان هذا الاضطراب الاقتصادي الذي يسببه هذا الفزع هو الهدف الاستراتيجي الأساسي للمدرسة الفرنسية.

وفي ضوء التوقف التام لنشاط حكومة الاتحاد في أزمة مماثلة، وكذلك في ضوء ضعف السياسة الاقتصادية للحكومة الفرنسية أثناء حصار باريس لم يكن من المدهش أن يتوقع الكثيرون اختفاء الأعلام البريطانية من البحار في وقت الحرب، ولقد قوى من اعتقادهم عظم ما طالبت به الولايات

المتحدة كتعويض للضرر المباشر في حادث السفينة الاباما كما بدا أن تقبل بريطانية للأمر يوضح خوفها من قيام الأمريكان بمهاجمة سفنها البحرية.

وكانت حرب التنافس guerre de cource دائمًا أهم الأجزاء المعروفة من النظرية الاستراتيـچية للمدرسة الفرنسية ولقد تنبأ آوب Aube بأن أي قارب من قوارب الطوربيد يستطيع مهاجمة والقضاء على أي سفينة من السفن التجارية في القنال الإنجليزي أو في البحر المتوسط، وهكذا بقيت لما يقرب من عشرين سنة لنظرية المدرسة الفرنسية عن الدفاع الساحلي أهميتها في النظرية البحرية لقارة أوروبا بأجمعها، وكان نفوذها كبيرًا جدًّا في فرنسا وفي الولايات المتحدة الدولتين اللتين نشأت فيهما السفن التي تقوم بواجبات الدفاع الساحلي، ودرس الروس بدورهم الطرق التي تسير فيها السفن التجارية الإنجليزية وبنوا سفينتهم للإغارة على السفن التجارية Rurik Rossia على مثال السفينتين الأمريكيتين Minneapolis, columbia والسفينتين الفرنسيتين: Guichen, Chteaurenault.

وكان من أهم أعمال ماهان الأساسية خروجه على فكرة المدرسة الفرنسية الفتية، فهو لم يقصر دراسته للتجارب العملية في نطاق الحروب بين سنتي ١٨٥٤ و١٨٧٠ بل خرج إلى النطاق الأوسع بدراسة التاريخ حتى في أيام السفن التي كانت تسير بالشراع.

على أن ماهان كغيره من كبار الكتاب تباين تقدير الناس له واختلفت نظراتهم لأعماله، فقد اعتبر في ألمانيا وأمريكا واحدًا من أعظم أنبياء البحرية والاستعمار الإمبريالي، واعتبر في فرنسا كرجل قد أعاد إحياء المبادئ العسكرية السليمة المنطقية لـچوميني وكلاوزيـڤتز والتي نسيتها المدرسة الفرنسية الفنية تمامًا، وكان إصراره على المعركة وعلى أهمية القوة المنظمة تصحيحًا ضروريًا لمبالغة المدرسة الفرنسية في تقدير المستحدثات الفنية ولاستنادها للآمال في

الحصول على نصر رخيص قليل التكاليف بمهاجمة الأغراض غير العسكرية فقط، وكان من الممكن أن تنتهي عقيدتهم لا تخجل لمهاجمة الضعيف، ولا تخجل من الفرار من القوى بانهيار معنوي كامل، ولكن ماهان من الناحية الأخرى أشار إلى العمليات الهجومية الدفاعية التي قامت بها السفن الهولندية بأنها السياسة الصحيحة التي يجب أن يتخذها أسطول أقل عددًا، فالسفن الهولندية لم تغفل قط عن الأسطول الإنجليزي ولكنها عملت لأن تحطمه في أجزاء بحشد استراتيجي يحسن إعداد الوقت الصحيح له.

وقد زاد البخار من الفرص لعمليات هجومية من هذا الطابع يحسن إعدادها، ولقد أشار أنصار ماهان بأنه حتى إذا كان تدمير السفن التجارية هو الغرض الأولى فلقد كان من الضروري دعم هذه الهجمات على قوة المعركة في الأسطول البريطاني، وفشلت الأدلة التي قدمها ماهان نتيجة لدراساته التاريخية لإثبات أن تدمير السفن التجارية لم يكن عملية ناجحة إطلاقا، فشلت في ثني المدرسة الفرنسية عن آرائها فقد بقي أنصار تلك المدرسة يعتقدون بأن المشكلة هي أن الظروف قد تغيرت ولكن المبدأ في حد ذاته سليم منطقي، وهكذا بقوا يؤمنون بأن التغييرات الفنية يمكن أن تغير المبادئ العسكرية والاستراتيـجية البحرية(١).

❋ ❋ ❋

وكانت وسائل بسمارك لزيادة الضغط على القوة البحرية الكبيرة التي

---

(١) كان أهم أنصار ماهان في فرنسا هما: جبرييل داريوس صاحب كتاب War on the Sea طبع آنا بوليس سنة ١٩٠٩، ورينيه داڤيلوي Réne Daveluy الذي كتب L'esprit de la guerre navale في ثلاثة مُجلدات طبع باريس ١٩٠٩ – ١٩١٠، وكان زعيم الاستراتيـجية البحرية الإيطالية هو جيوڤـني سيتشي Giovanni Sechi الذي كتب Elementi di arte militare maritima طبع ليجهورن في مجلدين (١٩٠٢ – ١٩٠٦).

توافرت لبريطانيا وسائل سياسية، وقد أغفلت الكثير من الهيئات البحرية في العالم هذه الوسائل، ولم تدعم هذه الوسائل النظريات الخاصة بالسيادة إلى القوة البحرية لتكشف عن أن الإمبراطورية البريطانية في سنة ١٨٨٠ تملك أسطولًا يساوي جملة أساطيل باقي دول العالم مكتملة، ولكنها أعطت بسمارك الأرض التي يحتاج إليها لتقوم عليها دعوته لحصول ألمانيا على مستعمرات، وكان من الطبيعي أن يفشل ماهان كأمريكي في سنة ١٨٨٠ في تفهم العلاقة بين الدبلوماسية وبين السياسة البحرية، وأن يفهم توازن القوى في أوروبا، كانت ملاحظاته عن الدبلوماسية معنية العناية كلها بالحصول على القواعد البحرية، كان يستطيع أن يقدر تقسيم الصين، وكان تواقًا لأن تحصل أمريكا على مركز طيب في خضم هذا التقسيم الذي يجري في العالم.

على أن مخاوف الولايات المتحدة من اعتداء ألمانيا في البحر الكاريبي قد دلت كما دلت بعض المظاهر في الدبلوماسية الأمريكية المكشوفة على قلة التقدير للنظام الأوروبي. وفي الواقع أن الرواد الأولين هم وأبناء جيلنا الحاضر كانوا أكثر تجربة من الأمريكيين الذين عاصروا ماهان؛ وكانت أهمية البحرية البريطانية في وقف الاعتداء العسكري الأوروبي سنة ١٨٢٠ على العالم الجديد هي نفس الأهمية التي كانت للبحرية البريطانية في سنة ١٩٤٠ للغرض نفسه، ولكن فكرة كون الأسطول البريطاني هو الخط الأول للدفاع عن الولايات المتحدة من النادر أن تكون قد برزت بالقدر الكافي في جدل ماهان ودعوته للصداقة الأمريكية – الإنجليزية.

على أنه من الضروري ألا ننسى قط أن أسلوب بسمارك للضغط السياسي يمكن أن ينجح فقط في الأهداف الصغيرة، على حين أن بريطانيا

كانت تواجه تهديدًا في ميادين أخرى بأعداء أكثر خطورة، وكان من الضروري أن تتوازن مطالبته المُعتدلة نسبيًا بالمستعمرات مع التهديدات الرئيسية من فرنسا والروسيا في آسيا وفي البحر المتوسط، وكانت دبلوماسية بسمارك القائمة على الاغتصاب والسلب دبلوماسية ناجحة طوال اعتبار بريطانيا لفرنسا والروسيا كخصميها الرئيسيين اللذين ينافسانها في ميدان المستعمرات، وقد فشلت هذه السياسة عند ما بدأت بريطانيا تفكر في ألمانيا كخصمها الرئيسي، وكان هذا هو الخطأ الأساسي لتيربتز في صياغته لنظرية المخاطرة Riskogedanke، فلقد صاغ نظريته في وقتٍ كانت بريطانيا طواله في عُزلة تقف وحدها بين الحلف الثلاثي وبين الحلف الثنائي، وكان أسطوله للمخاطرة يحتاج إلى أن يكون قويًا بالقدر الكافي للحصول على توازن بحري بين بريطانيا وبين التحالف الفرنسي – الروسي، وكانت السيكولوجية الكاملة تنعكس في الدبلوماسية المُدرعة(*) للقيصر غليوم الثاني.

وعندما سببت مطالبة القيصر الألماني بالمستعمرات قيام اتفاقات بين بريطانيا والروسيا وفرنسا في ميدان الاستعمار، لم تغفل البحرية الألمانية البرنامج الذي أعده لهذا الموقف الدبلوماسي بخاصة، كان الأسطول الألماني من الناحية الفنية عند ذروة درجة الكمال، ولكن كان ضعفه يكمن في قيادته العليا، ذلك عندما ألغيت هيئة أركان الحرب من الأسطول الألماني لإعطاء الإمبراطور غليوم سيطرة شخصية على السياسة البحرية أضحى الأسطول الألماني دُمية ملكية يلهو بها القيصر الإمبراطور، ويجب ملاحظة أن هيئة أركان الحرب للجيش الألماني قد أنشئت لغرض واحد هو منع الإمبراطور من فرض سيطرته على الجيش، ولم تكن لدى الإمبراطور فكرة

(*) يقصد الدبلوماسية التي تستند إلى البوارج. (المترجم)

في سنة ١٩١٤ عن الأسطول أكثر من الاحتفاظ به في الاحتياطي ليستخدمه للمساومة في مؤتمر الصلح وكوسيلة لعمليات اغتصاب جديدة.

ولم تكن للأسطول فكرة لغزو بريطانيا، ولا للقيام بسلسلة من العمليات لمهاجمة السفن التجارية الإنجليزية بل ولا حتى الحصول على سيادة إيجابية على بحر البلطيق، ولم يحاول الأسطول حتى تعطيل إنزال الحملة البريطانية على ساحل فرنسا، مع أن الجناح الأيمن للجيش الألماني كان هو حجر الزاوية في كل خطة شليڤن(*) بقي الأسطول الألماني ثاني أسطول في العالم لأربع سنوات كاملة يقوم بواجب واحد هو الدفاع عن الساحل الألماني، وهو واجب قام به الأسطول الألماني على أكمل وجه، على مثال ما فعل الأسطول الفرنسي ١٨٧٠، وعلى مثال ما كان من الممكن أن يفعل الأسطول الألماني الصغير في سنة ١٨٨٠.

وكان ما أصاب الأسطول الألماني في سكابافلو سنة ١٩١٩ هو النهاية الحتمية له، ولقد بقي تيربتز لعشرين سنة يبني البارجة إثر الأخرى، وفي النهاية كانت هذه السفن التي أُعدت لاغتصاب كل ما يمكن اغتصابه من المستعمرات البريطانية لا تزيد على ركام المعادن الذي انتهت إليه هذه السفن.

وفي سنة ١٨٨٠ فشلت حرب التنافس أن تكسب أنصارًا لها في ألمانيا، ويرجع هذا من ناحية إلى افتقار ألمانيا للقواعد الخارجية كما يرجع من ناحية أخرى إلى بُعد مسافة القواعد البحرية في ألمانيا نفسها، بعدها عن طرق التجارة الرئيسية لبريطانيا، وقد عطل هذا ألمانيا من إعداد الغواصات التي

(*) راجع الفصل الثامن من الكتاب الثاني "رواد الاستراتيـچية".

يمكن أن تدمر السفن التجارية كما أوضح الإيطاليون اهتمامًا قليلًا بهذا اللون من العمليات، ويبدو أن موقف ألمانيا كان قد تحسن عندما جاءت فعلًا حرب الغواصات، وهذا عامل يجب تذكره عند ما نحاول نقد فشل الإنجليز في مواجهته[1]، فإن الحملات النازية في النرويج وكريت وإفريقية لهي تضاد واضح لسياسة أسطول أعالي البحار في السنوات من ١٩١٤ إلى ١٩١٨.

والواقع أن الأسطول الألماني القديم باكتشافه متأخر عمليات تدمير السفن التجارية بواسطة الغواصات، وفشله في تطور سياسة نشاطه في البلطيق قد كشف بوضوح تفهمه غير المؤكد للآراء الأساسية للمدرسة الفرنسية الفتية.

والواقع أنها لمسألة جدلية تصلح أساسًا للبحث والنقاش، مسألة ما إذا كان من الصحيح أن الأسطول الذي أوصت المدرسة الفرنسية ببنائه كان سيكون أقل تهديدًا للإنجليز مما كان أسطول أعالي البحار؛ وعلى أية حال فإن الإنجليز كانوا – على الأقل – في سنة ١٩٣٥ راغبين كجزء من سياسة التهدئة، في توقيع اتفاقية دولية يقبلون فيها العودة للطابع القديم للأسطول[2].

على أن الوسيلة لوضع الضغط على بريطانيا كانت هي التي أوجدت الحاجة إلى القوة البحرية عن طريق السيطرة على المناطق البرية الاستراتيـجية وقد رأى ماهان أن العامل الأكبر أهمية في أمريكا التي

(١) يبدو أن هناك القليل من الأسباب الإيجابية للشك في البيان الرسمي للأميرال سبندلر في كتابه: Spindler, Der Handelskrieg mit U-Booten (Berlin, ١٩٣٢) Vol. ١ p. ٨.

(٢) كان القبطان لوثر بيرسيوس من أعنف نقاد المدرسة الفرنسية ضد سياسة تيربتز، ومن الصور التي تُطابق نقده ما جاء في كتاب: Warum die Flotte versagte (Leipzig, ١٩٢٥).

تُعاصره هو قيام إمبراطورية ذات كفاية ذاتية صناعيًا، ولكن كان هذا بالنسبة إليه مُجرد بداية فهو ينتظر اليوم الذي تستطيع فيه أمريكا المتوافرة الصناعة أن تصدر السكان بدلًا من أن تستوردهم، ولقد يمكن أن تبدو آراؤه عن العمل للحصول على مستعمرات وكأنها قد جاءت في الوقت غير المناسب على أساس أنها جاءت في السنوات التي كان رجال الأعمال الأمريكان يعملون طوالها لتطوير الأساليب والوسائل الأمريكية لاستغلال القارة.

على أنه من الصور المماثلة التي تثير الدهشة أن فردريك راتزل الألماني الرجل الذي أوجد علم الـچيوبوليتيكا كان يرى أن البحر هو المصدر الرئيسي لعظمة الأمة، على حين كان الجغرافي الإنجليزي ماكيندر يبرز أهمية التطورات التي تمت في النقل البري في القرن التاسع عشر، على أنه كانت كل الأمم حتى الروسيا تندفع – في خضم اندفاعها نحو القوة البحرية – تندفع نحو حربين عالميتين مُدمرتين وإلى انهيار كامل لنظم الملكية القديمة.

وفي سنة ١٩١٤ كان ماهان قد حقق في قارة أوروبا شعبية له تماثل ما حققه من شعبية في بريطانيا وأمريكا واليابان، وكان كل ما تحتاج إليه هذه الشعبية هو تقبل الأسطول الألماني لآرائه ذلك لأن الأساطيل الإيطالي والروسي والفرنسي كانت في ذلك الوقت تقف إلى جانب بريطانيا إما كأنصار لها فعلًا وواقعيًا، أو على الأقل من المحتمل أن تكون كذلك.

وقد ضعفت المدرسة الفتية وقل نفوذها في فرنسا حتى أنها لم تعد شيئًا أكثر من مجرد جماعة عسكرية تتفق على رأي واحد(*) تدعو باستمرار

(*) في الأصل كلمة "Sect". وهي تعني الجماعة من الناس التي تتبع كنيسة خاصة قائمة. معجم ويبستر طبعة سنة ١٩٥٦ ص ١٣١٧.

للعقيدة التي تُبشر بها دون أن يكون لهذه الدعوة غير أثر قليل في السياسة البحرية الفرنسية، وكان إغفال هذه المدرسة لكثير من المبادئ العسكرية الأولية هو الذي سبب انهيار نفوذها وضياع مكانتها.

ونسي الناس في غمرة سخريتهم من مقترحاتها التكتيكية أن أوب وأنصاره كانوا هم أول من قاموا بتحليل الكثير من المسائل المهمة في الحرب البحرية الحديثة، وكانت المدرسة الفرنسية البحرية الفتية قد انغمرت في خضم المشكلات السياسية مما كان له النتائج الضارة التي تحدث عادةً عندما تسهم في السياسة هيئات فنية من غير السياسيين، وقد حطم الوزير الراديكالي كاميل بيليتان الأسطولي الفرنسي والمدرسة الفرنسية الفتية عندما حاول القيام بعملية تطهير واسعة النطاق داخل الأسطول لإقصاء أنصار العقائد المضادة للعقيدة التي تبشر بها المدرسة الفتية وفسرت هزيمة (الروسيا) حليفة فرنسا، في الحرب الروسية اليابانية على أنها دليل على صحة آراء ماهان، وقد عني عدد قليل من الكتاب – عدا ماهان – بأن يجهدوا أنفسهم بدراسة العناصر المهمة للاستراتيـﭽية اليابانية، فلم يكن الطوربيد واللغم قد سموا إلى حد الآمال المبالغ فيها لأولئك الذين يُسرفون في تقديرها وإن كانا، ولا شك، قد دعما من مكانتيهما كسلاحين لهما أهميتهما الكبيرة في الحرب البحرية، وكانت هجمات الروس على السفن التجارية اليابانية عمليات (غير ناجحة) لم تحقق نجاحًا، وكان الاعتقاد السلبي للأسطول الروسي بالنسبة لأهمية عمل الأسطول كله كمجموعة واحـــدة اعتقادًا ضارًا على مثال ما حدث في تاريخ متأخر من نفس هذه الناحية في ألمانيا، وكان هذا أيضًا اختراقًا كبيرًا للمبدأ الذي وضعه ماهان عن الهجوم الإيجابي



أكتوبر ١٨٥٥

الأسطول البريطاني في البلطيق يُلقي مراسيه في جزيرة كوتلين على الطريق إلى (بتروغراد) لنينجراد ، فيما بعد .

الذي تقوم به قوة ضعيفة ضعفًا موقوتًا من الناحية العددية[١].

وكان اضمحلال وضعف حيوية المدرسة الفرنسية سبب الفشل العام في السبق بتقدير الإمكانيات الاستراتيـچية للسلاح الذي طغى على أي شيءٍ آخر: سلاح الغواصات، السلاح الذي كان أمل كل أعداء بريطانيا من فولتون Fulton إلى دوبوي دو لومي Dupuy de Lome وكان هذا التنافس الذي انتهى بأن أنتج الفرنسيون أول غواصة حققت نجاحًا عند تجربتها قد بدأ به أوب نفسه، ولكن الواقع أنه عندما ظهر فعلًا هذا السلاح (الهام) الحاسم الأهمية لم يكن له من أثر في الاستراتيـچية البحرية اللهم إلا الأثر القليل من الناحية النظرية البحتة، وحتى الفرنسيون فإنهم قد اعتبروا الغواصة قاربًا من قوارب الطوربيد يستطيع الغوص تحت سطح الماء، وأحست المدرسة الفرنسية الفتية بالمهانة للعنف الذي صبغت به كل ما زعمته عن خاصيات الغواصة، (ويستطيع كل الذين اتبعوا نظريات دوهيه أن يُلاحظوا صورة مماثلة لهذا، فعند ما أوشكت قاذفة القنابل المقاتلة أن تخرج إلى الوجود فقدت نظريات دوهيه جديتها بسبب إسراف أنصاره الصحفيين في صياغة الأساطير عنها، ومن ثم فإن هذه القاذفات لم تستخدم في الأغراض الاستراتيـچية التي قدرها لها إلا بعد وقت طويل).

وكان أكثر المفكرين البحريين أصالة في الفترة التي سبقت الحرب مباشرة الإنجليزيان فريدت چان وچوليان كوربيت[٢] وكعدد آخر من

---

(١) Réne Daveluy, La lutte pour l'empire de la mer (Paris, ١٩٠٦).

(٢) كان أهم كتابات فريدت، چان كتابه: Heresies of Sea Power (London, ١٩٠٦) وأهم مؤلفات چوليان كوربيت عن نظريات ماهان كتابه: Some Principles of Maritime Strategy (London, ١٩١١).

الكتاب الإنجليز[١] أخذ هذان الرجلان مناقشات المدرسة الفتية الفرنسية مأخذًا جديًا، وقد أكد چان وكوربيت أهمية قارب الطوربيد ثم بعد ذلك أهمية المدمرة في تحديد عمل الأسطول الكبير، واتفق الرجلان مع (أوب) في أنه من المحتمل أن يكون الحصار القريب المدى عملية مستحيلة وذلك بسبب الأنواع الجديدة من السفن.

وقد أعطت دراسات كوربيت عن الجوانب الدبلوماسية والعسكرية للحروب الكبيرة في عصر استخدام السفن ذات الشراع، أعطت صورة أكثر اكتمالًا من الصورة التي قدمها ماهان، وانتعش اهتمام الناس بدراسة العمليات المشتركة، العمليات العسكرية والعملية البحرية المرتبطة معًا.

وشعر كوربيت أن الوقاية غير المباشرة للتجارة يمكن أن تكون أصلح وأفضل بالاستيلاء على قواعد العدو واحتلالها، وما لم يتم هذا – وقد اتفقا في الرأي مع كوربيت – ما لم يتم هذا فإن وقاية التجارة البريطانية ستكون مسألة صعبة مُحيرة، ومن حُسن الجد أنه كان من الممكن حصر بريطانيا حصارًا غير مباشر من مدى أبعد من مرمى الطوربيد، وبدأ الأسطول الذي كان يزعم علانية بأن حدود عمله تقف عند سواحل العدو، بدأ يكسب حربًا في أماكن تبعد كثيرًا عن مرامي قوارب الطوربيد التي للعدو، وقد كان احترام الأساطيل لقوارب الطوربيد كبيرًا إلى حد أن هذا الإقدام قد عطل العمل التكتيكي للأساطيل.

وقد أغفل الإنجليز دراسة عقائد المدرسة الفتية الفرنسية والتي كان يجب أن يدرسوها، وقد رفضوها على أنها أدلة ضعف لا علائم قوة، ولكن

(١) أهمهم الأخوان السير چون كولومب والأميرال ب. هـ. كولومب.

القادة الألمان الفنيين الواقعيين كانوا على نقيض المُتحفظين من رجال الإمبريالية البريطانية.

وقد عنيت النظرية البحرية البريطانية منذ حرب ١٩١٤ – ١٩١٨، عنيت أساسيًا بالشئون التكتيكية، وقد وضح هذا من خوف الأسطول الكبير من هجمات قوارب الطوربيد في چتلاند، وفشل القيادة العليا من العمل بجرأة وقوة ضد تهديد الغواصات.

واتبع الأمريكان من أصحاب النظريات البحرية الطابع الإنجليزي بالرغم من أن نقدهم (الأمريكان) للقيادة البحرية البريطانية كان قاسيًا مرًا، وكالإنجليز تقبل الأمريكان آراء ماهان وكوربيت، وتأثرت النظرية الأمريكية عن سواحل العدو باللغم وبالطوربيد كما تأثرت في تاريخ حديث بعد هذا بالطائرة التي تخرج من مطارات برية وكانت جل النقاط الخاصة بالاستراتيـچية البريطانية والتي عرضت للنقاش والدراسة تاريخية الطابع(١).

ولم يدرك الإنجليز – مثلهم في هذا مثل الفرنسيين – قبل سنة ١٩٣٩ هذه الأخطار الكثيرة التي تواجهها الإمبراطورية، وكان تأهبهم الذهني لمواجهة خطر الجو في جملته أقل مما واجهوا به الطوربيد سنة ١٩١٤، ***والواقع*** أنه لم يضف أي استراتيجي بحري أوروبي جديدًا إلى مناقشة القوة الجوية والقوة البحرية، فقد وجهوا كل اهتمامهم بالمشكلات الخاصة بالباسيفيك (المحيط الهادي).

---

(١) عرضت حتى مؤلفات الرجل الكفء السير هيربرت ريتشموند للمشكلات الاستراتيـچية من الاتجاه التاريخي أيضاً.

وقد عنى الألمان – كما كان متوقعًا – بالكشف عن أسباب فشل الأسطول الكبير، وقد كررت مناقشتهم نفس الطابع الفرنسي لسنة ١٨٨٠، وقد جاءت هذه المناقشة متأخرة جدًّا عن الوقت الذي كان يجب أن تكون فيه، وفي وقت متأخر كذلك ردد الكثيرون من الألمان أصداء نقد وزارة الحرب في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى في مهاجمتها للفلسفة البحرية للقيصر الإمبراطور، وتوضح العقائد التي جاءت في كتاب كفاحي عن تحقيق الحصول على امبراطورية برية في الشرق، توضح إدراك هتلر المظهر المضلل الخداع للأسطول الإمبراطوري.

وقد أثبتت المحاولة الفاشلة التي قام بها الغرب للقضاء على الثورة الروسية إثر الحرب العالمية الأولى، كما أثبتت التطورات الواسعة في قوة الروسيا منذ ذلك التاريخ، أثبتت على الأقل للكثيرين من الـﭼيوبوليتيكيين أن القوة البحرية قد ضعفت من جديد وأن القوة البرية تستعيد مكانتها صاعدة إلى أعلى، وبدأ إذ ذاك أن محاولة تيربتز لإيجاد نسبة بين قوة الأسطول وبين حجم تجارة الدولة الخارجية محاولة ممجوجة لا تستند إلى منطق، فلا يمكن أن يحلم فرد بتقدير عدد طائرات وقوة السلاح الجوي على أساس النقل الجوي التجاري.

ولقد تبنى بعض الألمان آراء ونظريات المدرسة الفرنسية الفتية ولكنهم لم يضيفوا إليها الكثير، ولربما تكون فكرة الأميرال ڤيجنر عن الوثوب للشمال عن طريق النرويج[١] أهم ما جاء به هؤلاء الألمان من تقبلوا نظريات المدرسة الفرنسية ولكنهم حتى هذه الفكرة من ڤيجنر كانت

(١) Die Seestrategie des Weltkrieges (Berlin, ١٩٢٩).

رجوعًا بالأمر إلى أيام ترومب Tromb. ورويتر Rutyer[*] عن ما حاول إخفاء تحركات القوافل الهولندية بالإبحار سرًا وخلسة حول بيرجن[**].

ولقد وقف بعض الكتاب الألمان إلى جانب القيام بإغارات واسعة النطاق على سفن النقل التجاري مع القيام بعمليات هجومية بواسطة الغواصات، ولكن كانت عمليات البوارج الألمانية الصغيرة (بوارج الجيب) والمطاردات الثقيلة في الواقع عمليات قليلة القيمة، ولم يحقق الألمان نجاحًا ملحوظًا في عملياتهم بهذه السفن البحرية إلا في مهاجماتهم لسفن النقل الإنجليزية على مسافة من ساحل النرويج.

ونحن في الواقع لا نعرف الشئ الكثير عن خطط الألمان للغزو البري لبريطانيا، ولكن سرعة ونجاح عملياتهم في النرويج وفي كريت يوضحان أنهما لربما كانا قد قدرا شيئًا مثل هذا بالنسبة لغزو بريطانيا، ***والواقع*** أن القيادة الألمانية العليا قد عملت من بداية الحرب العالمية الأولى على تجنب تردد القيصر الإمبراطور، وسجل عملياتهم يدل على اقتناعهم بنظرية ماهان من أنه حتى الأسطول الصغير يستطيع أن يكبد العدو الأضرار الجسام نتيجة للعمليات الهجومية — الدفاعية النشطة.

على أنه من وجهة عامة يمكن القول بأن أكثر المؤلفات الأوروبية أصالة عن النظرية البحرية في السنوات التي تبعت الحرب العالمية الاولى

(*) رويتر، ميشيل أدريان ذون دي رويتير أميرال هولندي (١٦٠٧ – ١٦٧٦). معجم ويبستر ص ١٢٧٩ – المترجم.

(**) بيرجن Bergen ميناء بحري على الساحل الجنوبي الغربي للنرويج، سكانها ١٠٨.٠٠٠ كإحصاء سنة ١٩٤٦. معجم ويبستر ص ١٣٩ – المترجم.

جاءت من فرنسا وإيطاليا أكثر من أن تجئ من ألمانيا، كانت كلتا الدولتين معنيتين بالحرب البحرية في القنال الإنجليزي وفي الأدرياتيك، وبالأضرار التي يمكن أن يسببها الاستخدام الجيد المعني به حتى لأسطول صغير من سفن خفيفة، وكان البحر المتوسط أكثر صلاحية للاصطدام السريع بالقوات التي تخصص لأغراض معينة أكثر مما يصلح للمناورات التقليدية بالأساطيل الكبيرة كاملة العدد والعدد، وقد توقعت فرنسا وإيطاليا أنه في البحر المتوسط كما في المناطق الضيقة في الباسفيك الجنوبي يمكن أن تستطيعا استخدام البحر للقوافل العسكرية والتجارية التي تقضي الحاجة الملحة باستخدامها فيه، ولم تتوقع أيهما أن تحقق سيطرة كاملة على كل المنطقة، وقد أعدت كل من الدولتين لهذا اللون من القتال عددا كبيرًا من الطائرات التي تخرج من مطارات برية، كما أعدت مطارات كثيرة المدافع وبوارج ثقيلة، ولم تكن من حاجة إلى حاملات الطائرات ولا إلى الطائرات الكبيرة، ثم إن البوارج الثقيلة كان من الضروري أن تتوافر لها قدرة على تجنب الغرق إلى غاية ما يمكن.

وكان للأسطول الإيطالي لسنة ١٨٨٠ هو السلف السابق مباشرة للأسطول الإيطالي لسنة ١٩٣٠، وكان الهدف منه مازال هو التدخل بقوة بحرية كبيرة في البحر المتوسط، وحتى سنة ١٩٤٣ فشلت كل الجهود الإيطالية في هذا الواجب، ولكن الأسطول الإيطالي كان دائمًا عامل تهديد للقوافل العسكرية والقوافل التجارية الإنجليزية في البحر المتوسط، وقد استطاع بمعاونة الطائرات التي تستند إلى مطارات برية أن يحمي شبه الجزيرة الإيطالية المعرضة ضد عمليات إنزال للجنود لها خطرها، ولقد كان هذا من الناحية الجغرافية عملًا ناجحًا لاسيما إذا نظرنا إليه من وجهة النظر

لموقف إيطاليا الاستراتيجي. صحيح أن أسطول موسوليني قد فشل في كسب السيطرة على البحر المتوسط، ولكن ما من شك في أنه عطل تحركات الإنجليز في تلك المنطقة، ومن غير الممكن أن يكون أي استراتيجي إيطالي قبل ستين سنة قد أمل في شئ أكثر من هذا[١].

ومن المؤكد أن أكثر الاستراتيجيين البحريين الأوروبيين المحدثين طرافة هو الأميرال الفرنسي راءول كاستكس والذي تعتبر مجلداته الخمسة عن الاستراتيـچية البحرية ثمار حياة طويلة في التأليف[٢]، ويعرض كاستكس لسباقية Darrieus Daveluy أفضل دراسة لماهان وللمدرسة الفرنسية، وقد تجنب كاستكس في تعريفه للقوة البحرية والمبادئ العسكرية التي تستند إليها؛ تجنب كل ما لا يتقبله المنطق من نظريات المدرسة الفرنسية، وكان قد أدرك تمامًا أهمية السيطرة على البحر والحاجة إلى قوة منظمة لتحقيق هذا إذا أمكن، فلا تكسب الحرب بسهولة ويسر وبثمن بخس بل تكسب بالقتال لتدمير قوة العدو المنظمة.

ويتفق كاستكس وماهان على الأصول الأساسية للعلم العسكري اتفاقًا تامًا كاملًا، ولكنه في تحليله لظروف وأحوال الحرب البحرية الحديثة يتفق مع آراء المدرسة الفرنسية الفتية لا مع آراء ماهان، فقد كان يرى ما رآه أوب من أن مكانة بريطانيا تنهار تدريجيًا، وأن القوة البحرية ستلعب دورًا

---

(١) أهم ما هو معروف من المؤلفات الإيطالية الحديثة:

Romeo Bernotti, La guerra maritma, studio critico sull' impiego dei mezzi nella guerra mondiale (Florence, ١٩٣٢);

G. Fioravanzo, La guerra sul mare e la guerra integrale (٢ Vols., Turin, ١٩٣٠ – ١٩٣١);

Oscar di Giamberardino, L'arte della guerra in mare (٢ Vols., Rome, ١٩٣٧).

(٢) Théories Strategiques (٢ nd, ed. ٥ Vols., Paris, ١٩٣٧).

أقل في المستقبل، أقل مما لعبته في عصر السفن ذات الشراع، وقد أكد كاستكس كغيره من أصحاب النظريات من الفرنسيين والإيطاليين ضعف القوة البحرية المهاجمة من ناحية الوقت والمسافة، ورأى أن الحصار البحري المستمر يجعل القوة البحرية أقل تأثيرًا من ناحية الوقت، وأن الغواصة والهجوم الجوي قد حددا عمل الأسطول من ناحية المسافة وذلك بمنع الأسطول من النفوذ إلى مياه ساحلية معينة، وهكذا كانت القوة البحرية في هذا العصر – على ما اقتنع چان قبل ثلاثين سنة – أكثر اعتمادًا في أمنها على القواعد البرية.

وقد عني المجلد الأول من كتاب كاستكس بالمحاولة التي لا أمل فيها للدفاع عن الهند الصينية ضد اليابان، وقد دعا منذ سنوات طوال إلى أنه ليس من الضروري فقط إخلاء الهند الصينية بل وإخلاء حتى سورية وحتى مدغشقر عندما تواجه فرنسا عمليات هجومية لها خطرها.

وكانت هذه الظاهرة الجديدة، ظاهرة عدم قدرة الدول الكبيرة على المحيط للدفاع عن ممتلكاتها فيما وراء البحار، عاملًا جديدًا يحد من مكانة القوة البحرية.

وقد أوجد كاستكس في مؤتمر واشنطون شعورًا غريبًا بمذكراته التي وافق فيها على عمليات الغواصات الألمانية، وبقي هو وغيره من الاستراتيجيين الفرنسيين يعتبر عمليات الغواصات أعظم تهديد خطر يمكن أن تتعرض له بريطانيا.

ومع أن أغلب البحريين الفرنسيين لم يتحدثوا بصراحة في الموضوع كما تحدث كاستكس فإن نظريات المدرسة البحرية الفرنسية ونظريات حرب

التنافس التجاري لا تزال تلقى تعضيدًا قويًا في الأسطول الفرنسي، وكان بناء الغواصة العملاقة سوركوف دليلًا واضحًا على بقاء هذا الاتجاه.

وكان الإيطاليون أقل من الفرنسيين والألمان تقديرًا لإمكانيات حرب الغواصات، ومن أجل هذا بل ولأجل كل لون آخر من ألوان الحرب البحرية كان موقفهم الاستراتيجي صعبًا إن لم نقل بأنه لا أمل فيه.

وأخيرًا فقد تأثر كاستكس أيما تأثير – وكان مثله في هذا مثل الألمان – تأثر بحقيقة أن القوى البرية، الدول التي تستند إلى القوة البرية، قد نجت من ضغط القوى البحرية في مناطق مثل الروسيا والصين.

وقد وقف كاستكس مُجلدًا كاملًا لدراسة الصراع بين القوة البرية والقوة البحرية، وكانت تتضح له في دراسته أوجه التشابه بين عصر چانكيز خان وعصر ستالين، ولربما كان هذا يرجع من ناحية إلى آمال فرنسا التقليدية من تحالفها مع الروسيا ذلك لأن أميرالًا فرنسيًا واحدًا – على الأقل – قبل دارلان، قد نصب تمثالًا نصفيًا لستالين وقال عنه أنه الرجل الذي سُينقذ فرنسا مُستقبلًا، ولعل الرجل كان قد أوتي نصيبًا من صواب الرأي ودقة التقدير.

***

حديث المراجع:

الفصل الثامن عشر

العقائد القارية للقوى البحرية

بقلم تيودور روب

كحديث عام يمكن الرجوع إلى:

Jean Grivel, De la marine militaire considerée dans ses rapport avec le Commerce et avec la défense du pays (Paris, ١٨٣٧).

Richard Grivel, De la guerre maritime, avant et depuis les nouvelles inventions (Paris, ١٨٦٩).

وجريـڤال الأب والابن من أعظم رواد البحث في المدرسة الفرنسية للاستراتيـچية البحرية، على أن أهم أعمال زعيم هذه المدرسة هو:

Admiral Théophile Aube, A terre et à bord, notes d'un marin (Paris, ١٨٨٤).

Gabriel Charmes, La reforme de la marine (Paris, ١٨٨٦).

والكتاب الثاني دراسة جيدة لكاتب من أهم مؤلفي المدرسة الفرنسية؛ على أن أهم أنصار ماهان من الفرنسيين كانا:

Gabriel Darrieus, La guerre sur mer (Paris, ١٩٠٧).

René Daveluy, l'esprit de la guerre naval (٣ vols, Paris, ١٩٠٩ – ١٩١٠).

والدراسات الفرنسية القيمة عن الاستراتيــچية البحرية الفرنسية والتي صدرت قبل الحرب العالمية الأولى هي:

A. Gougeard, La marine de guerre, son passé et son avenir (Paris, ١٨٨٤).

Commandant Z. (Paul Fontin) and H. Montechant (J. H. Vignot), Les guerres naval de demain (Paris, ١٨٩١).

وأهم المؤلفات الفرنسية الحديثة عن الاستراتيــچية البحرية هي كتاب:

Raoul Castex Théories: stratégiques: (second edition ٥ Vols, Paris, ١٩٣٧).

ومن الألمان الذي يعتبرون من أتباع المدرسة الفرنسية نجد كتاب:

Lother Persius, Wàram die Flotte versagte (Leipzig ١٩٢٥).

وأهم المؤلفات الألمانية عن استراتيــچية الحرب العالمية الأولى:

Wolfgàng Wegener, Die Seestrategie des Weltkirges (Berlin, ١٩٢٩).

Paul Sethe, Die ausgebliebene Seeschlach: die englische Flottenfuhrung, ١٩١١ – ١٩١٥ (Berlin, ١٩٣٢).

والكتاب الثاني تحليل لأسباب عدم نشاط الأسطولين الكبيرين في أثناء الحرب:

وأهم المؤلفات الإيطالية:

Domenico Bonamico, La Strategia naval nel Secolo XIX and Il

dominio del mare del punto di vista italiano Rivista Marittima (١٨٩٩ and ١٩٠٠).

Giovanni Sechi, Elementi di arte militare marittima (٢ Vols., Leghorn, ١٩٠٣ – ١٩٠٦).

Romeo Bernotti, Là guerra mirittima, Studio critico Sull impiego dei mezzi nella guerra momdiale (Florence, ١٩٢٣).

Oscar di Giamberardino, L'arte della guerra in mare (٢ Vols., Rome, ١٩٣٧).

G. Fioravanzo, La guerra sul mare et la guerra integrale (٢ Vols., Turin, ١٩٣٠ – ١٩٣١).

❊ ❊ ❊

الفصل التاسع عشر

استراتيجية اليابان البحرية

بقلم ألكسندر كيرالفي

تعتبر دراسات الفكر البحري الياباني كالمناطق المجهولة التي لم تذرعها أقدام الرحالة المستكشفين، ولم ترفع سجف الغيب عن أبهائها وممراتها، ميدانًا من ميادين البحث جعلته عوامل جغرافية خاصة، كما جعله ثقل يد السياسة المقومة أعمق وأبعد غورًا من أي ميدان آخر، ومن ثم كان من الضروري أن يسلك الباحث سبلًا جديدة غير التي اعتاد أن يسلكها لعلاج الموضوعات العسكرية والبحرية في أي ميدان آخر، إلى حد أنه كان عليه أن يتقبل الكثير من مراحل النظرية البحرية اليابانية كما هي كلها، أو أن يغفلها كلها، على خلاف ما يحدث عندما يبحث العقيدة البحرية لدولة من الدول البحرية الأخرى.

ولمثل هذا الاقتراب الدراسي أهميته الخاصة عندما ندرك أن الفكر البحري الياباني يختلف اختلافًا بينًا عن قرينه في العالم الغربي، ولا يمكن أن توصف الآراء اليابانية عن القوى البحرية، ولا أن تعرف بأسلوب المصطلحات الفنية العادية، وقد أسيء في الغالبية تفسير لُب استراتيـچية وتكتيكات طوكيو بسبب أن الذين بحثوا هذا من غير اليابانيين قد تأثروا بالآراء الغربية، وكان من الطبيعي أن الباحثين عن هذا في الولايات المتحدة وأوروبا يدرسون الاتجاهات والنوايا اليابانية طبقًا للأصول التي تُعتبر منطقية معقولة في بلادهم، على حين أن الكثير من هذه الأصول الغربية إما

أنها لم تخطر للعقل الياباني قط، أو أن تكون قد تركت جانبًا وأغفلت، لأنها لا يمكن أن تطبق في الشرق الأقصى.

وهكذا نستطيع أن نقول بأن عمل المفكرين من غير اليابانيين لا يمكن أن يُعطي صورة صحيحة للفكر البحري الياباني، ولايمكن كذلك أن تعرض تقديرًا غربيًا وتفهمًا صحيحًا للنشاط البحري الياباني، كما أنه – في الواقع – لا يوجد مثل هذا اللون من الدراسات الصحيحة المنطقية.

ومعنى هذا أن أساليب اليابانيين للقتال في البحر قد ووفق أو لم يوافق عليها تبعًا لمدى انطباقها أو عدم انطباقها على العقيدة الغربية. ويوجه النقد عادةً للناس لا للمبادئ، وهكذا كانت العادة اعتبار اليابان – بالنسبة للطابع الأمريكي أو الأوروبي – دولة بحرية مستقيمة الاتجاه في صلابة وقوة وعنف، واعتبار أمراء البحر اليابانيين أنهم يعملون طبقًا للأسلوب وفي نفس الاتجاه، ومن ثم يُلام أميرال ياباني لأنه سار طبقًا لنظام العمل الذي أملته عليه حكومته والتي كانت بدورها تضع موضع التقدير والاعتبار الأحوال الجارية في الشرق.

وهكذا كانت أوجه الخلاف أو التباين بين التفكيرين الياباني والغربي غامضة مُبهمة في ضوء الدراسات الفردية التي قام بها الكُتاب الغربيون، وكانت العادة أن يصحب النقد بالقول بأنه ربما كان العمل الذي ينقد صحيحًا في ضوء الأوضاع الخاصة التي كانت قائمة يوم ذاك، ومن ثم كانت الدائرة تدور في هذا التوجيه، فإذا فشل أميرال ياباني في منع فكاك أسطول العدو بسبب انشغال الأميرال بحراسة سفن نقل الجنود فسر هذا على أساس أنه كان على الأميرال واجب حراسة سفن النقل. ولذلك فهو لا يستطيع منع فرار أسطول العدو.

وفي ضوء تقدير النظريات الغربية من وجهة نظر طوكيو بدأت الأمم تعتمد في بحوثها على تقبل أن الأسطول الياباني يعمل دائمًا بطابع تقليدي، فمثلًا يعمل دائمًا للوصول إلى اشتباك حاسم لأول فرصة تسنح له، على حين أن هذا كان دائمًا الشيء الذي لا يريده الأميرال الياباني.

ولو كانت السلطات الغربية قد تحرت واستطلعت النظرية اليابانية لا الإجراء الياباني، ولو كانت قد تقصت الأصول اليابانية لا أولئك الذين اتبعوا هذه الأصول لكانت قد ألقت بالكثير من الضوء على موضوع البحث.

والواقع أنه كان من الصعب اتباع مثل هذه السبيل في الولايات المتحدة وبريطانيا؛ فالناس في هذه البلاد أو تلك – تبعًا لكراهيتهم الاحتفاظ بجيوش كبيرة العدد – اعتمدوا اعتمادًا كاملًا على سفن الأسطول بأمل هزيمة أعدائهم في البحر، ولم يكن في استطاعتهم أن يتقبلوا أي نقاش جدلي يستهدف إيضاح إمكان مقابلة اليابان بقوة في جبهات برية بعيدة. ومع هذا فلم يكن ثمة معدى من هذا القرار النهائي عندما ندرس العوامل العادية التي ترتبط بالقوة البحرية، وعندما ندرك الخلاف والتباين بين النظريات اليابانية والنظريات الغربية.

وتستقر العوامل العادية في الآراء الغربية عن القوة البحرية من دراسة النظريات البحرية للولايات المتحدة وبريطانيا من جانب، وللدول الأوروبية الأقل قوة في البحر من جانب آخر؛ ففي العقيدة الإنجليزية الأمريكية تحتل المعركة البحرية الحاسمة وضغط الحصر البحري المكانة الأولى، ولكن في فرنسا ثم في ألمانيا بعد ذلك تركز الاهتمام حول تدمير الأسطول التجاري وإضعاف أسطول العدو بعمليات ثانوية، وباستخدام

أسلحة خاصة مثل الطوربيد والقنبلة، وبالاعتماد على التكتيكات التي يمكن أن تؤدي إلى تدمير الأقسام المنفصلة المتوزعة من قوات العدو الكبيرة العدد.

ومع أن وسائل الغرب في الحرب البحرية تجمع بين التكتيكات التي تستخدمها الدولة التي تتوافر لها القوة الأكبر وتلك التي تستخدمها الدولة التي لا يتوافر لها إلا القوة الأقل(*) ، مع هذا فإن كل النظريات للقوة البحرية كانت موضع نقاش ودراسة واسعين في كل بلاد أوروبا وأمريكا، وخرجت إلى الضوء مؤلفات كثيرة عنيت بدراسة الدفاع كما عنيت بدراسة التطورات المؤدية للمعركة الحاسمة.

وأطلق إعلان الحرب، الحركة في عدد من القوى كانت واضحة مفهومة، وفي سنة ١٩١٤، وفي سنة ١٩٣٩ أيضًا، اتخذت مجموعات سفن المطاردة الإنجليزية مواقعها المُحددة المُقدرة من قبل في ضوء اعتزام الألمان القيام بمهاجمة سفن النقل الإنجليزية التي تجيء بالمتاجر من وراء البحار، وفي كلتا الحربين عملت البوارج الإنجليزية لاجتذاب أسطول العدو للمعركة الحاسمة، وعندما قامت الأزمة في المحيط الهادي أرسلت القوة البحرية الأمريكية إلى جزر هاواي وأمرت بالتأهب للمعركة تبعًا لمجرى الحوادث، وفي كلتا المناسبتين فرض الحلفاء حصرًا بحريًا، وخطوا الخُطى المؤدية لتدمير السفن التي تُغير على سفن نقل التجارة.

***

(*) يُقصد هنا أن النظريات التكتيكية تبعاً لمرونتها واتساع آفاقها تمكن من العمل عند ما تكون الأفضلية في جانب الدول التي تتوافر القوة الأكبر في جانبها، كما تسمح لها بالعمل إذا لم تكن الأفضلية في جانبها، وكانت هي الدولة الأقل قوة. (المترجم).

وقد يبدو في التحليل الأولى أن هذه النظريات الواسعة المدى تتعارض مع النشاط البحري لليابان، ففي الحرب اليابانية ضد الصين (١٨٩٤ – ١٨٩٥) وفي حربها ضد الروسيا (١٩٠٤ – ١٩٠٥) أوضحت اليابان أنها تهدف لخوض غمار معركة بحرية حاسمة، ولكن في هاتين الحربين وفي حربها ضد الصين – الحرب التي قامت واستمرت دون ما إعلان للحرب – أوضحت اليابان أنها قد فهمت أهمية الحصر البحري، ولكن في الصراع الرتيب الذي بدأ يوم ٧ من ديسمبر ١٩٤١ لم تتجنب اليابان القتال بالأسطول فحسب، بل ويبدو أنها قد فعلت القليل في الحصر البحري أو ضد الحصر البحري؛ ومع هذا فإننا لو تتبعنا نشاط اليابان في سنة ١٩٤١ – ١٩٤٢ مرتبطًا بأعمالهم السابقة لاستطعنا أن نرقب عددًا من الأصول التي لها أهميتها وبخاصة عند ما تُقارن بأعمال أخرى لها صلاتها بتاريخ اليابان وبسياستها القومية.

والعائق القوي الذي تلقاه في هذا النقاش الجدلي حول اتجاهات النشاط البحري الياباني هو أننا عبثًا نحاول الوصول إلى صياغة كاملة للنظرية اليابانية عن القوة البحرية من قلم كاتب ياباني ذي شهرة يمكن أن تدلل أو تُبرهن على هذه الأصول التي نقدرها نحن نتيجة لدراستنا المقارنة.

ولما كانت الفكرة عن الاستخدام للقوة البحرية إنما تخرج في الغالبية من التسجيلات ومن التحليل للنشاط البحري، كان من الأهمية أن نذكر هذا النقص، وكان هذا النقص بدوره يستحق التعليق.

وترجع أسباب نقص هذه المؤلفات إلى عوامل سيكولوچية وإلى أخرى سياسية؛ فمن الناحية السيكولوچية يمكن أن نصف العقل الياباني بأنه عقل موضوعي لا تصوري أي عقل يعمل تبعًا لموضوع قائم فعلًا؛ وفي

وقت السلم يستطيع أي كاتب أمريكي أن يُناقش ويدرس ويبحث مشكلات الحرب في المحيط الهادي، كما يستطيع أي باحث بريطاني أن يكتب عن الأسلوب الصحيح للقيادة في البحر المتوسط، ويمكن لأيٍ من الاثنين أن يكتب بحثًا ضافيًا تفصيليًا يفترض فيه قيام الحرب بين فرنسا وإيطاليا أو بين ألمانيا والروسيا، ولكن الياباني على العكس لا يُعنى إلا بما يهمه مباشرةً؛ وعلى حين أن الباحث الغربي يطرق في بحثه الأسلوب الأكاديمي مركزًا كل اهتمامه على العوامل البحرية وحدها؛ فإن الكاتب الياباني يجد أن من الصعب أن يتخلص من ضغط مؤثرات السياسة القومية على كل ما يعرض له بالبحث والدراسة، وكقاعدة تكشف عن حقيقة هذا فإن اليابانيين لم يستطيعوا بحث الموقف في جزيرة چوام(*) دون ذكر أنها مثار تهديد لبلادهم وأنها تشكل خطرًا يجب إزالته.

ولقد اعتبر – من الناحية السياسية – أن إصدار أي مؤلفات جدية تكشف عن النظريات التي تتقبلها اليابان وتستخدمها يتعارض مع السياسة اليابانية، وسندرك في صفحات قادمة أن التخطيط البحري الياباني كان موجهًا ضد مناطق معينة وضد أعداء مُعينين وأنه كان تخطيطًا اعتدائيًا.

ولما كانت البلاد المُقدر أن تكون ضحية للاعتداء الياباني تقدر الكلمة المطبوعة كان من الممكن أن تثير الدراسات المطولة التي تصف الأسلوب والوسائل التي ستستخدمها اليابان يوم .. وبعد يوم .. ٧ من ديسمبر سنة

(*) چوام Guam إحدى جزر ماريانا في الباسفيك الغربي – محطة بحرية، مساحتها ٢٠٦ أميال مربعة، سكانها ٥٩.٠٠٠ عاصمتها آچانا، وهي حالياً القاعدة الأساسية لقيادة القوة الجوية الاستراتيـچية وتخضع إدارياً لوزير داخلية الولايات المتحدة (ويبستر ص ٦٤٢، ذي وورلد الماناك سنة ١٩٦١ ص ٢٧٦) (المترجم).

١٩٤١ جزءًا بين الديمقراطية أكثر بكثير مما يمكن أن تثيره البحوث التي تقوم على أساس جمع المعلومات من هنا ومن هناك نتيجة دراسة نشاط اليابان في الماضي. ولما كانت الولايات المتحدة وبريطانيا بدورهما دولتين مسالمتين ولا تخطيط اعتدائي لهما يجب إبقاؤه سرًا، لم تكن هناك أي نظريات بحرية يضر الكشف عنها بأمنهما وسلامتهما، فضلًا عن أنه لم تكن هناك الرقابة التي تحد من هذا وتُعطله.

وهكذا فإن اتجاه اليابانيين لقصر تفكيرهم على جزء العالم الذي يعيشون فيه، ثم لتحريمهم الكتابة في الموضوعات التي تكشف عن أفكارهم الحقيقية، فإن هذا وذاك قد سببا قلة المؤلفات (العلمية الفنية عن القوة البحرية والعقيدة البحرية).

ومما يدهشنا أن اليابانيين في الواقع لا يهتمون بالمسائل البحرية إلا في فترات الحرب، وقد أكد لي هذا سنة ١٩٣٣ مسئول ياباني كان يُراسلني، وبالتبعية فإن المؤلفات الخاصة بالموضوعات البحرية لم تكن تلقى سوقًا رائجة، وكانت مثل هذه المؤلفات التي يكتبها مؤلفون من رجال البحر وما تنشره الدولة من وثائقها الرسمية يعتبر سرًا وتصدر منها طبعات محدودة، ولقد قيل للكاتب أنه لم ينشر في اليابان أي كتاب عن معركة چتلند(*) بالرغم من أن هذه المعركة البحرية لم يكتب عنها الإنجليز والألمان وحدهم، بل كتب عنها المؤلفون الفرنسيون والطليان الدراسات الطويلة الضافية.

(*) چيتلند Jutland: شبه جزيرة في شمال أوروبا هي التي تكون الأرض الأساسية للدانمارك، والاسم في اللغة الدانمركية Jytland، وچتلند معركة بحرية حدثت بين الإنجليز والألمان سنة ١٩١٦ في مضيق سكاجزاك قرب شبه جزيرة چتلند (المترجم) مُعجم ويبستر سنة ١٩٥٦ ص ٧٠٦.

ولم يصدر في اليابان قبل سنة ١٩٣٥ كتاب يشبه كتاب السفن المقاتلة لـچان Jane's Fighting Ships(*)، وعندما صدر مثل هذا الكتاب في اليابان بعد سنة ١٩٣٥ صدر في أجزاء وكان نجاحه قليلًا(١).

وكانت المقالات الخاصة بالمسائل البحرية والتي تنشر في المجلات الفنية قصيرة عادةً، وقد صدرت كذلك بعض الكتب المصورة ولكن لا يمكن القول أنها تعتبر مساهمة ذات قيمة في الفكر البحري.

وتتضح نفس الصورة في المجلات البحرية اليابانية، وقد بدأت واحدة منها بعنوان الأسطول تصدر بعد انتهاء الحرب الروسية اليابانية لتتعطل بعد سنوات قليلة، ثم أعيد إصدارها سنة ١٩٢٦ ولكنها توقفت عن الصدور ثانية بعد قليل، وكانت المجلة البحرية اليابانية ذات الصدارة: البحر والجو بدائية الموضوعات مثلها مثل أوراق المعهد البحري للولايات المتحدة، مجرد دراسات أولية، وكانت المجلة تترجم كل ما يصدر في المؤلفات الأمريكية فحسب، وكانت تعالج الموضوعات بنفس الأسلوب

(*) السفن المقاتلة نشرة سنوية تصدر للتعريف بالسفن البحرية الموجودة في العالم إلى غاية ما هو مُعلن عنها من سرعتها وحمولتها وقوة مُحركاتها وتسليحها، وتصدر نشرات مماثلة عن الطائرات وعن أسلحة القوات البحرية، وتصدر هذه النشرات في أكثر من طبعة في بريطانيا والولايات المتحدة وتطبع نشرة في باريس بالفرنسية وأخرى إيطالية تصدر بروما. (المترجم)

(١) صدر كتاب Naval Pocket Annual, ١٩٣٥ بطوكيو وقيل أنه سيصدر في ستة أجزاء الأول عن الأسطول الياباني وقد تأجل إصداره، وكان من المقرر أن يكون الجزء الثاني عن الأسطول البريطاني، ولكن الذي صدر فعلاً كان الجزء الثالث الخاص بأسطول الولايات المتحدة.



ماثيو كول – بريث بيري

(١٧٩٤ – ١٨٥٨)

فاوض لعقد أول معاهدة بين الولايات المتحدة واليابان

والفكرة، وقد أصدرت على سبيل المثال عددًا خاصًا عن الطرادات وآخر عن المدمرات، وقدمت فيهما كل سفن أساطيل العالم من هذا الطراز ولكنها لم تقارن بينهما إلا من ناحية السرعة وقوة المدافع وما إلى هذا[١]، ولم ينشر الكتاب الياباني عن چتلند حتى سنة ١٩٣٩، وعندما صدر في أجزاء كان ترجمة مختزلة لكتاب الليفتينانت كوماندر فروست الذي صدر في أتابوليس سنة ١٩٣٦[٢].

على أنه توجد في ميدان الكتابات الشعبية عن البحرية بعض الكتب والمقالات، ومثل هذه الكتابات مسألة عادية في البلاد الأخرى ولا تقابل في العادة بتقدير جدي من جانب القراء، وعندما تنشر مثل هذه الكتابات في الولايات المتحدة أو في بريطانيا لا يكون لها أي أهمية سياسية. وعلى سبيل المثال لا الحصر صدرت في بريطانيا في الجزء الأخير من القرن التاسع عشر مجموعة من المقالات تحدثت عن حرب قادمة بين الروسيا وإيطاليا، ولم يتم هذا التنبؤ فحسب، بل إن إيطاليا والروسيا حاربتا عدوًا مشتركًا في سنة ١٩١٤ وفي سنة ١٩٤١.

ومن الجلي الواضح أن المؤلفات والدراسات لا يمكن أن تقدم ما يتعارض مع سياسة الحكومة اليابانية وما يضاد تخطيطها العسكري ولا يمكن أن تكشف عن أي حقيقة من حقائق هذا التخطيط، ولا أن توضح أية نظرية من نظرياتها السياسية أو العسكرية، بل ولا يمكن أيضًا أن تتبع اتجاهات الغرب في مثل هذه الشئون، وقد نستطيع إدراك هذه الحقائق

(١) Sea and Air, Tokyo, Destroyer Number, September ١٩٣٥; Light Cruiser Number, November ١٩٣٥.

(٢) Sea and Air, Tokyo, Jan-Nov. ١٩٣٩.

عندما نراجع بعض ما جاء في هذه الدراسات والمؤلفات، ففي كتاب اشيمارو Ishimaru الذي وسم بعنوان يجب أن تحارب اليابان بريطانيا جاءت بعض عمليات بحرية يمكن أن تحدث في جزر الهند الشرقية، وبرزت الأهمية التي للسلاح الجوي تبعًا؛ لأن شيئًا لم يذكره المؤلف عنه في كتابه[١]، وفي كتاب كينوكي ماتسو Kinoaki Matsuo: كيف تضع اليابان تخطيطها للنصر؟ لم يغب الحديث عن الطائرة بل أكد المؤلف تحطيم أسطول الولايات المتحدة بواسطة الغواصات في معركة تقليدية تتبع النظم القديمة[٢].

ومثل هذه المؤلفات لا تقدم إلا القليل من المعلومات الجديدة للذين قرأوا كتابًا مثل كتاب: هكتور بايووتر الحرب في الباسيفيك[٣] وقد صدرت لكتابه طبعة إنجليزية، أو مثل الكتاب الذي صدر في الولايات المتحدة من قلم دينجلر وجاري في نفس الموضوع الذي كتب فيه بايووتر كتابه[٤].

على أن هناك دراسات بحرية يابانية تعتبر دراسات خاصة سرية، ولا شك في أن اليابانيين قد عنوا عناية كبيرة بمعركة چتلند ولكن دراساتهم عنها قد بقيت مغلقة مصونة في الخزانات السرية على مثال ما يحدث بالنسبة للدراسات التي تعد لهيئات أركان الحرب في لندن وواشنطون، ولكن معركة چتلند درست وأعيدت دراستها في بريطانيا والولايات المتحدة

(١) Lieutenant Commender Tota Ishimaru. I.J.N., Japan Must Fight Britain, Translated by Capt. G. V. Rayment, C. B. E. R. N. (ret'd) (New York, ١٩٣٦).

(٢) Kinoeki Matsuo, Japanese Naval Intelligence, How Japan Plans to Win (Boston, ١٩٤٢).

(٣) Hector C. Bywater, The Great Pacific War (Boston and New York, ١٩٣٢).

(٤) Sutherland Denlinger and Charies B. Gary (Lieut. Com. USNR), War in the Pacific (New York, ١٩٣٦).

للدروس الموضوعية التي يمكن استخلاصها منها، الدروس التي يمكن تبعًا لتفهمها تمامًا تطبيقها في أي، بل وفي كل معركة بحرية أخرى في المستقبل، واليابانيون أكثر اهتمامًا بالدروس التي يمكن أن ينتفعوا بها مستقبلًا وهذه حقيقة تكشف عنها طبيعة احتفاظهم بسرية مثل هذه الكتابات.

* * *

وهكذا يتضح لنا أنه كان من غير الممكن أن يبرز في اليابان رجل كماهان أو كوربيه، أو كاستكس؛ أو جروس، أو ما نفروني اللهم إلا في طابع محدود العلانية لا يعرفه القراء من عامة الناس، ولقد ترجم اليابانيون كتابات ماهان ودرسوها ولكنهم لم ينشروا شيئًا من كتاباتهم البارزة الأهمية عن القوة البحرية، ولم يعنوا كثيرًا بمناقشة ماذا يمكن أن تقوم به أساطيل يفرضون وجودها في ظروف نظرية مفترضة هي الأخرى حتى يمكن أن يخرجوا بما يمكن أن تفعله سفنهم في ظروف معينة، وكان من الواضح أنهم يعتبرون أن مثل هذه الدراسات ليست بالبحوث الفنية الأصيلة.

على أن الباحث الذي يُعنى في بحثه بالتفكير البحري الياباني لا يلبث أن يتعطل بما هو أكثر من قلة المؤلفات اليابانية من قلم بحريين مسئولين، فالمؤلفات التي يمكن أن يصل إليها الباحث تثير بدورها مشكلة بسبب صعوبة اللغة، الأمر الذي يشكو منه المتعلمون اليابانيون بخاصة، وعلى وجه التحديد يوجد كتاب للأطفال عن الأسطول مطبوع بأحرف كبيرة دون تعقيد، ومع وجود مجلة للدراسات البحرية الأولية تظهر محررة بحروف يابانية – صينية مع تفسيرات وشروح وتعليقات، تصدر مجلة البحر والجو دون أي موجه لتيسير نطق الحروف التي تكتب بها مما يحول

دون تفهم القراء لما فيها من دراسات، والكتيبات التي تصدر لتثقيف الضباط البحريين المتقاعدين ولبعض الضباط العاملين تستخدم في الواقع بعض الكلمات والجمل العامية الشعبية، فضلًا عما في اللغة المستخدمة من تعقيدات تعطل الترجمة وتجعل من الصعب – عند نقل الكلمات إلى لغة أخرى – إبراز ما يقصده الكاتب الياباني أصلًا، وهكذا يضطر المترجم إلى إغفال الأفعال المركبة وإهمال بعض الجمل، بل وأحيانًا بعض الفقرات عندما تبدو له وكأنه لا معنى لها؛ ثم إن الذين ليسوا على دراية تامة بطبيعة العمليات اليابانية لا يستطيعون اختيار الاصطلاح البحري المناسب، على أن هذا لا يعطل من الترجمة في المسائل العامة ولكنه ولا شك له تأثيره الخطر عندما يكون الهدف هو التعمق في أغوار الفكر الياباني.

وقد نستطيع أن نعرض مسألة هامة في التصوير التالي؛ ففي الترجمة الفرنسية للتقرير الشافهي الذي قدمه الأدميرال توجو عند انتهاء الحرب الروسية اليابانية استخدمت كلمات قوات العدو الأساسية(١)، وفي ضوء ما قدمه من بيان عنها كان الواقع أنه كان يقصد القوات البرية كما يقصد الوحدات البحرية، وفي ترجمة لنفس التقرير قام بها كاتب ياباني بنقله إلى الإنجليزية، أغفل المترجم الياباني فقرة كبيرة جاءت في الترجمة الفرنسية كما ترجمت قوات العدو الأساسية بكلمات القوة الرئيسية لمجموعات سفن العدو، ومن الواضح أن كلمتي مجموعات سفن قد أضيفت عند إجراء الترجمة إلى الإنجليزية(٢)، ولكن جاءت كلمتا «مجموعات السفن» في الترجمة

(١) Revue Maritime, Paris, CCI (April-June ١٩١٤), p. ٣٣٩.

(٢) Vice-Admiral Viscount Nagayo Ogasuwara, Life of Admiral Togo (Tokyo ١٩٣٤ p. ٣٩١).

الألمانية الرسمية[١]، وسنعود ثانية إلى هذا التقرير الذي قدمه الأدميرال توجو في صورة محاضرة شفاهية عندما نناقشه بالاتصال بالأعمال العدائية التي أشار إليها.

* * *

ويبقى أمامنا مما يستحق البحث والدراسة بعض المقالات التي كتبها ضباط بحريون يابانيون للصحف الفنية الغربية، فعندما لا تكون هذه المقالات مستقيمة الاتجاه ولا تعرض لأي نظرية يابانية فإنها تكون سياسية الطابع متعرضة لإيضاح فكرة شخصية بحتة، وعلى سبيل المثال لا الحصر كتب ضابط ياباني سنة ١٩٢١ دراسة عن معركة چتلند، فناقش الدور التقليدي للأسطول البريطاني[٢]، وكان نقده للقادة المتضادين ووقفهما القتال عند انسدال الظلام، وفشلهما في تحقيق نصر حاسم، كان هو النقد الذي وجهه الكتاب الغربيون في مناسبات مماثلة للأميراليين اليابانيين ايتو و توجو من قادة الأسطول الياباني.

وقد نستطيع أن نقدم من نماذج المقالات التي جاءت في الميدان السياسي أو جاءت لنفع شخصي بعض أمثلة تختار خبط عشواء على غير هدى ودون ما قصد محدد، وقد كتبت في الفترة التي رفضت فيها اليابان تجديد المعاهدات التي نظمت تحديد قوى الأساطيل للدول البحرية الكبرى. ففي طبعة سنة ١٩٣٥ من الدورية السنوية Brassy's Naval

(١) Der Japanische-russische Seekrieg ١٩٠٤/٥, Amtliche Darstellung des japanischen Admiralstabe (Berlin, ١٩١١).

(٢) Lieutenant Commonder Ichire Sato, I. J. N., Brassey's Naval Annual (London, ١٩٢١ – ١٩٢٢), pp. ٧٧ – ٨٤.

Annual أكد الكوماندر س. تاكاجي التزام بلاده بمعاهدة واشنطون برغم تطور الطائرة، العامل الذي كان لفائدة اليابان ونفعها، وفي عدد نوفمبر سنة ١٩٣٤ من مجلة Current History أشار الكبتن (القبطان) ج. سيكين G.Sekine إلى أن استحداث السفن الكبيرة والتقدم البارز في الطيران قد زادا من الثقل في جانب القوة التي تقوم بالهجوم بالرغم من أن الحوادث كانت تبرهن على أن العكس هو الصحيح، وفي عدد يناير من مجلة Foreign Affairs الشئون الخارجية قال الأميرال ك. نومورا K. Nomura بأن النسبة ٥ : ٥ : ٣ لهجوم كبير ضد الشعب الياباني.

وكانت كل هذه العوامل نوعًا من التآمر لجعل الفكر البحري الياباني كتابًا مغلقًا بالنسبة للعالم الغربي، وهكذا نشأت مسألة كيف يكون من الممكن الكشف عن النظريات التي تتبعها طوكيو؟. ولقد اعتقد بأن هذا يحسن أن يفعل بتقدير وتفهم روح اليابان. وبإدراك الخاصية الجغرافية للشرق الأقصى، وباستنتاج كيف تكيفت الاستراتيـچية والتكتيكات البحرية اليابانية، ومع هذه العوامل وبهذا الإجراء نستطيع أن نكتشف عددًا من الملابسات والسبل التي يمكن أن تتبع تحت ظروف معينة، ومن الممكن تقبل هذه كأسس للفكر البحري الياباني.

- ٢ -

ولقد كان الفكر الياباني يرتبط دائمًا ارتباطًا وثيقًا بالعوامل التاريخية – الأيديولوچـية، وتعتبر بيانات العلامة كاتسورو هارا Katsuro Hara من جامعة كيوتو الإمبراطورية، سديدة وصالحة[١]، ولقد كتب أن الفن

(١) Histoire du Japan (Paris, ١٩٢٦).

العسكري هو الفن الوحيد الذي يمكن ممارسته في اليابان منذ القدم فهو أشرف الفنون كلها، ويمارس على حساب غيره من الفنون، ولقد أخذت اليابان الآلات العسكرية للغرب واستخدمتها في حقل أحسنت حرثه.

وتبعًا لآراء كاتسورو، فإن اليابان سواء أسرت الأمم الأخرى بتطورها أم لم تسر فهي لا تستطيع تحديد التقدم الذي يجب أن تحققه، ذلك لأنه عندما يكون هناك أي تقدم فإنه يحدث توقف أو جمود.

ولربما كان لكلمة تقدم في سنة ١٩٢٦ دلالة مجردة مبهمة برغم القرينة التي تكون لها أو المعنى الذي يمكن الخروج به من مغزى الحديث، ولكن عندما ننظر للكلمة ونقدرها في ضوء التاريخ الياباني فإنه من المحال أن نفصلها ونقتطعها عن التوسع الإقليمي بالوسائل العسكرية.

ومن الطبيعي أن هذا التوسع يشع من اليابان عبر الشرق الأقصى، ولقد قورنت صلة اليابان بآسيا على أنها تماثل صلة بريطانيا بقارة أوروبا، ولكن فيما عدا الطابع الجغرافي الخالص فإن الأمرين لا يمكن إعتبارهما يتماثلان تماثلًا صحيحًا، فإن الجزر البريطانية تواجه أوروبا القوية عسكريًا ثم إنها تمتلك إمبراطورية وسلسلة من القواعد البحرية، وتجارة خارجية فيما وراء المحيط تحتاج إلى أسطول كبير لدعمها، فضلًا عن أن يكون في خدمتها، ولكن اليابان لا تواجه أعداء لهم قوة، ولا ممتلكات لها بعيدة ولم يكن عليها في أي وقت أن تحمي تجارتها الخارجية فلا تستطيع بسبب افتقارها إلى قواعد ومحطات بحرية متباعدة أو بسبب حاجتها لأسطول قوي في هذه القواعد البحرية.

ولما لم يكن لبريطانيا الحديثة أي تخطيط لأهداف في البلاد المجاورة

فإنها قد أنشأت قوة بحرية استراتيـچية دفاعية ولم يكن الأمر يتطلب أكثر من القدرة على هزيمة عدو في البحار الفسيحة، وكان من الطبيعي أن هذه الملاحظات نفسها يمكن أن تنطبق على الولايات المتحدة.

على أننا نجد هنا عدة عوامل حرية بالدراسة؛ ذلك لأنها تقف إلى جانب السياسة البحرية الإعتدائية وتضمن نجاحها، ومن هذه العوامل:

* ضعف آسيا واستراليشيا (أي استراليا ومجموعة الجزر المجارة التي حولها) من الناحية العسكرية.

* المسافات البحرية والبرية الطويلة التي تفصل تلك المناطق الغربية العسكرية والبحرية المهمة.

* سيطرة الجزر اليابانية على الساحل الغربي للباسيفيك... ثم.

* العدد الكبير من الجزر القريبة من اليابان والتي تؤدي من اليابان إلى كل المناطق للجنوب منها.

وهكذا فإن روح ساموري(*) الميالة إلى الحرب، وهذه المظاهر العسكرية التي تجتذب الانتباه في المناطق المحيطة باليابان، قد أملت ضرورة استخدام الأسطول كوسيلة لنقل الجنود، أو كوسيلة لحراسة سفن الجنود بدلًا من استخدامه (الأسطول) كقوة مقاتلة في البحر الفسيح، وكانت في الواقع السفينة حاملة الجنود هي التي جاءت باليابانيين أصلًا إلى هذه الجزر التي نقول عنها الجزر اليابانية .

ولقد جاء اليابابنيون بحرًا إلى هذه الجزر التي يعيشون فيها الآن،

(*) الساموري Samurai الطبقة العسكرية في اليابان ويحمل هؤلاء سيفين رمزاً لأنهم من الصفوة. معجم ويبستر طبعة سنة ١٩٥٦ ص ١٢٨٩ .

وبعد قتال عنيف لقرن كامل استطاع اليابانيون أن ينتهوا تمامًا من السكان الأصليين أو أن يدفعوهم إلى أقصى الجزر الشمالية من أرخبيل اليابان، وفي هذه العمليات استخدم القادمون الجدد سفنهم الحربية استخدامًا صحيحًا تبعًا للحاجة، أو بمعني أدق، استخدموها لنقل جنودهم المقاتلين، وبينما كانت جيوش الغزو الأساسي تتحرك برًا قامت مجموعات سفن الأسطول بعزل السواحل التي أنزلت السفن عليها قوات برية قوية وأنزلتها على أجناب قوات العدو وقد استخدمت اليابان هذا الأسلوب نفسه في الشهور الأولى من الحرب العالمية الثانية.

وهكذا تحرك چيمو – تينو(*)، الذي يشار إليه في تسجيل التاريخ على أنه أول إمبراطور لليابان – من كيوشو أبعد الجزر اليابانية الأساسية للجنوب، تحرك في البحر الداخلي إلى نقطة قرب أوساكا(**) الحالية، ***والواقع*** أنه لمئات السنين كان هذا البحر الداخلي الطريق العسكري لليابان، وفي الحروب الكثيرة بين العشائر اليابانية التي تتولى السيادة أو تستهدفها كانت السفن الوسيلة المحببة المفضلة للتحرك والانتقال، وكانت الأرض هي المكان المختار للمعركة، ولهذا فإن المعركة البحرية التي كانت بين أسطول الميناموتو المكون من سبعمائة سفينة وبين الخمسمائة السفينة في أسطول عشيرة تايرا(***) في دان – نو – أورا قرب شيمونسيكي سنة ١١٨٦ للميلاد(****) لتعتبر حادثًا نادرًا لم يحدث من قبل.

(*) Jimmau Tenno. حكم من ٦٦٠ إلى ٥٨٥ قبل ميلاد السيد المسيح.

(**) أوساكا Osaka مدينة في الساحل الجنوبي لجزيرة هنشو وسكانها ١.٥٥٩.٠٠٠ كإحصاء سنة ١٩٤٧، راجع خريطة المنطقة (معجم ويبستر ص ١٠٣٦).

(***) تايرا Taira ميناء على الساحل الشرقي لجزيرة هنشو.

(****) شمو نسيكي Shimonseki مضيق بين هنشو وكيوهو في الشرق وجزيرة تسو في=

وكنتيجة لهذا الاستخدام للسفن اقتنع اليابانيون بفكرة استخدام السفينة كوسيلة للنقل أكثر من أن تكون وسيلة للقتال، وجاء هنا نفوذ آخر كان معوانًا لهذا الاقتناع، هو النفوذ الذي للعلاقة الوثيقة بين الأرض والبحر، كانت حركة النقل في الغالبية حركة ساحلية وكان الواجب الرئيسي لهذا هو ركوب القوات البرية للسفن. ونزولهم منها إلى الساحل، عمليات شحن وتفريغ للقوات البشرية ولعتاد الحرب، وتكشف التكتيكات البحرية التي صيغت في اليابان أيام القرون الوسطى بوضوح عن هذا التأثير، وقد تضمنت المصطلحات التي يستخدمها رجال البحر للتعبير عن التشكيلات المختلفة للأسطول أثناء الملاحة في البحر الفسيح (قبل المعركة أو بعدها أو في أثنائها) بعض ألفاظ تدل على التفكير في الأرض وتقدير الصلة بين القوات التي في البحر والأغراض التي على البر، ويعبر أحد هذه المصطلحات عن انسحاب الأسطول للخلف في تنظيم خاص ليتخذ أوضاعًا أخرى بالنسبة لجبل قريب على الساحل، أو بالنسبة لقنتين من قنن الجبال تتضحان لملاحي السفن،واصطلاح آخر يعني أن الأسطول قد انتشر ليسد مدخل خليج واسع إما في تشكيل خط، أو في قوس، وأصل الاصطلاح واحد للتعبير عن صورتي التشكيل والفرق في الحروف التي تضاف له في صدره للتعبير عن الخط أو القوس[١](*).

=الغرب ويفصل بحر اليابان عن بحر الصين (المترجم).

(١) Captain Viscount Ogasawara, Historical Essay on the Japanese Navy. Translated in Revue Maritime Paris, (January – March ١٩١٤). pp. ٩٦ - ٩٧.

(*) استخدام الأغراض الأرضية الشهيرة كوسيلة معاونة لإيضاح اتجاهات السير أو تنظيم التشكيلات بالنسبة إليه كالإنتشار (أي اتخاذ التشكيل المفتوح) لليمين من مرتفع من الأرض بدلاً من اجتيازه فوق الأفق، وما إلى هذا هو في الواقع استخدام جاء أصلاً في=

ولما كان القتال في البحر قد اختلف بقدر قليل عن القتال في البر لو كان هناك حقًا هذا الاختلاف، ولما كان اليابانيون في العادة والغالبية يقومون بعمليات هجومية ضد أهداف برية، وضح لنا أن التشكيلات من سفن الأسطول قد أوكل إليها الغرض الأساسي بالتعاون مع القوات البرية التي تخصص لحملات حربية، ووقاية هذه القوات في أثناء إنزالها إلى الساحل ثم في تحركاتها وعملياتها مادامت هذه الوقاية مستطاعة بواسطة مدافع السفن، وقيام سفن الأسطول بسد مدخل خليج يدل على أن هذه السفن تقوم بحماية عملية نقل أو إنزال للجنود داخل المياه الداخلة خلف هذه الستار من سفن الحراسة، ووقايتها من تدخل أي سفن للعدو.

على أننا يجب أن نضيف هنا إلى النظرية الأساسية للأسطول الذي يقوم بالنقل للقوات – أن نضيف نظرية هامة هي نظرية قوة الوقاية، وقد وضعت هاتان النظريتان موضع التقدير واستخدمتا استخدامًا ناجحًا قرابة سنة ١٢٠٠ عندما عبر اليابانيون البحر إلى كوريا وغزوا الأرض هناك.

وقد أثرت محاولات قوبلاي خان إمبراطور المغول لغزو اليابان في سنتي ١٢٧٤ و ١٢٨١ للميلاد، أثرت في الفكر البحري الياباني، فقد احتل المغول جزر تسوشيما(*) ونزل كثيرون من جند المغول بساحل كيوشو، وعلى

=القتال للقوات البرية، أو للقوات التي تعمل ضد أهداف أرضية سواء كانت من أسلحة البحر أو الجو، ولكن هذا الاستخدام الياباني لتنظيم التشكيلات والأوضاع للسفن في البحر بالنسبة لأغراض أرضية كان استخداماً له طابع الاستحداث ولا شك، ويبدو كما يقول المؤلف أنه جاء بسبب تقدير استخدام السفن لنقل وإنزال القوات البرية. (المترجم).

(*) قوبلاي خان Kublai Khan (١٢١٦ – ١٢٩٤) حفيد جنكيز خان كان إمبراطور المغول وتولى الحكم من سنة ١٢٥٩ إلى سنة ١٢٩٤ ميلادية وهو الذي أسس حكم أسرة=

حين كانت المعارك تدور على المناطق المجاورة للساحل تكبدت السفن اليابانية – التي كانت أصغر حجمًا وأقل عددًا من سفن المغول – تكبدت الهزيمة إثر الهزيمة بالرغم من الهجمات الجريئة التي قامت بها السفن اليابانية وبالرغم من أصالة التكتيكات التي استخدمتها[(١)]، على أن صغر حجم السفن اليابانية أكسبها بعض النجاح في مراحل خاصة من المعارك، ووجه اليابانيون إلى الاهتمام بعامل السرعة، على أن المغول من جانب آخر عمدوا لوقاية أنفسهم بتجميع سفنهم معا في تشكيلات كانت تجعل كل مجموعة من السفن أشبه بقلعة حصينة، ولم يغب هذا التشكيل الدفاعي عن اليابانيين، على أنه يجب أن نذكر هنا بأن أسطول قوبلاي خان كان آرمادا أخرى حطمتها عاصفة عاتية.

وانتقل اليابانيون بعد ذلك للقيام بأعمال القرصنة في نطاق واسع، وفي السنوات التي جمعت قرنين من الزمان أي بين سنة ١٤٠٠ وسنة ١٦٠٠ للميلاد، تعرضت للسلب والنهب سواحل الشرق الأقصى من كوريا (حيث كان اليابانيون قد طردوا منها بواسطة الكوريين والصينيين قبل سنوات طويلة) إلى جزيرة سنغافورة وسواحل سومطره وبورنيو والفليبين، وفي بعض المواقع – حيث كانت أعمال السلب والنهب تجري تحت إشراف وسيطرة الزعماء الإقطاعيين اليابانيين – أنشأ اليابانيون رؤوس كباري للنفوذ للداخل، وكانت هذه سابقة لتلك التي أنشأها اليابانيون في الحرب العالمية الثانية.

وفي سنة ١٥٨٧ أشاد اليابانيون بتويوتومي هيديوشي Toyotomi

=المغول في الصين. معجم ويبستر سنة ١٩٥٦ ص ٨١٢ (المترجم).

(١) Nakaba Yamada, Ghenko, The Mongol Invasion of Japan (New York, ١٩١٦), p. ١٨٥.

Hideyoshi كمنشئ للأسطول الياباني الذي نقل مائة وخمسين ألف جندي بطريق البحر من الجزيرة الرئيسية إلى جزيرة كيوشو ليقضي على ثورة قامت بها عشيرة ساتسوما في جزيرة كيوشو، واتجه تويوتومي بالأسطول شمالًا ليخضع أميرًا قد خرج على سلطة الإمبراطور وفي سنة ١٥٩٢ بدأ حملة لإعادة غزو كوريا، ونظم جيشًا يصل إلى قرابة الثلاثمائة ألف جندي ثم دعا الأمراء الذين تطل ولاياتهم التي يحكمونها على البحر ليعدوا أسطولًا كبيرًا، وأشرف تويوتومي بنفسه على بناء بعض السفن الكبيرة من بينها الكاكان(*) أي سفينة الأميرال قائد عام الأسطول والتي أطلق عليها اسم نيهون مارو.

وكانت سفينة القيادة كما كانت السفن الأخرى سفن نقل أكثر من أن تكون سفن قتال، وكانت الفكرة التي قام عليها بناء هذه السفن المربعة الأطراف تُعنى بعملية القيادة العسكرية على ساحل كوريا أكثر مما تُعنى بعمليات القتال في مضيق تسوشيما أو البحر الأصفر(**).

على أن الطابع الذي أعد على أساسه، والذي أبحرت بمقتضاه سفن القيادة، تدفعنا للعناية بالكثير من التفاصيل وتدلنا على تفهم اليابانيين للدروس من الماضي. كما تدلنا على ما التزموه من الحيطة والحذر، فقد وقفت سفينة القيادة نيهون مارو وألقت عصا تسيارها والسفن التي تقوم

(*) Kakan تعني باللغة اليابانية سفينة القيادة أي السفينة التي يسيطر منها أمير البحر قائد الأسطول على عمليات سفن أسطوله. (المترجم)

(**) Tsushima مضيق بين جزيرتي تسوشيما وكيوشو وكان مسرحاً لمعركة بحرية ضد الروسيا سنة ١٩٠٥، Yellow Sea البحر الأصفر، جناح من المحيط الباسفيكي بين كوريا والصين ويُطلق عليه اليابانيون الاسم هوانج هاي Hwang Hai معجم ويبستر طبع نيويورك سنة ١٩٥٦ ص ١٥٦٦ و ١٦٩٣.

بحراستها، وراء خط دفاعي يتكون من عدد كبير من السفن الصغيرة قد اتصلت معًا بأسلاك قوية، وتستند إلى المراسي السفن التي في كلا الطرفين البعيدين، وكان هذا التشكيل تطبيقًا مرنًا للترتيبات التي قام بها المغول، وزودت السفن التي في وسط خط (كردون) الوقاية بوسائل إطلاق المقذوفات، وبقيت للأمام من هذا التشكيل الدفاعي القوي بعض سفن الاستطلاع لإبقاء العدو تحت رقابة واعية، وكانت سفينة القيادة محوطة بسفن حربية صغيرة، وجاءت في المؤخرة سفن النقل والتموين[١] وكانت بينها سفن خصصت لنقل المياه وأخرى لنقل الخيول، ونظمت عملية تدريع وضع دروع واقية للسفن من رصاصات بنادق ذلك العصر بإقامة طبقات من البوص الهندي.

وفي هذه الحملة ضد كوريا نزل الجيشان اليابانيان الأساسيان بالساحل في الجنوب وتقدما بسرعة نحو العاصمة فأفلحا في احتلالها، وقامت السفن بحماية مواصلاتهما كما حالت دون تدخل سفن العدو، وفي نفس الوقت أنزلت قوات يابانية أخرى للدوران حول جنب الكوريين من نقطة على الساحل الغربي لكوريا، كما قام اليابانيون بتحركات أخرى في البحر الأصفر ضد الصين نفسها.

وفي هذه اللحظات الحرجة ظهر في البحر الأميرال الكوري يي – صن على سفينة مُدرعة هي كوبوكسون أي ظهر السلحفاة يقود عدة سفن من ذات الطراز، واستطاع يي – صن أن يقضي على السفن اليابانية والتي على الساحل الغربي، واضطرت الجيوش اليابانية للارتداد إلى الساحل،

(١) The Navy (Tokyo, April – ١٩١٦) p., ٥.

ولولا المؤامرات في بلاط كوريا – التي ربما يكون اليابانيون أنفسهم قد نظموها – التي أدت إلى طرد الأميرال يي – صن من عمله لكان قد تم إجلاء اليابانيين عن البلاد.

ولم يحاول اليابانيون في هذه الحملة ضمان السيطرة على البحار كعامل تمهيدي للغزو، على أننا نستطيع أن نحكم من الأعمال التي قام بها اليابانيون في تاريخ لاحق على أن الدروس التي خرج بها اليابانيون من هذه التجارب المريرة لم تكن ضمان السيطرة على البحر، بل كانت في بساطة أن سفن النقل وسفن التجارة يجب أن تتوافر لها وقاية مادية أكبر، وخرج اليابانيون من هذه الحملة المريرة بدروس أخرى في المسائل الخاصة بالتنظيم.

وقد يكون أمراء البحر تحت قيادة هيديوشي قد حاولوا تدمير أساطيل كوريا في بداية الحرب ولو فعلوا هذا لكان معناه تعطيل الكوريين والصينيين طويلًا عن القيام بالتدابير التي تُمكن من رد الغزاة، على أنه لضمان النجاة كان على الكوريين أن يتجنبوا المعركة وأن يرتدوا إلى جزرهم على أن يبقوا سفنهم وراء حواجز المياه، ***والواقع*** أن استخدام المظاهر الجغرافية في المناطق الساحلية وللانتفاع بحركة المد والجزر كان من طوابع ذلك العصر(١)، هذا عدا أن كل سفينة يوكل إليها البحث عن الأسطول الكوري فإنها تكون قوة مفقودة ضائعة لا نصيب لها في الدفاع عن سفن النقل لو هاجم العدو هذه السفن التي تحتاج إلى ما يحميها وما يرد عنها غائلة العدو. على أن الشيء الذي يجب أن نذكره هنا أن الموقف السياسي في ذلك الوقت كان مُتعقدًا تشتبك فيه الكثير من الحوادث غير العسكرية

---

(١) Ogasawara,Revue Maritime, Paris, CC. ٩٦.

ولكن الفرد يستطيع أن يُقدر ماذا كان يمكن أن يحدث لو لم تتدخل المنافسة داخل المعسكر الياباني في العمليات؟، من المحتمل أن الكوريين كانوا يضطرون إلى المطالبة بالسلم قبل أن تستطيع السفينة ظهر السلحفاة تغيير مستقبل الحرب.

***

على أننا عندما نستعيد بذاكرتنا ما حدث للمغول الذين تركوا في الجزر الصغيرة بين كيوشو وتسوشيما نتيجة لفقد السيطرة على البحر، عندما نستعيد هذا بذاكرتنا ندرك أن هيديوشي لا يمكن أن يكون قد غفل عن هذا العامل، والواضح أنه كان عليه أن يختار بين ترك البحر والمغامرة بمقابلة العدو الذي لا يمكن قهره في الأرض، وبين أن تُقبل المغامرة في البحر كي يضمن نجاح عملياته العسكرية في القارة ***والواقع*** أن اليابانيين كانوا قد أخطأوا تقدير قوة العدو في البحر، ومن ثم فقد تلقوا صدمة قاسية من سلاح جديد له خطره، وهكذا كان عليهم فيما بعد أن يبقوا دائمًا عينًا ساهرة على أعدائهم، وأن يستكشفوا دائمًا، وإلى غاية ما يمكن، كل إمكانيات الأسلحة الجديدة.

وقد تطلب الأمر سنوات قليلة كي تثبت النظريات اليابانية أنها صحيحة منطقية وأنها تتبع الأصول السليمة، ففي سنة ١٥٩٧ كرر هيديوشي محاولته ضد كوريا التي كان قد احتفظ ببعض رءوس الجسور أو بعض مواضع لقدم بمعنى أدق على سواحلها، وقد استطاع هذا نتيجة لتآمره مع بعض القائمين بالأمر في كوريا، ويبدو من هذا أن مسألة رءوس الجسور على سواحل العدو كانت قد باتت جزءًا هامًا من تفكير اليابانيين.

وعلى حين كان هيديوشي قد بنى أسطولًا جديدًا كان أسطول كوريا الذي خفضت قوته قد بقي في مرساه دون تطور.

وحدثت معركة بحرية انتصر فيها اليابانيون ولكنه كان نصرًا بلا ثمرة؛ ذلك لأن الكوريين كانوا – منذ الغزو الأول – قد قاموا بتحصين بلادهم بمعاونة الصينيين، ولهذا فإن القوات اليابانية التي كانت في المرة الأولى قد حققت تقدمًا سريعًا لم تستطع هذه المرة التقدم إلا بجهد مُضنٍ، ثم توقفت تمامًا عند العاصمة سيول، وفي مرحلة ما اشتركت القوات اليابانية في اشتباك بحري حدث من الناحية العملية على الساحل، وكان هذا الاشتباك البحري بشيرًا ونذيرًا، وكان رائدًا لكل العناصر التي جاءت معًا لتميز الاعتداء على الدول الغربية في سنتي ١٩٤١ – ١٩٤٢، وبدأ الموقف العسكري في كوريا ينهار، ووضح أن لا أمل في إعادة سيرته الأولى عندما استدعي يي – صن ثانيةً ليتولى قيادة أسطول كوريا، وحقق الرجل نصرًا ثانويًا على الأرمادا اليابانية، ولكن القوات اليابانية التي كان قد أمضها الإجهاد انتفعت من الموقف الحرج الذي يواجهه الأسطول الياباني وأخلت كوريا، وفي أثناء الانسحاب سقط يي – صن على السفن اليابانية التي تنقل الجنود فكبدها خسائر فادحة، وقد دفع حياته ثمنًا لهذا إذ قتل أثناء الاشتباك مع اليابانيين.

وكشف هيديوشي – عند إقراره بأن النكبة ترجع إلى هزيمة أسطوله لا لهزيمة جيوشه – عن أطماع الاستراتيـجية اليابانية مُقررًا أن جيوشه في البر والبحر لم تتعاون معًا ولم تعمل القوات لتعاون بعضها بعضًا، وقد علم هذا الدرس القاسي اليابانيين ليس فقط ضرورة إعادة النظر في نظرياتهم البحرية، بل وأنهم يجب ألا يفقدوا الوقت ولا أن يغفلوا عن التدابير التي



منطقة العمليات اليابانية في الحربين العالميتين

تضمن النجاح في البر.

ولكن لو جاز لنا أن نترك جانبًا مسألة بناء السفينة ظهر السلحفاة فمما لا شك فيه أن عملية الغزو الأولى لكوريا كانت عملية ناجحة برغم أن الساحل الشمالي للبحر الأصفر كان مليئًا بالسفن الكورية والصينية التي لم تكن قد قُهرت بعد، إن هيديوشي قد وجه ضربته عندما كان الموقف السياسي والموقف العسكري في الأرض الرئيسية يُبشر بالنجاح ويقف إلى جانب هذا التوجيه، وهكذا كان الموقف أيضًا يوم ٧ من ديسمبر سنة ١٩٤١ (عندما حدثت معركة بيرل هاربور)(*).

وتبع هذا أن أصر حكام اليابان على الانعزال التام عن العالم الخارجي، وقد استكمل قانون تحريم الاتصال بالأمم الأخرى دوره بالقانون الذي حرم بناء سفن يزيد طولها على ٧٥ قدمًا، وبقيت اليابان أمة منطوية على نفسها مُنعزلة عن العالم حتى كانت زيارة الأميرال الأمريكي بيري(**) لها سنة ١٨٥٣ – ١٨٥٤ ففتحت اليابان أبوابها للعلاقات مع الدول.

وفي هذه السنوات الطوال اختفت الإنشاءات البحرية والعسكرية من الناحية العملية، كانت الأولى قد قصرت على السفن التي تخصص للدفاع الساحلي في ضوء هذه العزلة التي فرضتها اليابان على نفسها، وعلى حين أن

(*) بيرل هاربور – مدخل ضيق في الساحل الجنوبي لأواهو إحدى جزر هوايتي على مقربة من هونولولو، وكانت فيه قاعدة بحرية للولايات المتحدة وهي التي تعرضت للهجوم الياباني الفُجائي يوم ٧ من ديسمبر سنة ١٩٤١.

(**) بيري Commodore Perry ماتيو كولبريث (١٧٩٤ – ١٨٥٨) صاحب أول معاهدة وقعت بين الولايات المتحدة واليابان وهو شقيق الضابط البحري أوليفر هذاردبيري الذي هزم الإنجليز في معركة (ليك أبري) سنة ١٨١٣ (ويبيستر ١٠٩١).

الدول الغربية قد شغلت بتقدير ماذا يمكن أن تكون اليابان قد فعلت في هذا الأمد الطويل الذي انسحبت فيه من المسرح العالمي، كانت الحقيقة التي لا شك فيها أن الفكر البحري الياباني قد غط في ثبات عميق لأكثر من مائتي سنة.

وقد تركت اليابان المجتمع الدولي عندما كانت السفن ذات السطح الواحد والشراع galleys تذرع البحر المتوسط جيئةً وذهابًا، وقبل أن تتطور السفن الشراعية المُتعددة الطباق galleon لتكون سفن الخط الأول للقتال، وقبل أن تكون الفرقاطة frigate أبرز ما في الصورة طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر ثم لجزء من القرن التاسع عشر؛ ***والواقع*** أن اليابان قد استيقظت في عصر البخار وعصر السفينة التي تُبنى من الصلب والحديد لا من كتل الخشب، وقد جاء توقيت هذا الاستيقاظ مع قيام المتاعب ضد الدول الأجنبية وقع ضرب كاجو شيما وشيمونوسيكي(*) بقنابل المدافع، ولم تفقد اليابان وقتًا طويلًا لتكيف الآلة الجديدة للغرب لتتمشى مع احتياجاتها الخاصة.

على أن هذا التطور الجديد قد قوى – بدلًا من أن يضعف – النظريات البحرية القديمة، وإذا كان اليابانيون قد اتبعوا أسلوبهم التقليدي، لا يُغامرون خشية أن يفقدوا بعض سفنهم الحربية، فإنهم ولا شك قد أدركوا الآن بأن أي نصر يكسبونه بثمن كبير (غالي الثمن) سيتركهم ضعافًا بإزاء أي قوات تنتفع من هذا الضعف، ولم تعد السفن المقاتلة تُحصى بالمئات، فإن هيديوشي قد أبحر إلى كوريا بعمارة بحرية من سبعمائة سفينة، ولكن الآن

(*) Kagoshima-Shimonoseki، كاجو شيما، مدينة على الساحل لجزيرة كيوشو (اليابان) سكانها ١٧٠.٠٠٠ كإحصاء سنة ١٩٤٧، شيمونوسيكي مدينة على الساحل الجنوبي لجزيرة هونشو (اليابان) سكانها ١٧٧.٠٠٠ إحصاء سنة ١٩٤٧. معجم ويبستر طبعة سنة ١٩٥٦ ص ٧٩٦ و ١٣٤٤.

يمكن أن تُعتبر ستٍ من البوارج أو الطرادات مع عدد مماثل من قوارب الطوربيد قوات بحرية لها أهميتها.

والواقع أنه يمكن من هذه الناحية، يمكن الحكم على صياغة النظرية البحرية اليابانية، فقط يجب أن نُلاحظ بأن هذا الحكم لا يجئ من التوزيع الاستراتيجي لمجموعات السفن ومن الاستخدام الخاص لها فحسب، بل ومن التشكيلات التي تستخدمها أيضًا، وفي هذا الحديث عن التشكيلات يجب أن نخرج من التعميم إلى التخصيص أيٍ من الاستراتيـجية إلى التكتيك، ومثل هذه التعقيدات التي تجدها حتى في أصغر الاشتباكات البحرية هي التي تجعل أنه في الغالب ليس من الحكمة اختيار التفاصيل الفردية في أي معركة ومحاولة الخروج منها بنظريات ما في خطوط عريضة، فالبحر المضطرب وعدم وضوح المرئيات تتدخل في أفضل تخطيط للمعركة مثلها في هذا مثل نقص الذخيرة، وقد ينفض أمير البحر يديه من المعركة وقتيًا لا لينقذ سفنه فحسب بل ليعيد ضبط خط تقدمه وليعدل من الموقف، وعندما يكون خط اتجاه العدو أو تشكيلاته مُحيرة غير واضحة على التحقيق قد يعتقد القائد أن العدو يعمل ضاغطًا هجومه للأمام على حين أنه يكون في الواقع هادفًا لزيادة اتساع المرمى، إن أي تحركات تتم تحت ضغط القتال يمكن أن تتأثر بهذه العوامل أو بعوامل أخرى كثيرة غيرها دون اعتبارها جزءًا من المشروع الأصلي، ومع هذا فإنه عندما تتكرر مثل هذه التكتيكات آليًا في عدة معارك متتالية وعندما يبدو أنها تتمشى وتتكيف مع صورة سياسية استراتيـجية عامة فإنها يمكن أن تكون عقيدة لها طابعها الدائم، وعلى هذا الأساس يمكن في إيجاز تقدير عمليات الأساطيل البحرية لليابان الحديثة.

وبينما اتبع الأسطول الياباني المبادئ القديمة فإنه من جهةٍ أخرى استخدم وسائل خاصة ليتزود بأحدث الأسلحة وليتكيف بالأحوال الجديدة، وكان من الضروري مع تزايد اعتماد الحملات الحربية فيما وراء البحار على أمن وسلامة مواصلاتها أن يُعنى أمراء البحر اليابانيون بمراقبة الأساطيل المعادية، مراقبة فعالة لتعرف تطوراتها في التسليح وفي الاستخدام التكتيكي لوحداتها، وقد اضطر أمراء البحر اليابانيون إلى هذا أكثر من اضطرار هيديوشي لدوام تعرفه لتطورات الأساطيل المعادية.

وقد عنيت طوكيو من جهةٍ أخرى بعامل السرعة؛ ذلك لأنه كان يتمشى مع مجموعة من النظريات التي كانت قد أضحت نظريات تقليدية للأسطول الياباني، كانت سرعة المحركات تعني بالنسبة للإنجليز القدرة على إرغام العدو لتقبل المعركة، وكان الفكر الفني الأمريكي يقف إلى جانب زيادة تدريع السفن الكبيرة (البوارج) ولو على حساب السرعة، وفي السنوات الأخيرة وقف الرأي الأمريكي إلى جانب السرعة مع التدريع، ولكن كان عامل السرعة بالنسبة لليابان يعني القدرة على القتال من مرمى طويل أو التخلص من المعركة، كما كان يعني القدرة على إرغام العدو لتتمشى تحركاته مع التحركات اليابانية للإحداق بجنب أو جنبي أسطول العدو، وقد اقترنت سرعة السفن بسرعة النيران، وقد عني اليابانيون بأسلوب خاص لمدفعيتهم كان يمكن من هذا الانتفاع بعامل السرعة.

وقد مكنت السرعة اليابانيين من أن يترجموا تفكيرهم الاستراتيجي إلى إجراءات عملية في ميدان دنيا التكتيك، وكان معنى هذا أن اليابانيين يستطيعون أن يضربوا بسرعة وأن يرتدوا إذا ما ضغطوا بقوة، وأن يحدوا من مدى مخاطرتهم حسب الظروف والملابسات.

وكان اليابانيون يرون أنه من الضروري في الميدان الاستراتيجي تكبيد العدو الخسائر التي يمكن معها إبقاء العدو بعيدًا عن المياه التي تعمل فيها سفن نقل الجنود، وكان الهدف في الميدان التكتيكي تحطيم جزء من أسطول العدو يضطر معه للارتداد من هذه المياه المُحرمة عليه، فقط يجب تحقيق هذه الخسائر بأقل قدر من المغامرة أو المخاطرة.

ولقد كشفت الحرب الصينية اليابانية ١٨٩٤ – ١٨٩٥ عن التعاون بين الجيوش اليابانية في البر والبحر، وهذا أمر قد شكا هيديوشي طويلًا من نقصه، وكان اليابانيون يعرفون أن الأسطول الصيني الذي يقوده أمير البحر تينج Ting، لا يُعتبر تهديدًا خطيرًا كما يبدو على الورق بسبب عدم الكفاية إن لم يكن لسبب آخر هو أن الذخيرة الثقيلة التي كانت لدى الصينين كانت غير كافية كما كانت غير مؤثرة، وكانت سرعة نيران اليابانيين أربعة أو خمسة أضعاف سرعة نيران الصينيين، وكان اليابانيون يفضلون القنابل الشديدة الانفجار والتي قد لا تسبب ضربات قاتلة على المقذوفات التي تستطيع الاختراق والتي لا تؤثر إلا إذا أصابت مواضع معينة حساسة من السفينة، وكان اليابانيون أيضًا تواقين لوقف العدو في المراحل الأولى للاشتباك أكثر من رغبتهم في تطلب وقت إضافي لإغراق سفن (العدو)، وكلما طال وقت استمرار المعركة عظمت الفرصة التي يستطيع معها العدو أن يتلف أو أن يُدمر سفنًا يابانية.

***

وقد بدأت الحرب بقذف سفينة النقل الصينية كاوشنج بطوربيد، والتغلب على عدد من السفن الحربية الصينية الصغيرة، وقد حاول أمير البحر تينج الخروج إلى البحر ولكنه فشل في معرفة مكان خصمه إيتو الذي

كان مشغولًا بحراسة سفن نقل الجنود، على أن الصينيين في غمرة فزعهم من النجاح الذي يحققه اليابانيون في كوريا، وفي خضم خوفهم من أن القوات المتحركة برًا قد تصل متأخرة جدًّا، في غمرة هذا وذاك بعثوا بأسطول من سفن النقل عبر البحر الأصفر تحت حراسة مجموعة من سفن أمير البحر تينج، وقد فشل اليابانيون في منع نقل الجنود الصينيين كما فشلوا في منع عودة السفن التي خلت من حمولتها، وإن كانوا قد أفلحوا في الاشتباك بأسطول صيني ونجحوا في وقتٍ ما في الإحداق به.

وقد وصفت هذه المعركة البحرية في كلمات قصار كتبها القبطان ج. داريوس من الأسطول الفرنسي في كتابه الحرب في البحر، جاء فيها[١]:

«وقد اتبع أمير البحر إيتو في غمرة قلقه من عدم كفاية الوقاية لسفنه، ولرغبته في نفس الوقت. الانتفاع من الأفضلية التي توافر له ولا شك في السرعة وفي نيران المدفعية، فإنه – مع إبقائه قولين من سفنه على مسافة تزيد على ثلاثة آلاف متر من سفن العدو – اتبع مسارًا يتغير تدريجيًا، وهكذا فإنه استطاع بالتدريج الإحداق بالجنب الأيمن للسفن الصينية، وضغطت هذه السفن التي في الجناح الأيمن بقوة ومباشرة، فلما أن دارت البوارج الصينية بسرعة لمساعدة السفن الصغيرة التي في الجناح الأيمن اضطرب انتظام تشكيلها وسترت نيران بعض السفن نيران سفن أخرى، وفقد الصينيون المعركة».

ولكن أمير البحر إيتو والذي تلقى عددًا كبيرًا من سفنه بعض الخسائر لم يعمل لاستثمار ما حققه من نجاح، ومع أن ضابطًا يابانيا قد عبر عن رأيه في أن استمرار المعركة لساعة أخرى سيمكن من الاستيلاء على أكبر

(١) ص ١٠٥، وقد ترجم هذا الكتاب ونشره المعهد البحري الأمريكي (أنابوليس سنة ١٩٠٨).

وحدتين في الأسطول الصيني، برغم هذا فإن أمير البحر إيتو نفض يديه من المعركة ورجع بأسطوله إلى قاعدته.

وقد كتب إيتو عن هذا في تقريره: لما كانت مجموعة سفني السريعة قد انفصلت بمسافة طويلة عن القوة الأساسية وحسب تقديري أن الشمس تقترب من الغروب فقد تخلصت من القتال[١].

وقد ذكر ثقة معاصر أن (أمير البحر إيتو قد أنب لأنه لم يُدمر كل الأسطول الصيني)[٢] وذكر ناقد في تاريخ لاحق بأن النصر كان أبعد ما يكون عن الرأي المثالي لنلسون وهو ضرورة تحطيم العدو[٣]. وقال داريوس إن النصر لم يكن كاملًا[٤]، وقد تكون هذه في الواقع آراء غربية، ولكن من وجهة نظر التفكير الياباني فلقد أمكن منع الصينيين من التدخل في تحركات السفن ناقلة الجنود عبر البحر الأصفر، وانصرف الأميرال إيتو لحراسة سفن النقل المُتجهة إلى بورت أرثر واشترك في تدمير القلعة الصينية التي أمكن بسرعة الاستيلاء عليها.

وكانت المعركة الرئيسية النهائية في الحرب أضعاف القاعدة الصينية ويي. هاي. ويي Wei Hai Wei، في عملية بحرية يمكن أن تعتبر النموذج الأصلي الأول لهجوم اليابانيين على جاوه سنة ١٩٤٢، وكذلك بالنسبة لعملياتهم في أي مكان آخر من جزر الهند الشرقية؛ فقد أنزل الجنود على جانبي المواقع الصينية التي أبقيت تحت نيران تدمير بحري مستمر. وبعد أن

(١) Brassey's Naval Annual (London, ١٨٩٥), p. ١٠٧.

(٢) Vladimir, The China-Japan War (Kansas City, ١٩٠٥) p. ١٢٦.

(٣) H. W. Wilson, Battleships in Acticn (London, n. d.) I, p. ١٠٥.

(٤) War on the Sea, p. ١٠٦.

فشلت المدمرات اليابانية أكثر من مرة في النفوذ إلى الميناء الذي يسده حاجز بري بقصد تكبيد سفن أمير البحر تينج الراسية في الميناء خسائر فادحة، وبعد هذا الفشل الذي غرقت فيه سفينة يابانية كبيرة بنيران القلعة الصينية استطاع الغزاة أن يحتلوا القلعة الصينية نفسها.

وكان الضغط الذي استخدمه اليابانيون في هذه الحرب أكثر بقليل مما هو ضروري لازم لضمان وتأكيد النجاح الذي حققته قواتهم البرية، ولو كان اليابانيون قد حاولوا مزيدًا من الضغط لبدا عملهم وكأنه من غير الحكمة القيام به، ولكان أمرًا غير ضروري ذلك لأنهم فقدوا إحدى سفنهم دون ما سبب في معركة لا ضرورة لها، أو في محاولة لإطالة وقت المعركة دون ما حاجة مُلحة لهذا، على حين أن فقد هذه السفينة المقاتلة قد يكون له تأثيره في مصير سفن نقل الجنود التي تعتمد في سلامتها على حماية هذه السفينة المقاتلة.

والفرق بين هذا التفكير الياباني وبين تفكير الغرب لا يمكن أن يتضح بأفضل مما توضحه مقارنة اهتمام اليابان بألا تعرض وحداتها البحرية إلا لأقل ما يمكن من المخاطرة والمغامرة وكذلك استخدامها للقوات البحرية ضد الأغراض البرية، مقارنةً هذا بتعليقات للأميرال نلسون الإنجليزي، ففي سنة ١٧٩٦ كتب نلسون:

«أنه لا يغضب لشيء غضبه لاستخدام السفن الإنجليزية لمعاونة القوات البرية، فإن واجبه هو تصيد سفن العدو، فإذا ما وجدت هذه السفن في أي مكان مع توافر أي إمكانيات لمهاجمتها فثق بأن هذه السفن تؤسر أو

تحطم حتى ولو كنت أخاطر بسفني»[١].

وعندما بدأت الحرب ضد الروسيا سنة ١٩٠٤ كان الـڤيسكونت إيتو يتولى السيطرة الكاملة على كل العمليات وكانت القوات البحرية تحت قيادة أمير البحر توجو، ومع أنه قبل ست سنوات لم يسمح لجيش أمريكي بالتقدم نحو كوبا إلا بعد الكشف عن مكان الأسطول الأسباني وتحطيمه مع هذا فإن اليابانيين لم يفقدوا أي وقت وبعثوا لتوهم بالسفن التي تنقل الجنود إلى سواحل العدو، وكان هذا العمل من جانب الأمريكان يعني تقليل الخطر الذي قد تعرض له سفن نقل الجنود دون أن يكسب العدو شيئًا من هذا التعطيل للعملية، ولكن الأميرال إيتو لم يكن يستطيع أن يمنح الروس أي وقت فقد يجعلهم هذا أكثر قوة، وكانت في مياه بورت أرثر قوة من البوارج ولكنها لم تكن قوة ذات بال، وكانت في مياه ڤلاديـڤوستك مجموعة صغيرة من الطرادات، وإذا حصل الروس على الوقت بعث القيصر بأسطول بحر البلطيق إلى الشرق الأقصى، وكان من الواضح أن اليابانيين لم يكونوا ليتقبلوا تحقيق نصر على أسطول بورت أرثر يمكن أن يتركهم ضعافًا عن أن يواجهوا الإمدادات الروسية، وكان من الواضح أيضًا أن استيلاء اليابانيين على السواحل التي يسيطر عليها الروس في الشرق الأقصى، فإن هذا سيزيل آليًا أي تهديد بحري ضد اليابان، ثم إن السفن الروسية في مياه الشرق الأقصى لهي أكثر خطرًا مما كانت السفن الصينية، ومن ثم فهي يجب أن تواجه بقوة أكبر، وهنا يجب أن تؤكد بأن الأميرال توجو قد قام بتدابير دفاعية لحماية جيوش بلاده أكثر من أن يعمل في طابع هجومي مع إبقائه

---

(١) Sir Nicholas Harris Nicolas, The Dispatches and Letters of Vice Admiral Lord Viscount Nelson (London, ١٨٤٦), VII pp. Ix, Iviii.

عينًا على قوات العدو البحرية وحدها.

وقد أثبتت صحة هذه الملاحظة الأخيرة الجملة الأولى في التقرير الرسمي الياباني الذي عرض لبحث النشاط البحري المبكر في هذه الحرب، ولم يكن من الممكن أن يكتب مثل هذا التقرير عن أعمال نلسون أو بيري أو دراك أو بول چونس أو فاراجوت.

«وقام الأسطول الياباني المشترك بتحركات مُهددة ناجحة ضد أسطول العدو مما سبب أن أغفل الأسطول الروسي تمامًا أي فكرة للخروج من بورت آرثر، ولكي يعاون القائد العام توجو عمليات الجيش أصدر أوامره إلى فرق ساين Saien بأن تحول من اتجاهها ولتهدد العدو لمعاونة الجيش الثالث»(١).

وبجعل العدو يغفل الخروج من بورت آرثر أمكن تجنب خوض غمار معركة بحرية، ولكن في نفس الوقت كانت سفن نقل الجنود التي تترك اليابان آمنة مطمئنة لعدم إمكان تعرضها لهجوم أي سفن للعدو، وهذه الكلمات المقتطعة من التقرير لها طابعها المميز بخاصة عندما تقرأ مع الترجمة الفرنسية لخطبة الأميرال توجو السابق الإشارة إليها:

«بمجرد أن بدأت العمليات العدائية وضعت موضع التقدير – في ضوء أوامر جلالتكم – طبوغرافية البحر والبر ومنطقة القتال البري وانتهيت إلى أن قوة العدو الأساسية كانت على جانب بورت آرثر ومن ثم شغلت بذلك الاتجاه لا في اتجاه ڤلاديڤوستك »(٢).

(١) United States Naval Institute Proceedings (September-October, ١٩١٤), p. ١٢٨٣.

(٢) Revue Maritime, CCI (April-June ١٩١٤), p. ٣٣٩.

وقبل أن تعلن الحرب في الطابع الرسمي المعروف كان الأميرال توجو قد مخر عباب البحر في اتجاه بورت آرثر، دافعًا أمامه قوة من المدمرات وجدت الأسطول الروسي في مرساه فقذفت بالطوربيد بارجتين وطرادة دون أن تغرق أيًا منها، وقد تقدم الأميرال توجو نفسه – برغم إخطاره بالموقف – في حذر ما بعده حذر في الوقت الذي كان يستطيع فيه القيام بهجوم حاسم يفني العدو، وعندما وضح أن بطاريات مدفعية المدافعين قد تسبب بعض الأضرار للسفن المُهاجمة أمرت هذه السفن بالانسحاب للخلف، وكانت هذه هي الحركات التهديدية المُشار إليها فيما سبق.

وهكذا حتى تلك المرحلة من الحرب قصر إنزال الجنود اليابانيين على الساحل الجنوبي لكوريا، وعندما جاء الوقت لإرسال جيش إلى كوريا الغربية بذلت محاولات جدية لمنع الأسطول الروسي من ترك بورت آرثر بإغراق سفينة في مدخل الميناء، وكانت هذه العملية عملية ناجحة، بدأ الأميرال توجو بعدها تحركات مليئة بالمطامع بإنزال جنود البحرية في نقطة قرب المياه الضيقة فاصلًا شبه الجزيرة التي تقع عليها بورت آرثر عن الأرض الأساسية للشمال منها.

وكانت رأس الكوبري التي أنشأ اليابانيون عندها قاعدة بحرية أمامية تقع في مقابل جزر اليوت، وقد شبكت الجزر معًا بسدادات مانعة لقوارب الطوربيد، كما بثت الألغام في كل خطوط الاقتراب إلى أماكن إنزال الجنود، وشكرًا لوصول أسطول سفن نقل الجنود فقد قطعت القلعة الروسية والقاعدة البحرية عن باقي قوات قيصر الروسيا في منشوريا.

وحصل اليابانيون بالإضافة إلى هذا على قاعدة يمكن منها توجيه الهجوم ضد جيوش العدو الأساسية من الغرب، كما يمكن توجيه هذه الهجمات أيضًا

من كوريا من الشرق، وهكذا أمكن صدق عرض الفكر البحري الياباني في بحث للـڤيس أميرال ڤيسكونت ناجابو أوجاساوارا جاء فيه:

«**وبالنسبة لتكتيكات چيموتينو فإن القيام بالتفافات طويلة بالبحر بقصد تحطيم العدو من الخلف – من ساقته – لهو أسلوب يتفق من كل الوجوه مع ما تقوم به أساطيلنا الحديثة**»[١].

وعندما أنزل الجنود من السفن في مقابل جزر اليوت وجهوا نحو المنطقة الساحلية الضيقة والتي أرسلت نحوها أيضًا بعض قوارب المدفعية، فلما أن تعطل وصول قوارب المدفعية عن الوقت المناسب تأجل الهجوم البري إلى اليوم التالي، وكانت هذه هي العلاقة بين العمليات البحرية والعمليات البرية في تقدير طوكيو.

وبينما بدأت التحركات اليابانية البرية الأساسية من عدة نقاط على ساحل كوريا – منشوريا، مُتجهة للشمال نحو مكدن، ونحو النصر المُحقق، فإن التحركات المليئة بالأطماع، والتي أشير إليها من قبل، كانت في الواقع بحرية الأهداف برغم توجيهها على البر، إلى غاية ما يعني الأمر ببورت آرثر، ولم يكن من المتوقع أن يبقى الروس في مواقعهم مع هذا الحصار الذي يواجهونه في البر والبحر، ولهذا اطمأن المهاجمون إلى عامل الوقت، إلا أنهم عندما عرفوا بأن أسطول بحر البلطيق قد وجه للرحيل قاصدًا الشرق الأقصى زادوا من ضغطهم، وفي هذه المرة لم يكن هدفهم قلعة بورت آرثر بقدر ما كان هدفهم الأسطول الذي تؤويه هذه القلعة، واليابانيون يستطيعون أن يقدموا الآلاف من الضحايا البشرية مع خسارة الكثير من

(١) Ogasawara, Revue Maritime, Paris, CXCVIII (July-September, ١٩١٣), p. ٢٦٠.

العتاد العسكري في سبيل تحقيق غرضهم بالاستيلاء عليه، ولهذا كان الأيسر لهم التضحية بآلاف المقاتلين دون أن يعرضوا سفنهم الحربية للخطر، وقد كتب الليفتينانت چنرال السير إيان هاملتون المراقب الإنجليزي المُلحق في هيئة أركان الحرب للجيش الياباني الأول في تقريره عن الحرب:

«**تحدثت طويلًا اليوم إلى أحد الضباط أركان الحرب، وكان حديثنا أساسيًا عن بورت آرثر وتأثير مدافع الهاوتزر عيار ١١ بوصة. ويبدو لي أنهم أصابوا السفن التي في الميناء عدة إصابات، وأنه عندما يستطيع الـچنرال نوجي إغراق السفن فإن بعض رجال جيشه يمكن إحضارهم إلى هنا**»[١].

وكلمة هنا هذه تشير إلى نقطة في الداخل تبعد مائتي ميل للشمال، ومن هذا يمكن رؤية أن اليابانيين كانوا يشعرون باستطاعتهم التقليل من جهدهم ضد بورت آرثر عندما يتم تدمير الأسطول الروسي، أي يكون الغرض قد تم حتى ولو لم تكن القلعة قد سقطت في أيديهم.

على أنه قبل أن يحدث هذا خرج الأسطول الروسي من مكمنه، وكانت النتيجة معركة رائعة على مثال معركة نهر يالو بين أميري البحر إيتو وتينج، كان الروس يقصدون الوصول إلى ڤلاديڤوستك وكان قصد اليابانيين أن يمنعوا هروب الأسطول الروسي، وكانت الفكرة وراء الأمرين فكرة عسكرية، فطوكيو لا يمكن أن تنظر إلى محاولة حصار ڤلاديڤوستك دون أن تضع موضع التقدير النتائج الخطيرة، فالمنطقة صالحة جدًا للدفاع. وكان من المفهوم أن الضباط اليابانيين كانوا يشعرون بفزع من مجرد التفكير في مهاجمة الموقع واقتحامه، وفضلًا عن هذا فلم تكن له قيمة كبيرة بالنسبة

(١) A Staff Officier's Scrap-Book during the Russo-Japanese War (New York, ١٩٠٧), II, ٢٧٠ - ٢٧١.

لليابان، فالجزر اليابانية تسيطر على ڤـلاديـڤوستك وتسد مداخلها، والمواقع التي تستحق المغامرة والتي يُعتبر الاستيلاء عليها كسبًا تقع كلها للغرب – كوريا ومنشوريا – بل وفي أرض الصين نفسها؛ ولكن تمزيق قوات قيصر الروسيا البحرية في بورت آرثر وڤـلاديـڤوستك كان أمرًا أقل نتائج بل وأقل مظهرًا من الانضمام إلى القوات البحرية الألمانية والإيطالية التي تضاد بريطانيا في هذه الحرب العالمية الثانية. ***والواقع*** أنه بالرغم مما جاء في البيانات اليابانية مُضادًّا لهذا، - هذا فضلًا عن أن البيانات نفسها تضاد التوضيح المنطقي لوجهات النظر اليابانية – فلقد كان الأمر إبقاء الأسطول الروسي ببورت آرثر في قاعدته، وبذلك يمكن أن تمسك به القوات البرية إذا لم يتم تحطيمه بسلسلة من الاشتباكات من البحر على شريطة ألا يواجه اليابانيون إلا أقل ما يمكن من المخاطر.

وتوضح الاستراتيـچية والتكتيكات للقوات المتضادة بجلاء أن اليابانيين قد أغفلوا كل العوامل عدا العامل الأساسي عامل محاولة الروس الوصول إلى ڤـلاديـڤوستك، وكانوا أكثر اهتمامًا بمنع تنفيذ الخطة الروسية هذه أكثر من اهتمامهم بتحطيم أسطول قيصر الروسيا، ولقد كان من الممكن بالعمليات القريبة مع النيران السريعة تحقيق هذا التحطيم والقضاء على الأسطول الروسي في بورت آرثر، ولكن اليابانيين بدلًا من هذا حاولوا تحقيق هذا الغرض بالبقاء على مرامٍ بعيدة وقذف السفن الروسية بقنابل مدفعيتهم، واتخذ اليابانيون تكتيكات المرمى البعيد كقاعدة أساسية لعملياتهم وإن كانوا في نفس الوقت قد قاموا بعمليات عارضة على مرمى قريب فقط تبعًا لنظرية الضرب والهروب وفي هذه العمليات العارضة كانوا يقذفون السفن بأقصى ما في وسعهم من نيران.

وفي معركة البحر الأصفر، ١٠ من أغسطس سنة ١٩٠٤، والتي تلت خروج الأسطول الروسي انصرف الأميرال توجو إلى القتال من مرمى طويل، وكما حدث في القتال الذي انتهى بهزيمة الأميرال تينج اضطرب الخط الروسي ولكن هذا لم يحقق إلا القليل من الكسب لليابانيين، ومرة أخرى أدى اقتراب الظلام وضغط المدمرات الروسية إلى أن يتخلص توجو من المعركة وينفض يديه منها، وأفلحت بارجة روسية واحدة – برغم ما أصابها من تلف – أن تصل إلى كياوشاو، أما باقي السفن الروسية فعادت ثانيةً إلى بورت آرثر.

ولم يكن توجو كنلسون، مؤمنًا بضرورة استمرار القتال حتى يتم تحطيم قوة العدو، ومع هذا فإن الأميرال توجو بعث بتقريره قائلًا: إن القتال قد وجه ضربة قاضية لخطط العدو، وكان النجاح الذي حققه في تقديره أنه منع العدو من الوصول إلى ڤلاديڤوستك.

***

ومع أنه لم تغرق سفينة واحدة فقد عم الفرح أرجاء الجبهات البرية عندما وصلتها أنباء المعركة، وقد كتب السيرايان هاملتون عن هذا يقول:

«**لقد عم الفرح مركز الرياسة، ويقول «سوجبورا»** أنهم يتوقعون سقوط بورت آرثر في مدى ثلاثة أو أربعة أيام، وأن الأسطول سيكون غنيمة باردة ولقمة سائغة للغزاة»(١).

ولم يتجنب الأسطول إفناء العدو لقصد الإفناء وحده فحسب، بل أن الأسطول لم يصر على أن قوة العدو غرضه الطبيعي لأن هذه القوة تطفو على

(١) نفس المرجع ج٢ ص ٩.

سطح الماء، وكأنه كان على تشكيلات سفن العدو أن تتحرك بعيدًا عن قوة اليابانيين البرية حتى تكون غرضًا قانونيًّا لقوات اليابان البحرية، وهنا نجد أن استخدام الطائرات قد أحدث تغييرًا واضحًا في وجهة النظر هذه.

على أنه عندما كانت هذه المعركة دائرة الرحى أسرعت الطرادات الروسية الثلاث التي في ڤـلاديـڤوستك، أسرعت بالتحرك جنوبًا آملة أن تنضم لبقية الأسطول الروسي عند تحرك السفن شمالًا، ولكن عندما دخلت الطرادات الروسية بحر اليابان، وعلى مسافة أميال قليلة للشمال من مضيق تسوشيما واجهت قوة بحرية يابانية تفوقها عددًا تحت قيادة الأميرال كانيمورا، وأعاد التاريخ قصته من جديد، حدث القتال من مرمى طويل وعندما اكتشف كانيمورا أن إحدى السفن الثلاث قد توقفت عن الحركة وأن السفينتين الأخريين مع تكبدهما تلفًا كثيرًا ترتدان شمالًا نحو ڤـلاديـڤوستك نفض يديه من المعركة.

ولقد انتقد التاريخ الرسمي البريطاني توجو وكانيمورا لإغفالهما القاعدة الأساسية للحرب من أنه ما دامت المعركة قد بدأت فلا يصح إطلاقًا توفير أي جهد لجعل نتيجتها حاسمة[١]، ومع أن هذا يجب أن يكون طابع كل قتال إلا أنه لم يكن القاعدة المثلى في نظام الحرب اليابانية البحرية.

وعندما اضطرت السفن الروسية للارتداد للوراء إلى موانيها تحرك الجيش الياباني ثانية بعزيمة نحو بورت آرثر وكان مفتاح الموقع هو التل ٢٠٣ الذي يسيطر على الميناء والذي يمكن من مراقبة قذف سفن الأسطول بالقنابل،وبعد أن أمكن صد سلسلة من عمليات الاقتحام العنيفة بواسطة

---

(١) H. W. Wilson, Supra, P. ٢٢٤.

المشاة، بخسائر فادحة بلغت عشرة آلاف جندي، بعد هذا أمكن الاستيلاء على التل، كما أمكن وضع نقطة مراقبة المدفعية في قنته، وكان من الممكن إذ ذاك وضع مدافع الحصار اليابانية الثقيلة وتوجيهها ضد السفن الروسية، ومن ثم كانت النهاية تبدو واضحة فقبل ساعات قليلة ستكون السفن الروسية قد دمرت.

وبدأت مرحلة أخرى بعد سقوط بورت آرثر، وأعاد اليابانيون تنظيم أسطولهم وبثوا الألغام في مياه ڤـلاديـڤوستك لمنع السفن الروسية التي في الميناء من الخروج ثانية للتدخل بصورة أسطول البلطيق، الأسطول الذي يعرف رسميًا باسم «**أسطول الباسيفيك الثاني**» والذي يقوده أمير البحر رويدستـڤينسكي.

كان أسطول بورت آرثر قد بات قصة في سجل التاريخ فقد تمت معركة برية كسبها اليابانيون، ومن هنا كان من الواضح أن الأسطول الثاني لن يكون تهديدًا له خطره سيما بعد هذه الرحلة الطويلة من البلطيق إلى الشرق الأقصى.

لقد تعقب نلسون الأسطول الفرنسي الذي كان يقوده ڤيلينيـڤ عبر الأطلانطيق حتى جزر الهند الغربية ثم عاد إلى تراڤـلجار (الطرف الأغر) ليقاتل في معركة حاسمة، ولكن توجو لم يفكر حتى في سبق الروس بالخروج إلى المحيط الهندي ومقابلة الأسطول الروسي في البحر الفسيح بعيدًا عن أية قواعد تستطيع السفن أن تلجأ إليها لو أفلحت في الفكاك من المعركة، ولو كان أمير البحر رويديستـڤينسكي قد بدل من اتجاهه عندما وصل إلى جوار شنجهاي لما كان هناك ما يحول دون عودته إلى أوروبا، وكان الأسطول الياباني حاجزًا دنيمائيًا أكثر من أن يكون حربة لطعن العدو،

ففي العمليات الأولى أمكن رد الأسطول الروسي إلى قاعدة ثم أمكن الاستيلاء على تلك القاعدة بعد ذلك، ولكن في هذه المرة كان القصد إبقاء الأسطول الروسي بعيدًا عن قاعدته، وكلما أمكن تكبيد العدو خسارة كبيرة دون إضعاف مهاجميه أمكن إرباك خطته، ولكن كون هذا الإتلاف قد أنتج إفناء الأسطول الروسي فالواقع أن هذا إنما يرجع إلى أخطاء الروس بأكثر مما يرجع إلى التخطيط الياباني، ولكن مع هذا من الضروري أن نذكر هنا بأن اليابانيين قد قدروا قوة الأسطول الروسي تقديرًا صحيحًا سليمًا ثم وضعوا التخطيط للمعركة التي تحقق الانتصار على هذا الأسطول دون ما إسراف في الجهد أو التعرض للخطر، فكان التخطيط تخطيطًا سليمًا يتمشى مع الاقتصاد في ضوء التفكير الشرقي لا في ضوء التفكير الغربي.

وعندما أبحر توجو لمقابلة العدو فإنه دعا إلى تحقيق نصر حاسم يفنى فيه قوات العدو، وكان هذا حثًا لجنوده أكثر من أن يكون «بيانًا» لغرضه، فإن المحاولة غير المؤثرة ضد أسطول بورت آرثر في المراحل الأولية للحرب صحبت بتلميحات كتلك التي كان يقوم بها نلسون وإن كان قد قصر عن أن تتوافر له جرأة نلسون واندفاعه، وفي خطبة توجو في أعقاب الحرب، الخطبة السابق الإشارة إليها، ناقش الأميرال توجو المعركة الحاسمة ضد رويديستـڤينسكي بالطبيعة، وقد ترجمت خطبته عدة ترجمات، ولكن الفقرة التالية مقتطفة من الترجمة الفرنسية، وقد جاء فيها:

«وحشدت كل قوتي في مضيق كوريا، وقد اعتزمت إزعاج العدو بالنيران، ولكن جنودي خاضوا المعركة بشجاعة وشكرًا للعون الإلهي فقد

حققنا نتيجة عظيمة»[١].

وقد يكون توجو رجلًا متواضعًا أراد امتداح جنوده والإشادة بشجاعتهم في القتال، ولكن كان من الممكن أن يفعل هذا بعدة سبل دون أن يشير بكلمة أو بجملة يمكن أن تعني هذه أو تلك اعتزامه الاكتفاء بإزعاج العدو بالنيران بدلًا من تدمير قواته، وعمله في أثناء الاشتباك يدل بوضوح على أن هذه النتيجة العظيمة جاءت من تطورات المعركة لا من الخطة الأصلية، على أنه قد يكون من الضروري أن نذكر هنا أسطولًا سيئ القيادة كأسطول أمير البحر رويدستـڤينسكي ما كان ليأمل في البقاء واحتمال الهزيمة في مياه تبعد مئات الأميال عن أقرب ميناء صديقة أو محايدة.

وقد نستطيع أن نجد في تصريحين سابقين للأميرال توجو ما يكشف عن اتجاهات تفكيره في الوقت الذي حدثت فيه معركة تسوشيما:

«**إن أهم عامل في المعركة هو الحرص، ولقد حدث مرارًا في الماضي أن خلفت المعارك وراءها من الحوادث ما يأسف له القادة ويلومون أنفسهم بسببه**»[٢].

ويمكن أن ننظر في ضوء هذا التصريح إلى مراحل المعارك، المراحل التي قصر فيها عمل سفن ايتو وتوجو وكانيمورا على التراشق بالقنابل من مرام بعيدة.

وكان التصريح الثاني يقول:

---

(١) Revue Maritime, CCI, ٣٤٠.

(٢) Ogasawara, Life of Togo, P. ٣٢٦.

«لو كان على سفينة غير مدرعة أن تسكت نيران سفن العدو بزيادة عنف نيرانها هي، كان من الممكن أم يحدث هذا عمليًا لو كانت السفينة هي أقوى السفينتين تدريعًا»[١].

على أن هذا التصريح الثاني بالإضافة إلى كونه تعليقًا على اهتمام اليابانيين بسرعة النيران وقوة المدافع قبيل المعركة بوقت قصير، فإنه كان «**موضوع عدة محاضرات في البحرية البريطانية**»، وهذا التصريح ينطبق على معركة تسوشيما، ففي هذه المعركة كانت الأفضلية في البوارج إلى جانب الروس وملأ اليابانيون كل الثغرات بالمدمرات الثقيلة التي قال عنها البعض أنها بوارج مستترة في صورة مدمرات[٢]، ولكن كانت تتوافر لليابانيين الأفضلية في السرعة.

وكان الفرق الواضح بين معركة تسوشيما وبين معركتي يالو والبحر الأصفر أنه في تسوشيما قام اليابانيون بمطاردة العدو الذي يحاول الفكاك من المعركة،ولكن في المعركتين السابقتين اكتفى اليابانيون برد العدو عن وجهته دون أن يتابعوا استثمار النجاح الذي أمكن تحقيقه في الأدوار الأولى من المعركتين،وقد تطلبت تكتيكات المطاردة سرعة تحطيم جزء من أسطول العدو وبدأ محاولته للانسحاب، توقفت عمليات السفن الكبيرة، وبدأت المدمرات السريعة تعقب العدو للقضاء عليه.

ويبدو أن اليابانيين في تسوشيما قد استخدموا سلسلة من عمليات المطاردة، تبدأ كل بضرب يعقبه تراجع، وفي نفس الوقت يعملون لتخير مواقع أفضل على خط تقدم الروس فيشتبكون مع السفن الروسية من مرام

(١) نفس المرجع ص ٣٢٧.

(٢) Archibald S. Hurd Naval Efficiency (London, ١٩٠٢) p.١٠٦.

بعيدة، وتتوقف العمليات ليلًا لتقوم المدمرات وقوارب الطوربيد بمتابعة الهجوم وحدها، وفي نفس الوقت كان اليابانيون يرتدون شمالًا إلى موقع بين بقية الأسطول الروسي وبين ڤلاديڤوستك ليمكن أن يتقبلوا فيه استسلام بقية أسطول القيصر.

والواقع أن النظرية الغربية تقوم على أساس أن الأسطول الذي يملك قوة المبادأة وتتوافر له أفضلية في النيران يجب أن يتابع الضغط حتى يحقق نصرًا كاملًا، ولكن تبعًا لما ذكر أكثر من مرة من قبل فإن اليابانيين كانوا يتبعون أسلوبًا آخر وكان لهم منطقهم الخاص.

***

والذي حدث أنه عندما أخطر أمير البحر توجو بقوة وتوزيعات الأسطول الروسي[١] فإنه أبحر من قاعدته في جنوب كوريا، في اتجاه شرقي مارا للشمال من مضيق تسوشيما، وبذلك؛ فإنه يستطيع أن (يفتح) قواته في أي اتجاه يجعله بين الروس وبين ڤلاديڤوستك ، وتولى القائد العام الياباني قيادة القسم الأول من الأسطول الذي يحتوي أقوى سفن الأسطول الياباني، وتولى أمير البحر كانيمورا قيادة القسم الثاني الذي يتكون من الطرادات المدرعة، ومع تطور المعركة وضح أن سفن توجو هي التي سدت طريق تقدم الروس، وهنا سمح لسفن كانيمورا التي تقوم بالإزعاج أن تبعد عن الطريق البحري لـڤلاديڤوستك كي تسقط على جنب الروس، أما القسم الثالث من الأسطول الروسي والذي كان يقوم لبعض الوقت

(١) تستند كل المعلومات عن المعركة على ترجمة البلاغات اليابانية الرسمية والتي نشرت في مطبوعات المعهد البحري للولايات المتحدة في يوليو – أغسطس سنة ١٩١٤.

بالاستطلاع في اتجاه الغرب فقد احتشد ليسقط على بعض السفن الصغيرة التي تكون ساقة (مؤخرة) الأسطول الروسي، وبذلك كان هذا القسم الأخير يعمل عمل سفن أمير البحر ايتو، أي أن يقوم بدور «**الراعي**» وبدور «**القاتل**»، ولكن في معركة «**يالو**» سبب قرب القاعدة الصينية أن فشل اليابانيون في تحطيم العدو، ولكن لم يحدث هذا في تسوشيما بسبب افتقار الروس إلى قاعدة خلفهم يرتدون إليها.

وبعد الساعة الثانية عشرة ظهرًا ارتد رويديستـڤينسكي الذي كان يمر في الجزء الشرقي من مضيق تسوشيما في اتجاه شمالي شرقي، ارتد في اتجاه شمالي تمامًا، وكان توجو إذ ذاك يقوم بضغط الهجوم في اتجاه جنوبي شرقي، وهنا اضطر بدوره إلى أن ينحرف للغرب ليمنع العدو من المرور من ورائه فيصل ڤـلاديـڤوستك .

وبين الدقيقة العشرين بعد الواحدة، والدقيقة الأربعون بعد الواحدة أيضًا اتجه نحو الأسطول الروسي اتجاهًا مباشرًا لكي يقوم بحركة التفاف تعود بأسطوله إلى قطع خط سير الأسطول الروسي.

وكان هذا التطور مُظهرًا للحيرة، ومن ثم – وليعكس قلة تقدير توجو لنيران مدافع السفن الروسية – اضطر رويديستـڤينسكي لهذا الاتجاه الجديد ولمعرفته بمهارة المدفعية اليابانية أن يدور هو أيضًا للشرق.

وحشدت نيران السفن اليابانية على مقدمة الأسطول الروسي، كان المرمى قصيرًا، وكان من الضروري هنا زيادة المرمى، وبين الدقيقة الخامسة عشرة والدقيقة الخامسة والأربعين بعد الساعة الثانية تقررت نتيجة المعركة برغم إخفاء دخان السفن، فقد أرغمت السفينة «**سوڤوروڤ**» التي ترفع

علم أمير البحر «**رويديستـڤينسكي**» أن تخرج من التشكيل، وأصيبت السفينة «**أوسليابيا**» إصابة مباشرة وغرقت في دقائق.

ومع اتجاه توجو للشرق من الروس تحول الأخيرون عن مسارهم واندفعوا للشمال نحو ڤـلاديـڤوستك ، وهنا دار اليابانيون من جديد ليُعيدوا من تشكيلاتهم في اتجاه غربي ليُعطلوا تنفيذ خطة العدو التي يقصد بها الفكاك من المعركة.

وارتد الروس لاتجاه الجنوب الشرقي ثم للجنوب على حين بقي اليابانيون مُتجهين للغرب وبذلك اتسع المرمى بسرعة، «**ومن الدقيقة الرابعة والعشرين بعد الساعة الثالثة غير العدو من اتجاه سيره وضاع في دخان المعركة**»[١].

❊ ❊ ❊

وفي المرحلة التالية من المعركة نفذ توجو دورانًا جديدًا في اتجاه الشرق، وكان هذا تكرارًا لتحركاته عبر طريق العدو إلى ڤـلاديـڤوستك ، وكان من الواضح أن كلا الأسطولين يتجهان للشرق، والروس للجنوب من اليابانيين.

وفي الدقيقة الخامسة عشرة بعد الرابعة كان الروس – على ما وصفوا في التقرير الرسمي الياباني – «**في حالة يأس**»، وللموقف بعد عشرين دقيقة أي في الدقيقة الخامسة والثلاثين بعد الرابعة أهميته وطرافته بالنسبة للتفكير الياباني الحربي، كانت الأحوال غير واضحة وتبعًا للرسم التخطيطي رقم ٨ في التقرير الرسمي الياباني يبدو أن «**العدو قد غير سيره نحو الجنوب، وكان**

(١) U. S. Naval Institute Proceedings (July-August, ١٩١٤), pp. ٩٧٠ – ٩٧١.

على مرمى مجهول»، ومعنى هذا أن السفن الروسية كانت خارج مرامي مدفعية السفن اليابانية، وتابع توجو سيره نحو الشمال، ويقول التقرير هنا، «**يدور العدو بسفنه في الاتجاه المضاد (أي للجنوب)، وكان هناك بعض الشك في: هل تتجه السفن الروسية لتمر للشرق من السفن اليابانية، أو أنها ستستطيع متابعة الفرار في اتجاه الشمال؟ وللسيطرة على خط سير السفن الروسية (أي لسد طريقها إلى ڤلاديڤوستك) تابعت المجموعة الأولى من السفن اليابانية (التي يقودها الأميرال توجو) سيرها نحو الشمال**».

وعاد توجو بعد قليل فغير من اتجاهه متحركًا نحو الجنوب للبحث عن العدو، وفي الخامسة مساء اكتشف سفينتين من السفن الروسية الكبيرة ولكنه لم يهاجمها بقوة، وفي الخامسة والنصف عاد اليابانيون فاتجهوا شمالًا، وبدأوا معركة على أساس الاصطدام والانسحاب وحشدوا كل نيرانهم على مقدمة خط السفن الروسية، وكان نصيب البارجة «**ألكسندرالثالث**» نصيب «**اسليابيا**» ونسفت البارجة «**بورودينو**» وانتهت عمليات اليوم بعد السابعة مساء بقليل عندما غرقت أخيرا البارجة «**سوڤوروڤ**» التي كانت هدف المدفعية اليابانية الثقيلة وقذائف الطوربيد.

* * *

وأوقف أمير البحر توجو عملياته طوال الليل متجهًا إلى نقطة أبعد للشمال متأهبًا ليتابع من صباح غده تكتيكاته وبعث بتقريره التالي:

«**قابل الأسطول المشترك اليوم وقاتل أسطول العدو فأغرق على الأقل أربعًا من بوارجه وكبد باقي السفن خسائر فادحة**»[1].

---

(١) Captain (Kichitaro) Togo, Naval Battles of the Russo-Japanese War (Tokyo, ١٩٠٧), p. ٨٢.

ولم تكن هذه عملية إفناء، ولو كان توجو قد قاتل في مرمى قريب مخاطرًا بأن يفقد عددًا من بوارجه ومدمراته، ولو غير من خطته مُغفلًا محاولته لسد الطريق إلى ڤلاديڤوستك مُتجهًا إلى تدمير الجزء الرئيسي لسفن العدو إن لم يكن كلها، لو كان قد فعل هذا لكانت نتيجة القتال في ذلك الوقت أكبر وأخطر أثرًا، ولكن القائد العام الياباني كان تواقًا أن يترك لمدمراته ولقوارب الطوربيد العمل في أثناء الليل على أن يستأنف من غده مبارزته للسفن الروسية في حرص.

وفي أثناء الليل هوجمت الأرمادا الروسية من كل اتجاه، وهوجمت ليس فقط بالمدمرات التي في صحبة الأسطول الياباني، بل وبقوارب الطوربيد التي في الاحتياطي بجزيرة تسوشيما، وغرقت سفينتان روسيتان ومدمرة.

وفي الصباح التالي استسلمت السفن الروسية التي بقيت من أسطول البلطيق بعد أن أفلتت ثلاث سفن وصلت مانيلا، ونجحت طرادة وثلاث مدمرات في الوصول إلى ڤلاديڤوستك .

ولكن لو كان أمير من أمراء البحر الإنجليز أو الأمريكان يُقاتل في مياهه وفي وقت لم تكن قوارب الطوربيد خطرًا في ساعات النهار، لو كان .. لأصر على أن يُحقق نصرًا حاسمًا في الاشتباك الأساسي، ولكن توجو أبقى الروس خارج ڤلاديڤوستك بثمن في جملته ثلاثة قوارب من قوارب الطوربيد، ثم وزع سفنه على مختلف الخلجان التي تصلح للملاحة ليُغطي سيل الإمدادات إلى الأرض الأساسية بما في هذا طرق الاقتراب الكورية للشمال الشرقي إلى ڤلاديڤوستك .

ووقعت معاهدة الصلح دون أن تكون من حاجة للعمل في الاتجاه

الآخر، وكان توجو وكانيمورا وايتو وهيديوشي وچيموتينو – على ما هو واضح – قد اتبع نفس الطابع العام للتفكير البحري الياباني.

- ٣ -

وفي السنوات التي مرت بين نهاية الحرب الروسية/ اليابانية وبدء الحرب العالمية الأولى أوضح اليابانيون نظرياتهم البحرية في الطابع الذي بنوا تبعًا له سفنهم المقاتلة، وقد عنوا بالسرعة أكثر من عنايتهم بالتدرع وإن كانوا لم يغفلوا ضرورة جعل السفن قادرة على احتمال ضغط قذائف الطوربيد، واهتموا بسرعة النيران كما عنوا بالسيطرة الآلية التي تمكن من إطلاق كل مدافع السفينة في وقتٍ واحد، وزودت بروج السفن بالقوى الكهربية والهيدروليكية لتقليل احتمال تعطلها عن العمل بسببٍ ما(١). على أن اليابانيين في سنوات تالية لهذا واجهوا نقدًا عنيفًا بسبب الإكثار من المدافع في سفنهم وبخاصة المدمرات والطرادات إلى حد أن هذه الكثرة كانت تزيد كثيرًا عن حاجة السفن، ويبدو أن اليابانيين تبعًا؛ لأنهم كانوا قد وصلوا إلى أقصى مدى لسرعة النيران حاولوا أن يزيدوا من هذه السرعة ومن كمية النيران نفسها بإضافة المزيد من المدافع إلى السفن.

ولكن بقي تفكيرهم التكتيكي والاستراتيجي ثابتًا كما هو لم يتغير، وكان للخطة السياسية العامة الأهمية كلها وقد كشفت الحرب ضد ألمانيا سنة ١٩١٤ عن اتجاهات طابع الاستراتيـچية البحرية اليابانية، وفي فجر الحرب العالمية الأولى كان من الممكن أن يظن أي مفكرٍ غربي بأن اليابان كدولة بحرية رئيسية في الباسيفيك ستعنى أول ما تعني بالبحث عن

(١) «Notes on Japanese Navy», Revue Maritime, Paris (July-September ٩١٣).

مجموعة «**جراف ڤون سبي**» الألمانية في الشرق الأقصى وتحطيمها، وهي عندما تفعل هذا تفعله استجابةً للكبرياء القومية من ناحية ولتحرك بحري أولي من ناحيةٍ أخرى، ولكن كان من الطبيعي – في ضوء استقراء النظرية اليابانية – تقدير أن القيادة اليابانية العليا لن تلقى بالًا إلى السفن الحربية اليابانية مُقدرةً أنها لن تتدخل في العمليات البرية، وكان الاستيلاء على القاعدة البحرية اليابانية في تسينجتاو Tsingtau باقتحام بري يستند إلى تدمير بحري، ثم الاستيلاء على العدد الكبير من الجزر الألمانية في الباسيفيك لحادثات كان من الضروري توقعها على أساس تقدير الأمر من وجهة النظر للإجراءات البحرية اليابانية أكثر من تقديرها في ضوء الآراء الغربية عن استخدام القوة البحرية.

ولكي نضع موضع التقدير عدة مسائل متشابهة يجب أن ندرك بأنه يمكن إضعاف الوجود الطارئ للسفن اليابانية في مياه الشرق الأقصى، بل وإفقاده قيمته بالاستيلاء على قاعدة «**تسينجتاو** » على مثال ما حدث من إضعاف «**وي – هاي – وي**»(١) وبورت آرثر وإزالة هذه الأخطار وغيرها؛ وسيكون لإنزال الجنود إلى سواحل المستعمرات الألمانية نفس التأثير الذي كان لإنزال الجنود على السواحل التي يسيطر عليها الروس والصينيون، ولن تكون هناك رغبة قوية للقيام بجولات بحرية واسعة المدى للبحث عن بوارج القيصر الألماني بأكثر مما فعله – بالنسبة لمثل هذا – توجو أو إيتو أو هيديوشي.

على أنه من ناحيةٍ أخرى كان هناك عامل جدير مُلطف يجب أن

---

(١) Wei – Hai – Wai قاعدة بحرية نجح اليابانيون في احتلال قلعتها في حرب ١٨٩٤ – ١٨٩٥.

يوضع موضع التقدير ذلك هو تحالف اليابان وبريطانيا، وعندما أعلنت الحرب كانت البارجةڤون سبي في مياه الباسيفيك، ونستطيع من دراستنا للتاريخ البحري الألماني أن ندرك أن اليابانيين كانت لديهم فكرة عن مكان تجمعها(١)، وكانت حكومة طوكيو ولا شك تحترم دراية الألمان بعلوم البحار ولهذا فلم يكن من الممكن أن تُجازف بإرسال وحدات هامة من أسطولها لمدى بعيد للقيام بمعركة بحرية، ومن الممكن القول بأن تعطل دخول اليابان للحرب كان بسبب الرغبة في معرفة مكان مجموعة سفن ڤون سبي والتحقق من الاتجاه الذي تقصده.

وعندما اشتركت اليابان أخيرًا في الحرب بعثت بمجموعتين من سفنها إلى المياه المجاورة، إحداهما لحماية ووقاية السفن ناقلة الجنود المتحركة نحو كياوشاو والأخرى لتحاصر تسينجتاو(*) وتشترك في العمليات ضد حصونها على السفن التي أرسلت للبحث عن ڤون سبي لم تترك موانيها حتى آخر شهر أكتوبر، على أن مجموعة من السفن قد أضعفت قوتها بتوجيه بعض سفنها لاحتلال جزيرة چالويت Jaluit إحدى جزر الباسيفيك، ولربما يكون هذا جزء من استراتيـچية أوسع مدى، أو ربما كانت تقاعسًا من اليابانيين عن الاشتباك بـچنيسناو وشارنهورست، والفكرة الثانية أقرب إلى المنطق تبعًا؛ لأن البارجة ڤون سبي قد التقطت رسالة لاسلكية صادرة من منطقة قريبة منها وموقع باسم الطرادة «**كونجو**»(٢)، وكانت «**رسالة**

(١) Der Kreuzerkrieg in den auslandischen, Gewassern . I.

(*) تسينجتاو Tsingtao ميناء بحر ي في ولاية شانتونج بالصين على البحر الأصفر تعداد سكانها ٧٨٨.٠٠٠ كإحصاء سنة ١٩٤٧ (ص ١٥٦٦ – معجم ويبستر) (المترجم).

(٢) نفس المرجع ص ١٢٥ – ١٢٦.

مكشوفة»(*) موجهة للقنصل الياباني في هونولولو وتُخطره بأنها أو سفينة باسمها تُسرع في إبحارها نحو «**هوايي**».

وقد كتب ضابط ياباني عن نصيب بلاده في الحرب فقال إن اليابانيين طاردوا الألمان في الباسيفيك وأرغموا السفن الألمانية أن تندفع نحو جزر فلكلاند حيث دمرها الإنجليز(١).

ولما كانت مجموعة السفن الألمانية جراف سبي لم ترقب قط في أثناء هذه التحركات البطيئة في الباسيفيك، فقد فشل الضابط الياباني أن يُلاحظ أن السفن الألمانية قد قابلت قبل أن تخوض معركة فلكلاند بعض السفن الإنجليزية وكبدتها خسائر فادحة، وهذا أمر عمل اليابانيون لتجنبه، ويبدو أن هذا الكاتب الياباني قد أجهد كثيرًا في محاولته تفسير وإيضاح سبب سلبية السفن اليابانية، وتجنب اليابانيين المغامرة لتجنب الخسارة والخروج من منطقة العمليات الحربية لهو من التقاليد الأصيلة في النظرية اليابانية.

***

وقد قذفت تسنجتاو بالقنابل من البحر واقتحمها من البر جيش ياباني، وكالعادة قدم الأسطول معاونة كبيرة بها في هذا ما قامت به السفن المُخصصة للدفاع الساحلي، وقد كتب المؤرخ الرسمي البريطاني للحرب عن هذا: «**... وإذا كنا نحكم من هذا الاستخدام للسفن فإن العملية كانت عملية هجوم ساحلي بدلًا من دفاع ساحلي كما كان القصد أصلًا منها**»(٢).

(*) اصطلاح رسالة «مكشوفة» يعني أنها مكتوبة بلغة عادية وواضحة وليست بالشفرة.

(١) Commander G. Nakashima, I.J.N., Brassey's Naval Annual (١٩١٩), P. ٦٥.

(٢) Sir Julian S. Corbett, Naval Operations (London, ١٩٢٠), I, ٢٩١.

وهذه الكلمات هي في الواقع تعليق على الفكر البحري الياباني.

وقد زود الانتداب الذي حصلت عليه اليابان من هيئة الأمم على جزر الباسفيك التي كانت تملكها ألمانيا قبلًا، زودتها بعدد كبير من «**حاملات الطائرات**» الطبيعية، وبرغم الالتزامات التي كان يفرضها على اليابان عهد عصبة الأمم ومسئوليتها قبل الدول الكبيرة فإن هذه الحاملات الطبيعية قد أدخلت بمهارة داخل التنظيم البحري الإمبراطوري، وعادت للعلاقة بين السفينة الحربية وبين الجبل أو الخليج الأهمية التي كانت لها في تقدير رجال البحر اليابانيين في القرون الوسطى، وقد لا تكون من حاجة إلى حيز كبير لعرض اعتبارات النظرية البحرية اليابانية كما كشف عنها في مناقشاتهم ممثلو اليابان لمؤتمر واشنطون، المؤتمر الذي انعقد لبحث تحديد التسليح في البحر، فلقد كان من الواضح أنهم يمثلون الجماعات المتحفظة في الغرب، ولم يكشفوا عن الجانب المستحدث في النظريات والنوايا إلا عندما وضح قلقهم في أثناء مناقشة بناء وتسليح حاملات الطائرات.

وقد أكد الأميرال بارون كاتو أغراض اليابان الدفاعية التي أملاها عليهم الموقف في الشرق الأقصى[1]، كما حرص على أن يبعد في هدوء وأن يؤجل إلى تاريخ قادم موضوع التحديدات التي تفرض على طائرات الحرب[2].

وقد نصت المادة العشرون من المعاهدة على موافقة طابعها العجلة والسرعة «**بألا تحدث أية إضافات جديدة للتحصينات الدفاعية على**

(١) Conference on the Limitation of Armaments (Washington, ١٩٢٢). ١٤٠.

(٢) نفس المرجع ص ٧٩٦.

سواحل الممتلكات والمناطق التابعة» وذكرت على التخصيص بعض المناطق في الباسيفيك.

ولو كانت الدول الغربية قد حاولت أن تضع أي شيء أقوى من القوات الجوية المُحددة في قواعدها بالشرق الأقصى لكانت اليابان ولا شك قد وجهت الانتباه إلى المادة التاسعة عشرة على أساس أن قاذفة القنابل «**سلاح**» جديد أو أنها قطعة من «**عتاد الحرب**»، ولو كانت الدول الأخرى الموقعة على المعاهدة قد احتجت على هذا التفسير لكانت طوكيو قد نظرت إلى الموضوع على أنه «**تغيير للأوضاع** » ولطالبت بعقد مؤتمر جديد.

ولما كانت اليابان قد جنبت سباقًا بحريًّا فقد استطاعت أن تحشد كل مواردها على الاستعدادات البحرية الأخرى، وأن تنتفع بالنوايا السلمية للأمم التي لم تتوافر لها الرغبة لبحث التفاصيل الفنية، والدول، التي كان من الممكن أن تهزم اليابان سنة ١٩٢٢، أو أن ترغمها على النزول عن نواياها الاعتدائية، اتجهت دون أسباب واضحة مفهومة من التفكير في نزع السلاح في البحر إلى نزع السلاح بصفة عامة في البر والبحر.

وهكذا يبدو أن معاهدة واشنطون لتحديد التسليح في البحر يمكن أن تعتبر نصرًا بحريًّا رئيسيًّا لليابان، وكان هذا ضمانًا لا يمكن أن يُقلل من حساسية الشعور بخطر السفن المعادية في ضوء استخدامها للألغام وقذائف الطوربيد ولكن مع تفهم الطابع البارز للسلاح الجوي كانت المعاهدة – من ناحيةٍ أخرى – ضمانًا إلى أن أي أسطول مُعادٍ يقترب من المياه اليابانية – المياه التي تسيطر عليها سفن نقل الجنود – فإنه يفعل هذا بمغامرة لها خطرها، كانت الطائرة تتمشى إلى بعيد تمشيًا تامًّا مع الفكرة اليابانية عن «**سرعة النيران مع أقل تعرض للمغامرة**»، وكانت بديلًا مثاليًا – تحت

الظروف المواتية – للمدفع السريع الطلقات الذي كان له دوره في الحرب اليابانية – الصينية، كما كانت بديلًا لتحركات المناورة التي استخدمت ضد السفن الروسية، وكانت اليابان تأمل أن تكون هذه فكرة مُستحدثة تُماثل استخدام الكوريين فجأة للسفينة «**ظهر السلحفاة**».

وفي الحرب التي قامت ضد الصين سنة ١٩٣٧ دون أي إعلان رسمي استخدم اليابانيون سفن نقل الجنود استخدامًا واسع النطاق، كما استخدموا السلاح البحري الجديد: حاملة الطائرات، استخدامًا عارضًا جزئيًّا، ولم يُخاطر اليابانيون باستخدام البوارج بل استخدموا السفن القديمة لتغطية ووقاية عمليات إنزال الجنود.

وكما قلت من قبل فإن كل المؤلفات اليابانية قد قصرت على المسائل الدفاعية التقليدية، ولكن مع هذا ففي بعض الأحوال كانت التصريحات والبيانات اليابانية تُعطي فكرة عن الأشياء التي ستجيء، وإن كان من الصعب اختراق السجف الدفاعية في هذا اللون من الحديث عن المستحدثات المتوقعة، وفي مناسبة ما في مطلع سنة ١٩٣٧ أشار القيس أدميرال يوناي Yonai وزير البحرية إلى أن «**سياسة الأسطول (هي) تدمير قواعد العدو الجوية قبل أن تستطيع طائرات العدو الوصول إلى أراضي اليابان الأساسية**»[(١)]، وبذكره لكلمات «**الأراضي اليابانية الأساسية**» وجه الأنظار بعيدًا عن التفكير في أغراض أي حملة عسكرية اعتدائية من جانب اليابان.

ومن الممكن أن نذكر هنا أن هيديوشي قد عمل بوسائل دبلوماسية

(١) Associated Press dispatch,Tokyo, February ٢٧, ١٩٣٧.

للاحتفاظ برءوس جسور كبيرة القيمة على سيواحل كوريا، وأن نذكر أن اليابانيين قد عنوا دائمًا بإزالة كل تهديد لهجوم بحري بواسطة احتلال القواعد التي يمكن منها أن تخرج قوات هذا الهجوم البحري، وباستيلاء اليابانيين على الموانئ الصينية وعلى المطارات ومناطق القواعد الجوية فإنهم لم يحرموا الدول الغربية – المعنية عناية كبيرة بالشرق الأقصى – فحسب، بل وضمنوا لأنفسهم قواعد قريبة جدًّا من المناطق المتوقعة للعمليات.

ومع أن هذا قد أوجد حالًا عدائية ضد الصين فإنه لم يكن الحرب التي تُعنى بها الدول الأخرى، ولما كان الأسطول الياباني بدوره يشعر بحساسية نحو أحدث الأسلحة الحديثة فإن مطالب الحرب ضد الصين أمدت اليابانيين بالسبب لدخول اليابان للهند الصينية، وأمد هذا اليابانيين بسلسلة متصلة من المطارات والقواعد البحرية من كوريا إلى حدود تايلاند حيث مكن التآمر من دفع المواقع اليابانية إلى حدود الملايو.

ولم تختلف النظريات التي اتبعها الأميرال رئيس الوزراء توجو في أيٍ من الاتجاهات الضرورية عن تلك التي اتبعها من سبقوه، فالفكرة العامة هي تجنب الاشتباك بالأسطول، وفي سنة ١٨٩٣ حذر إمبراطور ياباني من المخاطرة بقوله: «**لو حدث خطأ واحد في المسائل الخاصة بالدفاع القومي فقد يمكن أن تبدو عواقب هذا الخطأ بعد قرنٍ كامل**»[(١)].

وتطبيق هذه الفكرة الأساسية في سنة ١٩٤١ كان تطبيقًا مُستحدثًا له جديته كما كان هذا في سنة ١٨٩٣، أو كما كان قبل قرون، وهنا يمكن أن نجد أن وسائل أخرى أكثر تقبلًا «**للإنفاق منها** » – أي لمواجهة الخسارة

(١) Ogasawara, Revue Maritime, CC (January-March ١٩١٤), p ١٢٣.

فيها – كسفن نقل الجنود والجيوش وأسراب الطائرات هي التي تحتمل جهد المعركة، وكالعادة يستخدم جزء من الأسطول ضد أغراض أرضية ولكن القوة الأساسية للأسطول تظل السند الأخير الذي يحتفظ به للقتال عندما تكون كل الظروف مواتية وتكون الأفضلية في جانبه، وكان التغيير الضروري الوحيد بين الماضي والحاضر له طابعه الجغرافي، ففي الماضي كانت اليابان تواجه الغرب، ولكن بعد أن وطدت اليابان أقدامها على الساحل الغربي للباسيفيك وجهت طوكيو انتباهها إلى الشرق وإلى الجنوب: إلى جزر الفليبين وأندونيسيا والملايو.

***

وجاءت الحرب إلى الباسيفيك ففي السابع من ديسمبر سنة ١٩٤١ بتكرار الطابع الذي حدث في بورت آثر، ولكنه هذه المرة حدث في وقت السلم لا في وقت الحرب، فكما حدث في بورت آرثر فشل المهاجمون في تحقيق أهداف هجومهم بغزو جزر هوايي، ولعلهم يكونون قد خافوا أن وصول حاملات الطائرات اليابانية سيقطعهم عن اليابان أو أنهم قد وجهوا سفنهم من هذا الطراز للعمل في مكان آخر، وكما كان الهدف في بورت آرثر الأسطول الروسي الأساسي كان أسطول الولايات المتحدة للباسيفيك هو الهدف في هوايي، فلما أن اقتنعت طوكيو بأن هذا الأسطول لم يعد صالحًا للعمل لم تعد تُعنى بأمر احتلال تلك الجزر، وكانت جزيرة «**ميدواي**»(*) في هذه الحال من وجهة النظر الجوية صورة حديثة تماثل التل ٢٠٣ في بورت

(*) ميدواي Midway، مجموعة من الجزر في الباسيفيك الشمالي وهي جزء من مجموعة جزر هوايي وتقع في منتصف المسافة بين الولايات المتحدة والفلبين المساحة ٢٨ ميلاً، السكان ٤٤٠ نسمة فقط وهي قاعدة بحرية وجوية (مُعجم ويبستر ص ٩٣٢) (المترجم).

آرثر، ومن القواعد الآمنة في مجموعات الجزر التي تسيطر عليها اليابان بالانتداب باسم عصبة الأمم تستطيع أن ترسل قاذفات القنابل إلى منطقة أمامية آمنة في جزيرة واك(*) ومادامت «**بيرل هاربر**» عن طريق «**ميدواي**» يمكن أن تتعرض إلى هجوم يتكرر المرة بعد الأخرى كانت قنبلة الطائرة في هذه الحال – يمكن أن تكون – بديلة لقنبلة المدفع الهاوتزر عيار ١١ بوصة؛ ولهذا يبدو أن اليابانيين شعروا بصواب رأيهم في إرسال قوة بحرية قوية إلى جزيرة ميدواي في ذات الطابع الهجومي الذي كان ابرز ما في العمليات اليابانية في الماضي، وقد أصيبت المحاولة بخيبة أمل بوصول حاملات طائرات الولايات المتحدة في الوقت المناسب التي أسكتت غواصات اليابانيين التي تقوم بالاستطلاع، وأصيب اليابانيون بأعنف صدمة واجهوها منذ أيام يي – صن، وكانت صدمة عظيمة في الحقيقة بسبب أنه في هذا الوقت لم يستخدم الأمريكان سلاحًا جديدًا، ولكن مع هذا اكتشف المهاجمون أنهم لن يستطيعوا (التملص) التخلص من القتال مادام العدو يملك حاملات طائرات وطائرات تعمل من مطارات برية ويستطيع أن يستخدمها في عملية المطاردة.

وفي نفس الوقت تطورت التحركات البحرية اليابانية في الشرق الأقصى تطورًا سريعًا، وكان للعمليات التمهيدية طابع بحري بارز، وقد اعتقد الأعلام من رجال البحر الغربيين أن اليابانيين سينزلون قواتهم أولًا في خليج لينجايين في الفلبين ثم يتقدمون بعد ذلك إلى مانيلا، ولكنهم بدلًا من هذا وجهوا كل جهودهم الأولى ضد شمال وشرق لوزون وفي مدى

(*) واك Wake جزيرة صغيرة في الباسيفيك الشمالي بين ميدواي وجوام مساحتها ٤ أميال مربعة وهي قاعدة بحرية وجوية (ويبستر ص ١٦٤١).

أسبوعين كان اليابانيون في داڤو Davao(*) على الساحل الجنوبي لتلك الجزيرة، وبالاستيلاء على مثل هذه المواقع يمكن أن يأمل اليابانيون في منع مرور سفن الولايات المتحدة عبر أو حول مجموعة جزر الفلبين بواسطة الهجمات الجوية وهجمات الغواصات.

***

وهنا نجد عمليتين تتماشيان مع النظرية اليابانية: أولاهما انسحاب قوة بحرية يابانية صغيرة أمام مدافع أسطول الولايات المتحدة للشرق الأقصى على مسافة من لوزون، وثانيهما الهجوم البحري الناجح على البارجتين البريطانيتين برنس أوف ويلز وريبلص خارج سواحل الملايو، ويشبه هذا عملية الأميرال ايتو عندما تخلص من الأسطول الصيني ليبعث بمدمراته وراء وحدات العدو التي في خارج قاعدته، وفي بعض المراحل يمكن اعتبار الحرب الجوية بديلًا لعمل المدمرات.

وقد فكرت اليابان في سفنها على اعتبار أنها رءوس جسور محتلة، لا على أنها سفن معادية عرضة لنيران القنابل ومدمرة محملة بالجنود من مشاة البحرية قد تحتل موقعًا استراتيجيًّا لمطار، وهو أفضل بكثير من إغراق مدمرة للعدو وبخاصة إذا كان إغراق هذه المدمرة قد يكون مغامرة تؤدي إلى إغراق المدمرة اليابانية.

وكانت عمليات اليابانيين في الملايو ليست أكثر من صورة مكبرة مجسمة لعملياتهم القديمة ضد السكان الأصليين للجزر اليابانية أو ضد

(*) داڤو ميناء بحري في الفلبين لجنوب جزيرة مندناو أقصى الجزر الكبيرة للجنوب تعداد السكان ١٠٣.٠٠٠ (ويبستر ص ٣٧٥) (المترجم).

كوريا أو منشوريا، أو ضد شبه الجزيرة التي بها بورت آرثر.

وكان على الأسطول الياباني بعد أن يحرس السفن ناقلات الجنود إلى رءوس الجسور المختارة أنه ينصرف إلى حماية إنزال الجنود وإلى محاولة الدوران حول جناح العدو الذي يواجه في نفس الوقت هجومًا أماميًّا بوحدات الجيش من كل الأسلحة.

وبعد أن أنشأ اليابانيون مواقع بحرية وجوية حول المحيط الخارجي لجزر الفلبين وفي الملايو وغرب بورنيو، اندفعوا في تشكيل «**المروحة** » في جزر الهند الشرقية قادمين من الشمال سادين كل خطوط الاقتراب البحرية في وجه إمدادات العدو، وهنا استخدموا طائرات الاستطلاع في نطاق واسع لتقدير ما إذا كانت هذه الإمدادات حقًّا في طريقها بحرًا إلى الفلبين، ووجه اليابانيون دون أي تردد قواتهم ضد أغراض كثيرة مختلفة دون ما تقدير للخسائر مغفلين كل النظريات الصحيحة والأسس القويمة التي قد توجب إنشاء قيادة موحدة في البر والبحر ضد رءوس الجسور هذه التي تتعرض للهجوم.

***

وجاء اشتراك اليابان في الحرب العالمية الثانية بتغييرات كثيرة في تخطيطها البحري، فلم تعد في الواقع تواجه أعداء ضعافًا، وبدلًا من السفن الحربية التي كان يقودها تينج Ting. وريديستـڤينسكي Rojdestvensky فإنها واجهت السفن الأكثر كفاية وأقوى تسليحًا سفن الولايات المتحدة وبريطانيا، وبدلًا من المدمرات القليلة التأثير التي كانت تستخدمها في البحر الصين القديمة وروسيا القيصرية جاءت طائرات أثبتت منذ بداية الحرب

أفضليتها بالنسبة لطائرت اليابان، وأخيرًا وليس آخرًا أرغمت اليابان على أن تفكر في الدفاع في طابع يختلف تمامًا عن العمليات الهجومية الخالصة للهجوم وعن العمليات الدفاعية الهجومية.

وقد وجد اليابانيون أنه من الضروري وبخاصة في جوار المياه التي يسيطر عليها العدو أن تستبدل العمليات البحرية الهجومية في أثناء النهار بعمليات بحرية ليلية لتقلل من خطر التعرض لطائرات العدو، وهذه حال لا يمكن تغييرها إلا بتوافر أفضلية جوية محلية، ولقد وضحت النظريات البحرية اليابانية القديمة في عملية واحدة بهجوم القوات اليابانية على مجموعة من طرادات الحلفاء كانت تقوم بأعمال «**الدوريات**» خارج ساڤو Savo في وقت نزول القوات الأمريكية لأول مرة بمجموعة جزر سولومون Solomon، وهي عملية تقوم على أساس الهجوم وتوجيه الضربات ثم الإفلات بسرعة، ومع أن الهجوم كان ناجحًا فإن السفن اليابانية انسحبت دون استثمار النجاح.

وفي معركة أخرى ليلية لمحاولة مهاجمة مواقع للقوات الأمريكية في «**جواد القنال**»(*) أمكن صد المهاجمين ووضح بأن الظلام لا يزال له ضرورة كما كان يخشاه «**ايتو**» «**و توجو**»، وأن الظلمة الحالكة التي تستر المهاجمين وتحميهم من السلاح الجوي لا تحميهم من عمليات السفن السريعة التي يعتزم بحارتها خوض المعركة بأية تضحية.

❋ ❋ ❋

(*) جزيرة جواد القنال Guabal canal إحدى مجموعة جزر سولومون في الباسيفيك الجنوبي سكانها ١٤.٠٠٠ كان مسرحاً لقتال عنيف في الحرب العالمية الثانية (ويبستر ص ٦٤٢) (المترجم).

وقد يكون من الضروري هنا أن ندرك أن النظريات اليابانية عن التكتيكات الاستراتيـچية البحرية إنما هي انعكاسات الاعتبارات الجغرافية والسياسية، ومن الضروري توقع أن أي تغييرات في العامل الأخير تؤثر في العامل الأول، وعلى مسير التاريخ الياباني كان الأسطول دائمًا الدرع الواقية للوطن وللنقل العسكري، فالمناطق الساحلية التي استولت عليها اليابان تتطلب مواصلات بحرية مستمرة أو تحتاج إلى التموين الذي يمكنها من احتمال حصار طويل على أن تزود بالضروريات عند الحاجة الملحة بالنقل الجوي إذ قد تغلق طائرات العدو كل المناطق البحرية الضيقة فلا يكون النقل البحري مستطاعًا مأمونًا سيما إذا قدرنا أن العدو تتوافر له الأفضلية في الطائرات من ناحيتي الكم والنوع.

على أننا عندما ننظر إلى تحليل اليابان للموقف بالنسبة إليهم ندرك أن الأسطول الإمبراطوري كان في الواقع وسيلة لخدمة الجيوش اليابانية، وعلى أساس هذه «**الخدمة**» يمكن اعتبار الأسطول وسيلة اقتصادية بل هو أكثر اقتصادًا من السلاح الجوي، ولكن مع هذا يجب توقع مخاطر ومغامرات أكبر بالنسبة لقيام الأسطول بالدفاع عن أرض الوطن وبالنسبة للدفاع عن المناطق المحتلة ولهذا دوره في تقليل أهمية الأسطول، ذلك لأنه سيضطر إلى أن يتابع طابعه القديم طابع الاقتصار على التحركات البحرية الساحلية.

وجاءت عوامل جديدة يمكن أن تؤثر في النظريات اليابانية للحرب البحرية، عامل فقدان اليابان للمواقع الاستراتيـچية وعامل وجود قوات قوية للعدو في نقاط قريبة من اليابان، وعامل توافر الروح الهجومية لدى أعداء اليابان في مقابل روحهم الدفاعية التقليدية، ولما كان من الواضح أنه لا توجد أية أدلة تثبت استخدام اليابان لقوات بحرية في معارك حاسمة في

البحر الفسيح فلا يمكن إطلاقا أن نقدر الفكرة اليابانية بالنسبة لهذا، بل لو حدث هذا لكان تغييرًا ثوريًّا في النظرية الأصلية.

ولو قامت اليابان بخوض غمار معارك بحرية بقوات كبيرة وإلى مدى كبير في البحر، لكان هذا دليلًا على أن طوكيو تعتبر بأنه من الممكن الدفاع عن الموقع الاستراتيجي في الجزر اليابانية بالسلاح الجوي بالإضافة إلى القوات البرية، والقوات البرية هي السلاح الذي يمكن زيادة قواته بسرعة في كل الأمم العسكرية واليابان واحدة منها؛ ولكن عندما ننظر إلى الأمر بالنسبة للقتال في المحيطات والبحار الفسيحة فإنه من الممكن أن نتقبل أن النظرية اليابانية يمكن أن تنطبق وتتمشى مع نظرية الغرب عندما يكون العدو قويًّا، ولكن مع هذا يستطيع الفرد أن يفكر إلى أي مدى يمكن للتقاليد التي تقوم على أساس الدروس المستمدة من الماضي أن تظل وتستمر تصبغ كل العمليات في الحاضر بهذا الصباغ نفسه؟.

والوقع أن هذا النقاش للتفكير البحري الياباني من ناحية صلة هذا التفكير بالحرب العالمية الثانية ليعطل منه نقص المعلومات التفصيلية لهذا التفكير ولاستخدامه التطبيقي، وعلى سبيل المثال فإنه فيما عدا الاستخدام للغواصات الصغيرة فإن القليل هو الذي يمكن قوله عن النظريات اليابانية لهذا السلاح (الغواصات) بعامة، وكذلك فإنه مع الأضرار الكثيرة التي تسببها الغواصات بقذائف الطوربيد، والتي تعتبر طابعًا مماثلًا لعمل قوارب الطوربيد في تسوشيما وفي أي مكان آخر،فإن هذا ليس بجديد في الحرب البحرية ومن الضروري توقعه في منطقة فسيحة مثل الباسيفيك.

وعلى الإيجاز... فإن الأسطول الياباني كان جناحًا يطفو فوق الماء لجيش قوي يشغل بعمليات هجومية في منطقة أضعف عسكريًّا بدرجة

كبيرة من أوروبا أو أمريكا الشمالية، ولم يكن معدي عن أن نظرياته وتطبيقاته العملية لهذه النظريات يجب أن تختلف اختلافًا كبيرًا عما هو متوقع بالنسبة للولايات المتحدة وبريطانيا حيث يعتبر الأسطول قوة دفاعية قوية تستند إلى جيش بري صغير، وكذلك لم يكن معدي من أن يختلف التفكير الياباني عن التفكير الفرنسي والألماني حيث توجد كل الأغراض على البر ويمكن تحقيق الحصول عليها بواسطة القوة البرية وحدها.

وقد يوجد نوع من التشابه والتماثل - إلى حد ما - بين التفكير البحري الياباني وبين التفكير البحري الإيطالي، وذلك من ناحية أن كلتا الدولتين إنما تعنيان باستخدام القوة البحرية والقوة البرية للقيام بعمليات غزو قريبة نسبيًّا(١)، على أن هذا الاستخدام والتنسيق لعمل الأسلحة المختلفة كانا بالنسبة لإيطاليا أقل قيمة مما كانا بالنسبة لليابان.

ولا يعتبر التفكير البحري الياباني - على ما وضح فيما سبق - نظامًا ثوريًّا عندما نقارنه بالتنظيم الذي استخدمه نابليون في تحريك المحتشدات الكبيرة والصغيرة من الجند، ولا عندما نقارنه بحركة الكماشة في التطور الذي قامت به الجيوش الألمانية، أنه في بساطة توجيه التفكير السياسي الاعتدائي في مشكلة استخدام القوة البحرية في البحار تحت ظروف تختلف عن تلك التي كانت في المناطق التي صبغت فيها النظريات الأصلية للحرب البحرية.

* * *

(١) لاحظ التماثل مع الاستراتيجية الفرنسية في القرن الثامن عشر، والرجا العودة إلى الفصل السابع عشر من هذا الكتاب.

حديث المراجع

الفصل التاسع عشر

الاستراتيجية اليابانية البحرية

بقلم ألكسندر كيرالفي

المراجع الإنجليزية التي يوثق بها في الحديث عن الاستراتيـچية لليابان قليلة وتتباعد تواريخ إصدارها، ويحسن مراجعة مقال:

Captain Viscount Ogasawara," Historical Essay on the Japanese Navy (ro ١٨٩٣), in Revue Maritime CXCVIII (Paris, September ١٩١٣), ٢٥٧ ٢٦٦, ٣٨١ – ٣٩٢, (January – March ١٩١٤), ٩٣ ١٢٤.

فالمقال من المراجع اليابانية القليلة التي صدرت بإحدى لغات الغرب.

ونجد دراسات للاستراتيـچية اليابانية القليلة في:

" The Battle of the Yellow Sea", United States Naval Institute Proceedings (September – October ١٩١٤) PP. ١٢٨٣ ١٢٤.

" The Battle of the sea of Japan", United states Naval Institute Proceedings (July – August ١٩١٤), PP. ٩٦١ – ١٠٠٧.

كما أنه من الكتب القيمة كتاب:

Fred T. Jane, The Imperial Japanese Navy (London, ١٩٠٤).

ونجد مادة طيبة في كتاب:

Vice Admiral G.A. Ballard, The Influence of the sea on the

Political History of Japan (New York, ١٩٢١).

أما عن التأريخ لحياة أدميرال توجو فيوجد مصدران أساسيان للمعلومات هما:

Vice Admiral Viscount Nagayo Ogasawara, Life of Admiral Togo.

والذي ترجم بواسطة (و) ت انويس Inouys J. & T. وصدر بطوكيو سنة ١٩٣٤.

A. Falk, Togo and the Rise of Japanese sea Power (New – York, ١٩٣٦).

كما يرجع لتبين العلاقات بين السياسة وبين القوات المسلحة إلى كتاب:

Kenneth Colegrove, Militarism in Japan (Boston, ١٩٣٦)

وقد يكون من الأهمية الرجوع إلى الفصلين الثالث عشر والرابع عشر من كتاب:

Captain A.T. Mahan, Naval Strategy (Boston, ١٩١٨).

وتعالج كل مسألة توازن القوى البحري في الشرق الأقصى في الفصل الخامس من الكتاب:

Arehibald S. Hurd, Naval Efficiency (london, ١٩٠٢)

وكدراسة عامة يمكن أيضًا الرجوع للمؤلفات التالية:

Captain Gabriel Darrieus, War on the sea. Philip R. Alger

وقد ترجمه العلامة فيليب آجر من البحرية الأمريكية ونشر في آنابوليس سنة ١٩٠٨.

H.W. Wilson, Battleships in Action I (London, n.d.) Brigadier – General G.G Aston, Letters on Amphibious Wars (London, ١٩١١) PP. ١٦٢ – ٣٦٠.

❋ ❋ ❋

الفصل العشرون

دوهيه، ميتشل، سيفيرسكي

نظريات الحرب الجوية

بقلم تيودور روب

ليس من الميسور التحدث بدقة عن نظريات القوة الجوية إلا في نطاق محدود، ومن الواضح أن أي نقاش دار حول القوة الجوية قد أوجب تقبل وجود الطائرة كحقيقة واقعة، بل وأيضًا تقبل وجود أنواع خاصة من الطائرات تتوافر لها خاصيات معينة، ولقد أسهم دوهيه وغيره مساهمة فعالة في صياغة نظرية وأسلوب استخدام القوة الجوية، ولكن النقاش الجدلي الطويل الذي استمر طوال العشرين السنة الأخيرة – التي انتهت بانتهاء الحرب العالمية الثانية – والتي جعلت اسم دوهيه وميتشل على كل لسان لم يعن باختيار نظرية من بين (من عداد) نظريات مختلفة كثيرة، بل عني بتقبل أو رفض العقيدة الأساسية.

ولقد قامت العقيدة الأساسية على أن السرعة والارتفاع وقوة التدمير إنما هي أوجه تفضيل تقف إلى جانبي الطائرة فتمكنها من تدمير أي منشآت على سطح الأرض أو عائمة فوق الماء على حين تظل هي – أي الطائرة – بمنجاة من أي تدمير مضاد مؤثر من الأرض، وإن كانت هذه السلامة للطائرة هي في الواقع إلى حد ما سلامة نسبية.

فإذا ما تقبلنا هذه العقيدة على أنها حقيقة كان من الواضح أنه يتبع تقبل هذه العقيدة ويتبعه في صورة آلية تقبل مبدأ سيادة القوة الجوية على

غيرها من الأسلحة العسكرية، بل وكذلك تقبل ضرورة تخطيط كل الحملات الحربية مع العناية أولًا وقبل كل شيء بتوافر الأفضلية إلى جانب القوات الجوية للأمة على حين تكون أسوأ الظروف في مواجهة القوات الجوية للعدو.

وقد استمرت المناقشات كذلك حول علاقة القوة الجوية بأسلحة الأرض ضمن إطار التنظيم العسكري للدولة، وحول توزيع الجهود بين مختلف أسلحة القتال، كما تحولت إلى نقاش تتباين وجهات النظر فيه حول الطاقة التي للطائرة في مختلف صور استخدامها.

على أن الخلاف بين أكثر المتحمسين لعقيدة(*) القوة الجوية وبين أقوى المتشائمين من خصومها لم يكن خلافًا على النظريات الخاصة بالاستخدام التكتيكي أو الاستخدام الاستراتيجي لها، بل كان الخلاف على القوة الأساسية التي للسلاح الجوي.

والواقع أنه حتى أشهر قليلة بعد نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ – ١٩١٨ كان كل ما كتبه المتحمسون لعقيدة سيادة القوة الجوية في جملته لا يزيد على مجرد تنبؤات؛ وفي يوليو سنة ١٩٢١ استطاع السلاح الجوي للولايات المتحدة الأمريكية في تجربة عند رأس ڤيرجينيا إغراق البارجة الألمانية السابقة أوستفرايز لاند Ostfriesland وأرسلها إلى قاع البحر بقنبلة قذفتها بها طائرة من الجو؛ وهكذا وضح أن السيادة التي للسلاح الجوي لم تعد مسألة يمكن أن يحققها (المستقبل) بل باتت مسألة يؤكدها (الحاضر) على أن الشيء الذي يجب أن نذكره هنا أن العوامل التي مكنت من استكمال

(*) تعني هنا ترجمة كلمة Cult لا كلمة Doctrine، ذلك لأن الإيمان بها كان عميقاً إلى حد اعتباره مماثلاً للمعتقد الديني أو الطقس الديني.(المترجم).

هذه السيادة للقوة الجوية كانت قد باتت واضحة معروفة حتى قبل تجربة إغراق البارجة أوستفرايزلاند.

على أن الباحثين جديًّا في شأن الطائرة وجدوا أنفسهم – مثل أولئك الجادين في بحث أمر الغواصة – يواجهون سيلًا من كتابات الروائيين والقصاصين الذين يسطرون القصص التي تستخدم العلوم المُبسطة لاستهواء القراء للكتب الشعبية، ولم يكن لدى هؤلاء الكتاب شيء له أهميته يمكن أن يقدموه للعلم العسكري، ولكنهم قد استغلوا عقيدة السيادة للسلاح الجوي على ما أوضحها دوهيه وميتشل وخلفاؤهما من المحدثين أمثال سيڤيرسكي؛ ولقد صور هـ. ج. ويلز غزوًا جويًّا في «**كتابه الحرب في الجو**»، وقدم صورة للتدمير الجوي، صورة تجاوزت كل ما حدث من تجارب التدمير حتى الحرب العالمية الثانية (إلى ما قبل هيروشيما)، ولقد صور تحطيم كوبري بروكلين بطائرة في أول مرور لها فوقه:

«**ولقد تحول** «**السيتي هول**» و «**كورت هاوس**» ودار البريد في نيويورك إلى أنقاض سوداء بعد أول زيارة جوية لطائرات العدو».

«**... وهكذا قدر بيرت سمولويز أول قتال لسفينة الهواء وآخر قتال لبارجة البحر، لقد أمسى من الضروري الحصول على المال اللازم لهذه السفن الجوية بأي وسيلة، إن هذا هو قانون البقاء للأمم في هذا العصر المليء بالغرائب والمدهشات ...**»[١].

ولقد كان الكتاب الأولون الذين كتبوا الدراسات الفنية الخاصة عن

(١) H. G. Wells, The War in the Air (London: George Bell and Sons; New York: The Macmillan Co., ١٩٠٨), pp. ١٦٧ – ٢٠٨.

الشئون الجوية من الناحية العسكرية في الفترة بين بدء جيوش الدول الكبرى الحصول على طائراتها (سنة ١٩٠٩) وبين فجر الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨)، كان هؤلاء الكتاب، مثلهم مثل الروائيين يُصورون خيالات للمستقبل، ونستطيع تقدير حقيقة هذا عندما نراجع بعض السطور من مؤلفات هؤلاء الكتاب:

«... ولنتصور عاصمة كبيرة يسودها القلق عند إعلان الحرب، ولنتصور أيضًا ماذا يحدث في غمرة هذا القلق عندما تبدو فجأة بعض أجسام غريبة في السماء».

والسفن الجوية !!! أي معنى مخيف تنقله هذه الكلمة إلى الجماهير وقد عقدت المفاجأة ألسنة الناس، من هو الذي يستطيع أن يصف الرعب الذي تملك قلوب الناس وهم يحدقون بهذه الأجسام الغريبة التي تظهر في السماء دون أن يستطيعوا أن يفعلوا شيئًا ما؟ وقبل أن يستطيع الناس حتى أن يجدوا الكلمات التي توضح موقفهم تكون هذه السفن الهوائية بعدد قليل من القنابل المُحكمة التوجيه قد حطمت دار البرلمان»[(١)].

«وفي الأيام الحرجة التي تسبق إعلان الحرب يمكن أن يحشد أسطول جوي على مسافة من ٤٠ إلى ٥٠ ميلًا من سواحلنا (الإنجليزية)، وعندما تتسلم إشارة لاسلكية تكون هذه الطائرات في مدى ساعتين من إعلان الحرب قد وجهت ضرباتها ضدنا، وتكون بورتسموث وروسيث Rosyth مفتوحتين – إثر الهجوم الجوي – لهجوم بري وبحري، ويكون قسم آخر من الأسطول الجوي قادرًا على القيام بإغارات تدميرية ضد لندن والميدلاند

(١) R. P. Hearne, Aerial Warfare (London: John Lane, The Bodley Head; New York: John Lane Company, ١٩٠٩), pp. ١٣٦ – ١٣٧.

وغيرهما من الموانى والمراكز التجارية، وعندما يُعطل الأسطول الجوي الألماني أسطولنا البحري في شيرنيس Sheerness وبورتسموث فإنه يفتح الطريق لإغارات بحرية ألمانية تُغطي قوات غزو بري، ويكون هذا هو الفصل الأخير من الحرب»[١].

ولقد كتبت هذه السطور قبل بدء الحرب العالمية الأولى بخمس سنوات وبعد سنوات لا تعتبر كثيرة من أول طيران للأخوين رايت Wright، وكانت هذه السطور – في خضم عدم الثقة بإمكانيات الطائرة في تلك الفترة – تنبؤًا مليئًا بالجرأة، وكان الشيء الوحيد الذي يُعتبر في غير صالح المؤلف أنه كان سابقًا عصره بشوط كبير، ولكن تنبؤاته هذه قد وضعت مُعضلات كبيرة في طريق الكتاب الذين جاءوا بعده بكثير عندما حاولوا الكتابة في نفس الموضوع.

وقد نجد تصويرًا آخر أكثر تخصصًا ولا يقل عنه إثارة للذعر والخوف، وقد كتبه صاحبه في تاريخ لاحق، جاء فيه:

«لقد تحدث متخصص عسكري له مكانته عن مسألة قيام أسطول جوي للعدو بالهجوم على وادي التيمس بين همرسميث وجراڤيسند فقال: إن هذه الأميال الخمسين والتي تحتشد بها كل ضروريات الإمبراطورية تقع تحت رحمة سفينة هوائية يمكن أن تلقى عددًا من المقذوفات الحارقة على مناطق مُحددة اختيرت من قبل، وقد أوضح أخصائي منذ أيام كيف يمكن أن يحدث هذا، أنه من الممكن أن يُلقي العدو مائتي طن من المفرقعات فوق لندن، ولقد أوضح لورد مونتاجو ماذا يمكن أن يكون معنى هذا ويقول

(١) نفس المرجع ص ١٦٩.

مونتاجو: فلنفترض أن لندن قد هوجمت من الجو في فجر الحرب فماذا تكون النتيجة؟ لنتصور أن سوق (بورصة) الأوراق المالية والمصارف الكبيرة ومحطات السكك الحديد الرئيسية وغيرها من وسائل المواصلات والمال قد حُطمت، إن مثل هذه الضربة في قلب الإمبراطورية سيكون مثلها مثل شل أعصاب رجل قوي قبل أن يبدأ القتال من أجل حياته وبقائه، ستظل للرجل قوته العضلية ولكن عقله سيكون بلا قوة للتوجيه»[١].

- ١ -

ولقد توافرت القوة لنظرية سيادة السلاح الجوي على أسلحة الحرب عندما قال بها أولئك الرجال الذين تعرضوا لتجربتها العملية في الحرب، وجاءت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨) إلى المقدمة باسمي رجلين بقيا الزعيمين المدافعين عن عقيدة سيادة الطائرة لاثنتي عشرة سنة بعد الحرب، واللذين لعبت كتاباتهما دورًا هامًّا في تطور العقيدة من مجرد إيمان فردي إلى «**عقيدة** » عسكرية لها أثرها في استخدام أسسها للاستخدام التكتيكي للقوات الجوية وفي اختيار الأغراض لها.

وكان التماثل بين حياتي جيليو دوهيه ووليم ميتشل مثيرًا فلقد التحق كلٌّ منهما بالجيش صغيرًا قبل أن يقوم الأخوان رايت بأول رحلة لهما عبر الهواء بسنوات طوال، وقد توافر لكلٍ منهما تصور جعله يفكر في استخدام المُستحدثات الآلية لصالح الوحدات العسكرية ولتطور أسلحتها، وقد فكر كل منهما في هذا قبل أن يسترعي الطيران انتباهه وقبل أن يجتذب تفكيره

(١) Claude Graham-White and Harry Harper, The Aeroplane in War (London: T. Werner Laurie, ١٩١٢), pp. ٢٠٨ – ٢٠٩.

نحوه، وكان كل منهما ناقدًا عنيفًا للزعامة العسكرية في عصره، وواجه كل منهما حكم القضاء العسكري بسبب نقداته اللاذعة للقيادة والأسلوب الذي يستخدمه في هذا النقد، وكان كل منهما كذلك كاتبًا مجيدًا مطواع القلم[١]، وقد عمد ميتشل في كل كتاباته المطبوعة معنيًا العناية كلها باجتذاب الجماهير على حين كتب دوهيه كتابات أكثر تخصصًا استهدف بها اجتذاب العسكريين المحترفين.

***

ولد جيليو دوهيه سنة ١٨٦٩ ومات سنة ١٩٣٠ في الحادية والستين من عمره، والتحق بالجيش ضابطًا في المدفعية بعد أن حضر فرقة دراسية للحصول على رتبة عسكرية، وقد عني من البداية وفي تاريخ مبكر بالانتفاع بتطور النقل الميكانيكي لخدمة الجيش، ثم وجه كفايته العلمية في بحوث ودراسات عن الغازات في درجات الحرارة المنخفضة، وقد كتب سنة ١٩٠٩ بحثًا عن أهمية السلاح الجوي، وفي سنة ١٩١٥ كان قد انتهى إلى تصوير طابع الحرب الشاملة، وعن تحطيم معنويات المدنيين بالهجوم الجوي، وقد لعب هذا دورًا كبيرًا في تطور تفكيره فيما بعد وكان يقف إلى جانب «**تحطيم الأمم**» بواسطة الجو كتدمير عسكري.

وفي نهاية سنة ١٩١٦ واجه مجلسًا عسكريًّا لمحاكمته بسبب إرساله مذكرة لأحد الوزراء يوجه فيها نقدًا مرًا لسياسة هيئة أركان الحرب الإيطالية، وحكم المجلس بسجنه لمدة سنة، إلا أنه في سنة ١٩٢٠ أمكن بإجراءات قانونية إلغاء قرار المجلس وحكمه من الناحية الشكلية بعد أن

(١) يرجع إلى «حديث المراجع» في آخر الفصل لمعرفة ما كتبه كلٌ من دراسات ومؤلفات.

كان قد استدعي ثانية لخدمة الجيش في فبراير سنة ١٩١٨ وعين في رياسة المكتب المركزي لشئون الجو، وفي سنة ١٩٢١ رُقي إلى رتبة چنرال، وفي هذه السنة بدأت كل الكتابات الجادة عن السلاح الجوي، وعين قوميسيرًا للطيران إثر زحف الفاشيت على روما، ولكنه انسحب من خدمة الحكومة ليوجه كل جهوده للكتابة مُدافعًا عن وجهات نظره في السياسة.

***

ولقد ولد وليم ميتشل بعد دوهيه بعشر سنوات وعاش بعد وفاة دوهيه لست سنوات، فكأنه قد ولد سنة ١٨٧٩ ومات سنة ١٩٣٦، وقد جُند للمشاة سنة ١٨٩٨ وحصل على رتبة عسكرية في الإشارة بعد وقت قصير، وخدم بآلاسكا وهو ضابط صغير حيث أقام جزءًا كبيرًا من خط آلاسكا للبرق، وقد لعب تقديره لأهمية آلاسكا الاستراتيچية بخاصة وأهمية الدائرة القطبية بعامة، لعب دورًا هامًا في تطور تفكيره في العلم العسكري.

وكان له دوره الإيجابي في استخدام الراديو واستخدام النقل الميكانيكي في الجيش، وعندما اشتركت الولايات المتحدة في الحرب سنة ١٩١٧ حُوِّل إلى السلاح الجوي، وكان قد تعلم الطيران سنة ١٩١٦ وأرسل إلى أوروبا كمراقب قبل اشتراك أمريكا في الحرب.

واستمر يرتقي في سلاح الجو الأمريكي حتى تولى رياسته قبل انتهاء الحرب بأسابيع، فلما انتهت الحرب تجول بعض الوقت في أرض أوروبا لدراسة حال الطيران في الدول الصديقة المتحالفة ودول الأعداء، فلما عاد إلى الولايات المتحدة من رحلته عين مساعد رئيس أركان حرب السلاح

الجوي برتبة بريـچادير چنرال المركز الذي ظل يشغله من سنة ١٩٢١ إلى سنة ١٩٢٥.

وسببت محاولته لإيجاد سلاح جوي موحد مستقل عن الجيش والأسطول، ونقده العنيف لسياسة إدارتي الجيش والأسطول واتهامهما بعدم الكفاية وبإهمال إجرامي بل وخيانة الدفاع القومي، واتهام الضباط الذين يبعث بهم الجيش والأسطول إلى الكونجرس بأنهم يقدمون دائمًا معلومات غير كاملة ومضللة عن الطيران والسلاح الجوي، تسبب هذا كله عرض قضيته على مجلس عسكري قضى بإدانته وحكم بوقفه عن عمله وحرمانه من رتبته لخمس سنوات، واستقال ميتشل من الجيش في الأول من فبراير سنة ١٩٢٦ وأوقف السنوات العشر التي عاشها بعد ذلك للكتابة وإلقاء المحاضرات ومناقشة اللجان من أجل فكرته، فكرة إنشاء سلاح جوي مستقل والحملة على إدارتي الطيران المدني والعسكري في الولايات المتحدة، وعلى بحوث الطيران بل وصناعة الطائرات في الولايات المتحدة، مما اعتبره العامل الفعال لتأخير التطور الفني.

وكان الـچنرال ميتشل زعيم الحملة لزيادة اعتبار السلاح الجوي في التنظيم العسكري الأمريكي، الحملة التي استمرت لست سنوات قبل استقالته من الجيش، وبقي اسمه وسيظل دائمًا رمزًا لهذه الحملة.

- ٢ -

وكانت القوة البحرية قد اجتذبت انتباه دوهيه في تاريخ مبكر سنة ١٩٠٩، وحتى هذا التاريخ كان الرجل قد قدر مبكرًا الطابع الثوري للاستراتيـچية العسكرية، إلا أن وجهات نظره لم تتطور تفصيليًا لأول مرة

– وإن كان هذا قد حدث في صورة أولية محدودة – إلا في كتابه الأول الذي صدر سنة ١٩٢١[١]، وقد نالت وجهات نظره تفهمًا أكبر كما استطاع أن يخرج منها بعدة استنتاجات وأبرز هذا كله في طبعة مُنقحة من كتابه الأول صدرت بعد ست سنوات من صدور الطبعة الأولى[٢]، وكان دوهيه أيضًا الكاتب لسلسلة طويلة من المقالات في عدد كبير من المجلات العسكرية والدوريات الخاصة بشئون الطيران، وأكثر ما هو معروف منها، وأهم ما أعيد طبعه منها هو ما جاء خاصًا بتصوير حرب مستقبلة تقع بين ألمانيا وفرنسا[٣].

ومع أن «**نظرية دوهيه**» سرعان ما كانت مرجعًا يستند إليه إلا أنها لم تعرف للكثيرين خارج إيطاليا إلا عندما ترجمت كتاباته بعد وفاته، وقد طبع جزء كبير من كتابه باللغة الفرنسية سنة ١٩٣٢[٤]، وترجم هذا من الفرنسية إلى الإنجليزية وطُبع في كتيب صغير لضباط السلاح الجوي الأمريكي سنة ١٩٣٣، وطُبعت منه طبعة أخرى في مجلة عسكرية إنجليزية[٥]، ثم ظهرت ترجمة منه بالألمانية سنة ١٩٣٥، وفي نهاية سنة ١٩٤٢ ظهرت لأول مرة ترجمة كاملة بالإنجليزية لأهم كتابات دوهيه العسكرية[٦]، وقد أُلحقت

(١) Giulio Douhet, Il Dominio dell'Aria; Saggio sul' arte della guerra (Roma: Stab. Poliger. Per I'Administrazione della guerra, ١٩٢١).

(٢) Douhet, Il Dominio dell'Aria (٢nd ed.; Roma: Instituto Nazionale Fascista di Cultura, ١٩٢٧).

(٣) Duohet," La Guerra del'١٩-," Rivista Aeronautica (March, ١٩٣٠), pp. ٤٠٩ – ٥٠٢.

(٤) Duohet, "La Guerra de I'Air" Les Ailes, Paris, ١٩٣٢.

(٥) Royal Air Force Quarterly (April, ١٩٣٦), p. ١٥٢.

(٦) Douhet, The Command of the Air, as translated by Dino Ferrari (NewYork: Coward-McCann, Inc., ١٩٤٢).

=

كتابات دوهيه بدراسات نقدية تعرض ليست فقط لكتاباته هو بل ولما تناوله في مراسلاته ومحاوراته مع خصومه[١].

وكان من أهم الأسس لنظرية دوهيه أن:

١ – الطائرات سلاح هجومي له خاصيات لا تُقارن ولا يمكن التنبؤ بدفاع إيجابي مؤثر ضدها.

٢ – معنويات المدنيين سيُحطم منها تدمير المناطق الآهلة بالسكان.

وعلى هذه الأسس أقام دوهيه الناحية العملية لنظريته، وكانت العوامل الأساسية لها:

(أ) لضمان الدفاع القومي الكافي يجب بل ومن الضروري أن نكون عند الحرب في الوضع الذي يُمكننا من السيطرة على الجو[٢].

(ب) يجب ألا يكون الهدف الأولي للهجوم الجوي المنشآت العسكرية بل الصناعات والمناطق الآهلة بالسكان البعيدة عن مناطق عمل الجيوش.

(جـ) لا يجب العمل بخاصة ضد قوات العدو الجوية بمقاتلتها في الجو بل تدمير المنشآت الأرضية والمصانع التي تستمد منها حاجتها من المواد.

=وفي كل المراجع التي أشير فيها إلى كتابات دوهيه بقصد الإشارة إلى هذه الترجمة الإنجليزية لا إلى الأصل الإيطالي وذلك تبعاً لأنه يمكن لعدد كبير من القراء بالإنجليزية الحصول عليها في سهولة ويسر.

(١) Col. P. Vauthier, La Doctrine de Guerre du General Douhet (Paris: Berger-Levrault, ١٩٣٥); H. de Watteville," Armies of the Air", The Nineteenth Contury and After (October ١٩٣٤) pp. ٣٥٣ – ٣٦٨; N. N. Golovine,"Air Strategy", Royal Air Force Quarterly (April, ١٩٣٦) p. ١٦٩.

(٢) The Command of the Air, p. ٢٨.

(د) يكون دور القوات البرية دورًا دفاعيًّا بقصد احتلال جبهة تمنع تقدم العدو على البر، كما تمنع بخاصة استيلاء العدو بأعماله البرية على أيٍ من وسائل مواصلاتنا أو صناعاتنا أو منشآت قواتنا الجوية، على حين يكون هجومنا الجوي في نفس الوقت يُتابع العمل لشل طاقة العدو على إمداد جيشه باحتياجاته وتحطيم إرادة شعب العدو لاحتمال القتال ومتابعة الحرب.

(هـ) لتحقيق الاستخدام الاقتصادي للجهد الشامل يجب العمل لإيجاد طائرات قتال تخصص للدفاع ضد قاذفات القنابل في قوات العدو الجوية، ويجب أن يكون النموذج الأساسي (الطابع الأساسي) لهذه الطائرات، «**طائرة المعركة**» الطائرة التي يمكن أن تقوم بعمليات التدمير وتستطيع في نفس الوقت الدفاع عن نفسها أو تستطيع أن تستخدم – على التبادل – لأغراض القتال.

* * *

والواقع أنه لم يعد اليوم من شك في صحة أول هذه الاستنتاجات (العوامل) التي سبقت الإشارة إليها قبل سطور لو فسرت كلمتا «**السيادة الجوية**» تفسيرًا دقيقًا بعناية؛ ولو استطاعت دولة مقاتلة مهاجمة عدوها من الجو بعد أن تكون كل دفاعات العدو قد «**صُفيت**» تحطمت، كان من الواضع أن الدولة المهاجمة والتي يتوافر لها الاستخدام الطليق لقواتها الجوية لا بد وأن تنتصر على الدولة التي لم تعد تملك مثل هذا الاستخدام ولم تعد لها دفاعات ثابتة ضد الهجوم الجوي، والاستنتاج هنا منطقي وصحيح، ولكن الصعوبة هي في الوصول إلى هذه الدرجة من السيادة الجوية والتي

هي أكثر صعوبة مما قدر دوهيه من قبل، فإن دفاعات العدو الجوية والمضادة للجو تتشبث بالحياة إلى الدرجة التي تفرض ما يُحدد من هذه الطلاقة في استخدام القوة الجوية للأمة التي تقوم بالهجوم.

وقد قدر دوهيه التطور مستقبلًا على أساس إصراره على العامل الأساسي الثاني، وتفضيله الأغراض الصناعية على الأغراض العسكرية كأهداف للهجوم الجوي، ولم تكن هذه الفكرة جديدة فالكتب التي صدرت حتى قبل سنة ١٩١٤قد تنبأت بإفناء المراكز الصناعية ومراكز السيطرة المالية بتدميرها من الجو على ما قدمنا فيها اقتبسناه منها، ولكن كان أول من جعل المنشآت الصناعية كأغراض للهجوم الجوي مركزًا لعقيدة عسكرية كاملة تطورت مع الزمن.

ولقد نمت أهمية الأغراض الصناعية ومحطات العدو الجوية كأغراض للهجوم الجوي، نمت مع مرور الزمن، ولكن نظرية دوهيه لاختيار الأغراض في ضوء الإفناء النسبي لمعنويات السكان المدنيين بقيت تتأرجح لسنوات طوال دون أن تحقق ما تستحقه من تقدير.

صحيح أنه قد يمكن في مكانٍ ما الوصول إلى نهاية مدى الاحتمال البشري، ولكن أصوات الأحياء من السكان الذين لم يقهروا من شنج كنج إلى كوفنتري(١) قد ارتفعت مؤكدة عدم إمكان الوصول إلى الحال التي تنبأ بها دوهيه.

ومن الضروري أن يُقال هنا أن دوهيه كان مُقدرًا مُعقبات ونتائج حشد الهجوم ضد السكان الذين لا تتوافر لهم قوة للدفاع عن أنفسهم إثر

(١) شنج كنج في الصين وكوفنتري في إنجلترا.

حصول العدو على السيادة الجوية، ولكن حتى مع هذا، فمن الواضح أنه لم يقدر تقديرًا صحيحًا الصلابة التي يمكن بها احتمال التدمير الجوي.

«وأود هنا أن أؤكد ناحية من المشكلة، ناحية تأثير مثل هذا الهجوم الجوي على الروح المعنوية وما يمكن أن يكون له من تأثير على سير الحرب وتوجيهها بأكثر مما يمكن أن يكون للمؤثرات المادية، فلنتصور - على سبيل المثال - المنطقة المركزية في مدينة كبيرة، ولنتصور ما يمكن أن يحدث بين السكان المدنيين أثناء عملية واحدة لهجوم جوي بواسطة وحدة واحدة من قاذفات القنابل، إنني لا أشك إطلاقًا في أن التأثير على الأهلين سيكون مخيفًا».

«وما يمكن أن يحدث لمدينة واحدة في يوم واحد يمكن أن يحدث لعشر مدن، لعشرين، لخمسين مدينة، ولما كانت الأنباء تسير بسرعة حتى بدون البرق والتليفون والمذياع فإني أتساءل عما يمكن أن يكون التأثير على السكان المدنيين في المدن الأخرى التي لم تتعرض بعد لهجوم قاذفات القنابل؟، وأي سلطة مدنية أو عسكرية تستطيع الاحتفاظ بالنظام مما يمكن من سير الخدمات العامة ومن تتابع الإنتاج بإزاء مثل هذا التهديد؟، وحتى لو أمكن قيام صورة من صور النظام وأمكن أداء بعض الأعمال فهل لا تستطيع طائرة واحدة أن تبعث الرعب في صفوف السكان؟، إن الذي سيحدث في إيجاز هو أن الحياة العادية ستكون مستحيلة في خضم هذا الحلم الهائل من التدمير والموت، ولو حدث في اليوم التالي أن عرضت عشر أو عشرون أو خمسون مدينة للتدمير بالقنابل فمن الذي يستطيع منع هذه الجماهير التي تعيش في رعب من الفرار والاندفاع نحو المناطق الريفية المكشوفة للفكاك من هذا الرعب الذي يجئ من الجو؟».

«الواقع أنه لا يمكن إلا أن يتحطم البناء الاجتماعي للدولة التي تتعرض لمثل هذا النوع الذي لا مثيل له من التدمير الجوي، وسيأتي قريبًا الوقت الذي تنتهي عنده المخاوف والآلام، ذلك لأن الجماهير نفسها تقف وقفة رجل واحد مطالبة بانتهاء الحرب، ويحدث هذا قبل أن يكون جيش بلادهم وأسطولها قد عبِئا للقتال»[١].

وقد وضعت نظرية دوهيه للتدمير من الجو على أساس عملية حسابية، وقد قدر أن عشرين طنًا من القنابل تكفي لتدمر تمامًا منطقة قطرها خمسمائة متر، ومعنى هذا الحاجة إلى ٢٥٠ طنًا من القنابل لتدمير منطقة ميل مربع، وهنا يقول دوهيه متسائلًا: **«فماذا يمكن أن يحدث لمدينة مثل لندن لو أمكن أن يدمر في وسطها منطقة أو اثنتان أو أربع كلٍ منها بقطر خمسمائة متر؟»** ويتابع تقديراته بقوله: **«أن أسطولًا من ألف قاذفة قنابل يستطيع أن يُدمر كل يوم خمسين منطقة من أمثال هذه المناطق»**.

وهنا يجب أن نُلاحظ الفرق بين هذه التقديرات التي خرج بها دوهيه وبين ما حدث فعلًا سنة ١٩٤٠ – ١٩٤١، أو بين ما قدره دوهيه من أوزان القنابل وبين ما استهلكه السلاح الجوي البريطاني في إغاراته على ألمانيا لتحقيق نتائج أقل بكثير مما صوره دوهيه، هذه الفروق توضح لنا أن دوهيه لم يُقدر تقديرًا كافيًا قلة ما تسببه القنابل عندما تسقط على مناطق قوية البناء، كما أنه قد زاد من تقديره لإحكام الرمي ودقة إصابة الطائرات لأهدافها وهي على ارتفاع كبير، فضلًا عن أنه لم يقدر كذلك التكرار الذي يحدث عندما تهاجم الطائرات مناطق قد سبق أن دمرتها هي أو غيرها في إغارات

(١) «السيادة على الجو» ص ٥٧ – ٥٨.

سابقة.

لقد صدقت تقديرات دوهيه بالنسبة لإلقاء أطنان القنابل على الدور الصغيرة، ولكن هذا المدى لقطر المنطقة التي تعرض للتدمير الكامل بفعل طن واحد من القنابل لم يكن صحيحًا بالنسبة للقنابل التي تسقط في طرقات المدن الكبرى حيث توجد الأبنية المتعددة الطبقات والمشيدة من الأحجار وبخاصة بالنسبة لتلك المشيدة من الحديد والأسمنت.

***

على أن دوهيه كان صائب الرأي في تقديره للدور الأساسي الذي يمكن أن تلعبه القنبلة الحارقة، ولكن تقديره للاستخدام الواسع المدى لقنابل الغازات لم يوضع موضع التجربة العملية حتى اليوم، ويجب ملاحظة أن دوهيه لم يضع موضع التقدير التحديدات التي تمنع استخدام مثل هذا السلاح؛ وفي كلمات يمكن أن تتقبل على أنها من ناحية منطقية تمثل وجهات نظر دوهيه المؤلف في أسلوب قصصي يتحدث به عن حرب المستقبل فيقول: «**وفي مواجهة المصلحة الذاتية لغريزة البقاء تفقد كل عقيدة قيمتها ويفقد كل ارتباط قيمته، وتضيع موازين كل المسائل الإنسانية، ويكون المبدأ الوحيد الذي يوضع موضع التقدير والاعتبار الحاجة إلى قتل الناس بدلًا من أن يواجه الفرد نفسه أن يقتل هو !!**»[١].

ومع أن كتابات دوهيه قد أعطت القوات التي تعمل على سطح الأرض وعلى سطح البحر الواجب الدفاعي باحتلال خط وراء تحصينات دائمة أو في خنادق محفورة، ومع إعطاء واجب دفاعي مماثل للقوات

(١) نفس المرجع ص ٣٠٩.

البحرية إلا أن التطور الصحيح في استخدام القوة الجوية سيجعل سير الحوادث سريعًا بالقدر الذي يكفي لجعل مقاومة قليلة قادرة لتعطيل قوات العدو البرية أو البحرية عن القيام بأي ضرر قبل أن تكون النهاية قد تقررت بصورة أخرى.

ويُصور دوهيه في تقديراته للحرب المقبلة[(١)] فرنسا وقد تحولت أربع من مدنها إلى ركام مُحترق بعد ساعة واحدة، مطالبة بالسلم قبل مرور ستٍ وثلاثين ساعة من بدء القتال.

وكان دوهيه أكثر من أي كاتب آخر وقبل أي كاتب آخر قد تحدث عن إمكان تحقيق النصر السريع[(٢)]، ولهذا فقد قدر اخصائيون أن الحرب التي بدأت سنة ١٩٣٩ ستحقق نهايتها في مدى أيام قليلة من بداية القتال الجدي[(٣)].

ومع أن دوهيه كان من رجال العلم والصناعة إلا أنه لم يكشف إلا عن القليل من المعرفة والدراية بالهندسة الجوية، وكالكثيرين غيره ممن كتبوا عن الموضوع فإنه قد رأى الطائرة كآلة رخيصة أبسط مما هي حقًّا، كما أنه قدر إمكان سرعة تغيير أوجه استخدامها بتعديل بسيط في معداتها في الميدان ولم يكن لهذا نصيب كبير من الحقيقة على ما هو الواقع، وقد خرج بالاصطلاح «**طائرة المعركة**» – الاصطلاح الذي ذكر في إحدى صور

(١) Douhet" The War of ١٩— "as it appears in The Command of the Air, pp. ٣٧٤ – ٣٨٩.

(٢) راجع على سبيل المثال:

Stuart Chase," The Two-Hour War", Men and Machines (New York: The Macmillan Co., ١٩٢٩) p. ٣٠٧.

(٣) انظر:

Inter alia, Alford J. Williams, quoted in Time (October ٢٣, ١٩٣٩), p. ٣٢.

نظريته – نتيجة تقديره أن القنابل أو الوقود العامل الذي يحول الطائرة من سلاح هجومي إلى سلاح دفاعي؛ ***والواقع*** أن شيئًا مثل هذا لم يكن مُستطاعًا في عصره أو لم يكن سهلًا ميسورًا على الأقل عندما كتب هذه الكلمات، ثم ازدادت صعوبته فضلًا عن أنه لم يكن عمليًا تبعًا لزيادة طابع التخصص منذ ذلك الوقت، وهو لم يقلل من قيمة طائرة القتال ولكنه رأى أن خاصياتها وواجباتها يجب أن تكون مماثلة لخاصيات وواجبات قاذفة القنابل، كما رأى بأنه تطور غير اقتصادي لو اضطرت أمة أن تبني طائرات لا تستطيع أن تفعل شيئًا إلا أن تقاتل.

وفي السنوات التي سبقت سنة ١٩٣٩ كان الكثيرون من الضباط ذوي التجربة في العمليات يشاركون دوهيه آراءه عن تناقص أهمية طائرة القتال، ولكن كانت وجهات نظرهم في أسباب هذا تباين الأسباب التي يستند إليها دوهيه في تقديره، ومع هذا فإن التجربة العملية لثلاث سنوات في الحرب قد وضعت طائرة القتال ذات المقعد الواحد في المكانة الأولى من الأهمية، ولكن حقيقة استطاعة تشكيلات قاذفات القنابل الأمريكية في غرب أوروبا أن تخترق في أواخر سنة ١٩٤٢ وفي سنة ١٩٤٣ نطاقات كثيفة من طائرات القتال المهاجمة دون أن تتكبد خسائر فادحة ربما تكون هذه الحقيقة سندًا يُعضد اعتقادات دوهيه، ولكن التجارب التي أمكن أن تمر بها القوات الجوية حتى كتابة هذا الفصل من الكتاب لا يمكن أن تقرر شيئًا حاسمًا ولا أن تمكن من إصدار قرار قاطع في هذا الشأن، ولا أن تمكن من تصديق ما يقوله دوهيه عن تناقص أهمية طائرة القتال.

ولكن دوهيه سار بفكرته في تماثل الخاصيات وتشابهها إلى أبعد مما تقدم ورأى امتزاج الاستخدام العسكري والمدني للطائرة: «**فنحن عندما**

نفحص بعناية الخاصيات لطائرات القتال وقاذفات القنابل في ضوء التعريف الذي حاولت تحديده لكل، فإننا نستطيع أن نجد في سهولة ويُسر أنها تكاد من وجهة عامة تتماثل وتتشابه مع خاصيات الطيران المدني، ومهما قيل أو عمل فإن قاذفة القنابل طائرة نقل متوسطة السرعة يتوافر لها مدى عمل كافٍ أعدت بخاصة لحمل القنابل، وبالتفهم المتبادل أو بمعنى أدق بالتعاون المتبادل بين الطيران الحربي والمدني يمكن أن تحول الطائرات المدنية إلى طائرات عسكرية عند الحاجة، وهذا بدوره أنه حسب التطور والتقدم في الطيران المدني فإن القوات الجوية المستقلة تستطيع أن تعتمد في الكثير من احتياجاتها وفي الكثير من معداتها، أن تعتمد على ما يُحققه الطيران المدني من تقدم بالإضافة إلى ما يتم من تقدم عسكري»[١].

وقد أدرك أن مثل هذه الطائرات لن تكون مثالية للأغراض العسكرية ولا للأغراض المدنية، ومن ثم فقد تابع حديثه: «**وسيكون من الضروري دائمًا التكيف بين كلا النقيضين، فالحرب يخوض غمارها حشود الأفراد، والحشود تجمع بين طوابع في المعدل العام، ومن ثم فإن القوة الجوية تحتاج إلى طائرات لها خاصيات متوسطة في «المعدل»[*] أشبه بتلك التي للطائرات المدنية**».

وقد يكون من الضروري أن نسجل هنا أنه بعد سنة ١٩٢٧ بدأت ثقة دوهيه في الاستخدام العسكري المباشر لطائرات النقل المدنية قد بدأت تذوى، وأنه قد بدأ ينظر إلى هذه الطائرات في كل كتاباته في تاريخ متأخر لاحق لسنة ١٩٢٧ على أنها طائرات احتياطية يمكن أن تقوم بواجبات

---

(١) The Command of the Air, pp. ٤٧ – ٤٨.

(*) تقابل كلمة Avarage.

ثانوية.

على أن القول بأن الحرب تخوض غمارها مُحتشدات من الأفراد، والقول بأن استخدام الطائرات المدنية المحولة إلى طائرات عسكرية قد يكون ضروريًا بقصد الاقتصاد، قد يكون هذا وذاك يتعارضان إلى حدٍ ما مع ما اعتاده دوهيه من التفاؤل الكبير بإمكان الاقتصاد في العمليات الجوية، ولهذا فإنه:

«من السهل إنشاء أسطول جوي تتوافر له كفاية إسقاط مئات الأطنان من القنابل ...

«لا تحتاج هذه المقذوفات (القنابل) إلى مواد خاصة في صنعها ولا تتطلب دقة في صناعتها ...

«تتطلب القوة الجوية الكافية للحصول على السيادة الجوية وبخاصة في المرحلة الأولى من الصراع، تتطلب أسلحة محدودة، وعددًا محدودًا من الأفراد، وموارد مالية محدودة، وهذه القوة يمكن أن تنظم دون اجتذاب انتباه الدول التي يمكن أن تقف في صف الأعداء».

***

وفي تصوير دوهيه لحرب المستقبل[١] صور الألمان على أنهم يملكون ١٥٠٠ قاذفة قنابل فقط، منها ١٠٠ من قاذفات القنابل الثقيلة، أي قاذفات القنابل في زنة وقوة القاذفات الثقيلة لسنة ١٩٤٢ كالقاذفات الأمريكية (القلاع الطائرة) و (ليبريتور) وكالقاذفات (لا نكاستر) البريطانية.

(١) The Command of the Air, p. ٣٣٧.

وقد قدر في وصفه التخيلي للحرب أن ثلث هذا العدد قد فقد في اليوم الأول للحرب، ولكن الألمان في نفس الوقت نجحوا في تحطيم أغلب طائرات القتال الفرنسية التي وجهت للعمل ضدهم، وقد سبب هذا أن ترك الألمان ومجرى الحوادث للمستقبل في أيديهم.

والواقع أنها لمسافة تستحق الملاحظة أن يقال بأن أسطولًا جويًا منتصرًا يمكن أن يفقد ثلث عدد طائراته في اليوم الأول للقتال؛ ودوهيه لم يكن ليؤمن بالاحتياطي بل هو يرى أن كل القوة الجوية يجب أن يلقى بها على المسرح فور ابتداء القتال، والاحتفاظ بأي عدد من الطائرات معناه إتباع سياسة دفاعية، وهذه مسألة أكثر نفقات وأقل تأثيرًا من الهجوم الطليق الجريء غير المحدود بقصد التحطيم المباشر لقواعد العدو وموارده.

* * *

على أن دوهيه في إصراره على قيمة الهجوم أبعد من حسابه التدابير الدفاعية دون تقدير لإمكان أن تمر هي الأخرى بمرحلة تطور فني، ولقد فشل بخاصة ليقدر التطور غير العادي لإحكام معرفة مكان طائرات العدو بواسطة الراديو، كما أنه قدر أن إمكان تدخل طائرات القتال ضد قاذفات القنابل للعدو ليس أكثر من جد (حظ)، وأغفل من حسابه النيران المضادة للطائرات بقوله: «**إنَّ استخدام المدفعية ضد الطائرات ليس إلا إسرافًا لا فائدة منه في الجهد والذخيرة**»، ولم يفكر إلا قليلًا في دفاع جوي أفضل، وكان يكرر دائمًا بعض الحقائق التاريخية السابقة، «**من أن كل هجوم جوي نُفِّذ بجرأة في الحرب العالمية (١٩١٤ – ١٩١٨) حقق أهدافه**».

على أن أسوأ ما كان بعدما فشل دوهيه في تقديره، كان فشله في تقدير

التطور الفني – سواء أحكم على هذا في معدل آراء التكتيكيين الجويين الأخصائيين ممن عاصروه، أم حكم في ضوء التجارب التي مرت أمامه طوال الخمس عشرة السنة التالية – إنما كان في عدم تقدير ميزة السرعة للطائرة العسكرية، ولعله كان متأثرًا بطبيعة الأوضاع في السلاح البحري، ولهذا فإنه عُنِي العناية كلها بالقوة لا بالسرعة وقدم قاذفة القنابل على طائرة القتال.

ولكن دوهيه لم يغفل السرعة إغفالا تامًا، بل أنه ليذكرها كخاصية مطلوبة، ولكنه لا يلبث أن يعود ثانية للقول بأنها ميزة ثانوية عندما تقارن بالعوامل الأخرى، «**وسواء أكانت قاذفات للقنابل أم طائرات للقتال فإنها لا تحتاج إلى أكثر من سرعة متوسطة ولا حاجة لتوجيه الاهتمام كله إلى السرعة، ولن يجيء هذا التطور الفني لقاذفات القنابل ولطائرات القتال إلا بالقليل من الأهمية، ومع الاحتفاظ بعد تغيير الخاصيات الأساسية الأخرى فإن سرعة قاذفات القنابل وطائرات القتال ستكون بين عشرة وعشرين ميلًا في الساعة**»(١).

وكان صائب الرأي في توقع أهمية قاذفة القنابل الثقيلة، كان على حق في وقت كان القليلون وحدهم هم الذين يرون إمكان استخدام مبدأ التدريع في الطائرات، ولكنه كان مخطئًا بقدر كبير في وقوفه موقف التضاد نسبيًا من عامل السرعة الذي بقي في الواقع واحدًا من أهم الخاصيات الحاسمة الأهمية في أي سلاح عسكري.

على أن خطأ دوهيه فيما يختص بعامل السرعة كان في درجة تقديره

---

(١) The Command of the Air PP. ٤٧ – ٤٨.

لهذا العامل، ولكنه – فيما أخطأ فيه غير هذا – ضل طريقه إلى حد ارتكابه أخطاء جسيمة في الحقائق الفنية، فهو على سبيل المثال قد اعتقد أن أقل ما تحتاج إليه الطائرة من قوة لتطير، يمكن أن يخفض مع زيادة ارتفاع الطائرة، أي أن الطائرة كلما زاد ارتفاعها قل ما تحتاج إليه من قوة لتطير، وفسر هذا بأن سرعة الطائرة تتضاعف بزيادة الارتفاع بسبب تناقص كثافة الهواء[١] (الواقع أن زيادة السرعة الناتجة عن زيادة الارتفاع ليست بنسبة ١٠٠٪ بل بنسبة تقل قليلًا عن ٢٥٪)، وإن الطائرات الكبيرة جدًّا «**ربما لا تستطيع الهبوط أو الصعود إلا من وعلى طبقة سائلة ولهذا يجب أن تنشئ بحيرات صناعية لهبوط الطائرات**».

وتبعًا لقلة ما توافر لدوهيه من معلومات عن بعض هذه المسائل فإنه كان حذرًا في تنبؤاته الفنية إلى حد أن كتبه جاءت خلوًا من المبالغة في الوعود بالطاقة الفنية المتوقع أن تتحقق مباشرة أو مستقبلًا للطائرات الأمر الذي تنكب فيه غيره من الكتَّاب الذين تعرضوا لدراسة القوة الجوية.

وبالإضافة إلى النتائج التي انتهى إليها عن كيفية توجيه الحملة للانتفاع بالقوة الاكتساحية التي للسلاح الجوي، - بالإضافة إلى هذا – كانت لدوهيه آراء عن التنظيم العسكري وعن السياسة العامة، ولقد كان مدافعًا لا تلين قناته لمبدأ (التوحيد) وحدة التنظيم العسكري والبحري والجوي، وبعد سنوات قليلة من سنة ١٩١٨:كان يتحدث عن (الحرب الشاملة)، وكتب سنة ١٩٢١ «**لقد أعطت الصور القائمة للتنظيم الاجتماعي، أعطت الحرب طابعًا شاملًا قوميًا، ذلك أن كل أفراد الأمة ومواردها تنغمر**

(١) The Command of the Air, p. ٦٧.

في خضم الحرب، ولما كان المجتمع يسير في هذا الاتجاه فمن الممكن للإنسان أن يتنبأ من الآن بالطابع الشامل الذي سيكون للحرب»[١].

«**هناك نظريات للحرب البرية، وللحرب البحرية، وللحرب الجوية، وهذه النظريات قائمة موجودة وتتطور، ولكن نظرية «الحرب» في جملتها نظرية لم تعرف بعد**»، وقد وقف إلى جانب تنظيم دفاع قومي عن طريق وزارة مركزية، وقد سره في سنة ١٩٢٧ أن يشهد قيام هذه الوزارة (المركزية) في روما.

لقد كان تأثير كتابات دوهيه بعيد المدى، والكثير مما قال دعمته وأكدت منه تجارب الكتاب الذين جاءوا بعده، ولكن الكثير أيضًا مما كتب ثبت من جانب آخر أنه مليء بتفاؤل زائد عن الحد أو أنه تقدير خاطيء، وقد ثبت أثناء الحرب العالمية الثانية أن بعض معتقدات دوهيه لم تكن سليمة منطقية، ومع هذا فإن اتجاه التطورات كان إلى حد ما في جانب ما تنبأ به دوهيه اللهم إلا فيما قال عن تصميم الطائرة، فلقد ضل دوهيه الطريق في حديثه عن هذا وعن الخاصيات التي ستكون للطائرة التي ستستخدم في حروب المستقبل، ولكن قراره عن الأساليب التي ستستخدم فيها هذه الطائرة كان صالحًا في سنة ١٩٤٣ أكثر مما كان من الممكن إثبات هذا في ضوء ماجريات الأمور في عصره، ولكن من المحتمل أن تصل التطورات القادمة – في الطاقة التي ستكون للطائرة – بجهود القادة العسكريين إلى ما يقرب من الوسائل والأساليب التي قدرها دوهيه.

وما قاله دوهيه عن حشد الجهود لتدمير منطقة صغيرة وعن اختيار الأغراض الصناعية، وعن بناء قاذفات قنابل ضخمة قوية التسليح

---

(١) The Command of the Air pp. ٥ – ٦.

والتدريع للدفاع عن نفسها – وإن كان هذا لم يتبع تمامًا ما رآه دوهيه من عدم الحاجة إلى حماية قاذفات القنابل بطائرات مقاتلة – كل هذا الذي قاله دوهيه يبدو واضحًا اليوم، وقد نظم كل هذا وطبق في أثناء الحرب العالمية الثانية، ولكن كان دوهيه في الواقع هو الذي أعطى هذه الآراء الطابع القوي طوال سنوات التجربة في الحقبتين الثانية والثالثة من القرن العشرين.

ونستطيع أن نقدر أن دراسات دوهيه حظيت بعناية الباحثين العسكريين الجادين، نستطيع أن نقدر هذا من أن ضابطًا له شهرته ومكانته مثل الكولونيل ب. ڤوتيير P. Vauthier قد وجد الوقت الذي يعد فيه دراسة نقدية لكتاب دوهيه(١)، وأن يكتب المقدمة لذلك المجلد الكبير (تحمل المقدمة تاريخ السابع من يونيو سنة ١٩٣٤).

إن دراسة دوهيه لمورد لا ينضب من الانعكاسات والتصورات، والعقيدة الممتازة التي صاغها قد يكون لهما تأثير حاسم على الحوادث القادمة، ويوضح في دراساته التمهيدية وفي وسائله التي استخدمها، النتائج التي رسم بدراساته السبل المؤدية إليها، ولهذا فلا يجب أن نترفق في تعاملنا معه ولا ننظر إلى الرجل الذي قد يعتبر في المستقبل نبيًا على أن ما كتبه حلم مثالي.

وهذه السطور القليلة لم تنقل من كتابات شاب وثّاب متطلع بل إنها تحمل توقيع الماريشال بيتان(*).

---

(١) La Doctrine de Guerre du General Douhet (Paris, ١٩٣٥).

(*) بيتان Marshal Petain هنري فيليب بيتان – مارشال فرنسا سنة ١٩١٨ بطل فردون في الحرب العالمية الأولى، رئيس وزراء حكومة فيشي الفرنسية ١٩٤٠ – ١٩٤٤، حوكم بتهمة الخيانة سنة ١٩٤٥، وكانت محاكمته والحكم عليه مثار تعليقات فقهية ويوجد=

إن قاذفات القنابل ليست بمنجاة من العمل المضاد سواء من الجو أو من الأرض ولكنها – نسبيًا – أقل تعرضًا مما كانت منذ عشرين سنة (لاحظ أن هذا الفصل كتب سنة ١٩٤٧/ ١٩٤٨)، كما يجب ملاحظة أن الافتراضات الأساسية التي قدرها دوهيه لاعتبار الطائرة سلاحًا لا يقهر وأنها أكبر قوة وأكثر اقتصادًا من أي سلاح آخر، هذه الافتراضات التي لم تتوافر لها الدعائم التي تثبتها في أيام دوهيه قد وصلت اليوم إلى الحد الذي يجعلها قريبة جدًّا مما قال دوهيه، ومع مرور عشرين سنة أخرى في تطور علم الجو ستكون أقرب بكثير مما هي الآن ولاشك؛ إن الرجال الذين كانوا يحتملون مسئولية تنظيم الأمن القومي في أيام دوهيه كان عليهم أن يعتمدوا على الأسلحة التي كانت موجودة يوم ذاك، وفي هذه الحال نستطيع أن نقول بأن نظريات دوهيه قد صيغت للمستقبل، وأنها كانت أقل صلاحية للتطبيق بالوسائل التي كانت موجودة في عصره فيما لو قورنت بما وصلت إليه هذه الوسائل فيما بعد أيام دوهيه.

على أن الباحثين في شئون القوة الجوية في عصر دوهيه قد تقبلوا مبدأ الاستثناء بالنسبة للافتراضات العسكرية التي جاءت في استنتاجاته بل وفي هذه الاستنتاجات نفسها من ناحية النظر إليها كموجه كافٍ في العمليات الجوية.

=كتاب بالعربية عن القضية من قلم الدكتور مصطفى الحفناوي طبع القاهرة.

ومن الصحيح أن بيتان قد استسلم للألمان وكان هو الذي أنهى القتال في ١٦ يونيو سنة ١٩٤٠، وقد حوكم بيتان بعد الحرب العالمية الثانية وأدانه قضائه ولكن لا محل لمناقشة هذا اليوم، ولكن بيتان قبل كل شيء كاتب عسكري له مكانته في المكتبة العسكرية العالمية ما في هذا من شك. (المترجم)

ولقد عزا الـچنرال جولوڤين[١] General Golovine مع غيره هذا التقدير الكبير الذي نظر به دوهيه إلى التأثير التدميري للقنابل في الروح المعنوية للمدنيين، ولقد دعمت التجارب منذ سنة ١٩٣٩ نظريات وآراء أولئك الذين نقدوا دوهيه بأكثر مما تدعم آراء دوهيه نفسه، ولكن بالنسبة للمبادئ العامة كان الوقت إلى جانب دوهيه، ولكن افتراضاته عن كمية الجهد اللازم لتحقيق تأثير محدد معين كانت مليئة بالمبالغة مثلها مثل كل ما جاء في كتابات أولئك الذين وقفوا إلى جانب تقدير السيادة للسلاح الجوي.

وكانت نظرية دوهيه قاعدة السياسة الإيطالية ولم تطبق في أي دولة أوروبية بالقدر الذي طبقت به في إيطاليا، ولقد تبعت ألمانيا التي بعثت طائراتها الرعب في أوروبا من سنة ١٩٣٨ حتى أثبتت معركة بريطانيا خطأ القول بأن الطائرة سلاح لا يُقهر – اتبعت نظرية دوهيه في حشد كل الجهد لتدمير قوات العدو الجوية وهي على الأرض واكتساح قواعد العدو الجوية، ولكنها لم تتبع نظريته تمامًا من ناحية الاحتفاظ بالتعاون المستمر بين القوات الجوية وبين القوات البرية والبحرية، ولم تتبعها كذلك في الإبقاء على القوات البرية والبحرية للقيام بواجب دفاعي معاون، وكذلك لم تتبعها باستخدامها قاذفات القنابل الخفيفة بدلًا من قاذفات القنابل الثقيلة، وعندما وصلت القوة الجوية الألمانية إلى ما يقرب من نظرية دوهيه فوق بريطانيا سنة ١٩٤٠ فإنها فشلت، وإن كان من المؤكد أن هذا الهجوم الجوي كان من الممكن أن ينجح لو توافرت للألمان السبل والوسائل لتقوم بالهجوم في مدى أوسع ولاستطاعت القيام به لوقت أطول.

---

(١) N. N. Golovine "Air Strategy", Royal Air Force Quarterly, (April, ١٩٣٦), p. ١٦٩.

وقد لا يكون من هدف هذه الدراسة مناقشة مسألة ما إذا كان التطور في صناعة الطائرة وفي تسليحها قد وصل يوم ذاك إلى المرحلة التي تمكن من النجاح في توجيه الحرب تبعًا للأسلوب الذي وضعه دوهيه؛ وهل كان الألمان يمكن أن يحققوا نجاحًا أكبر – أو بمعنى أدق – هل كان من الأفضل للألمان – من وجهة نظرهم – أن يُنشئوا صناعة أكبر للطائرات وأن يوجدوا في السلاح الجوي قوة عددية أكبر، أي أن يوجهوا إلى صناعة الطائرات من المواد والأفراد أكثر مما وجهوا للدبابات والمدفعية والغواصات والسفن التي تشق عباب البحر مقاتلة فوق سطح الماء، مع نقل جزء من قواتهم البرية والبحرية إلى السلاح الجوي وتوجيه الجزء الأكبر مما تبقى بعد ذلك للعمل في صناعة الطائرات؟؛ وهل من السياسة الحكيمة أن يتبع الأمريكان نفس الأسلوب في الوقت الحاضر؟

لقد نوقشت هذه المسألة بمختلف اتجاهاتها، وهنا يجب أن يُلاحظ بأنه من المؤكد أن حشد هذه الجهود – هذا الحشد الفريد في نوعه – وتوجيهها كلها للسلاح الجوي ولصناعة الطائرات مسألة مُستطاعة اليوم (في سنة ١٩٤٣)، أكثر مما كانت منذ عشر أو عشرين سنة، كما أنها ستكون أيسر وأصلح بعد عشر سنوات أخرى قادمة.

- ٣ -

وجاء نشاط الـچنرال ميتشل في نفس الوقت تقريبًا مع نشاط دوهيه، كان هناك الكثير الذي تماثل فيه الاثنان، ولكن اطلاق اسم دوهيه لا ميتشل على الكثير من النظريات التي تماثلت آراء الاثنين بشأنها إنما يرجع جزئيًا إلى المصادفة، كما يرجع من ناحية إلى قدرة دوهيه على تقديم استنتاجاته التي

خرج بها من دراسته في صورة أوضح وفي أسلوب كتابي أكثر تنسيقًا، كما يرجع كذلك إلى تزايد الاهتمام بالدراسات العسكرية في أوروبا عنه في الولايات المتحدة.

ولكن مع هذا كان هناك تباين واسع المدى بين الاثنين، ولهذا التباين بعض الأهمية، ذلك لأن الأسلوب الذي استخدم في المناقشات بين الجماعتين المتضادين في اختلافهما على المكانة التي للسلاح الجوي كان انعكاسًا لتكتيكات أولئك الذين كانوا أكثر نشاطًا من غيرهم في الجانبين المتضادين.

كان ميتشل يتحدث ويكتب كمواطن مقاتل يفقد صبره بسرعة ولا يستطيع احتمال المعارضة، ومع فقده للصبر تدريجيًا تتزايد في اتجاه عكسي حملته على خصومه «أولئك الذين تعميهم المصلحة، غير الأمناء الذين يقفون بغباء وحماقة موقفًا رجعيًا». وقد أجاب عليه خصومه بنفس الأسلوب العنيف وأضحى الخلاف أكثر مرارة.

وبقي دوهيه مُحتفظًا بطابع الطالب الذي يبحث بصبر عن الحقيقة، حتى في مناقشته لخصومه، وقد كتب: «ليس لي ولا للـچنرال باستيكو Bastico ولا لأي فرد آخر أن يُحدد السيادة في الحرب لسلاح خاص، فإذا كان لأي سلاح من أسلحة الحرب هذه الأهمية التي تُغطي على ما يمكن أن يكون من الأهمية لغيره من الأسلحة فلن يكون هذا بسبب الرغبة البشرية بل بسبب أن الحقائق التي لا يمكن الكشف عنها هي التي تقول هذا، فإذا كان للسلاح «الجوي – الكيميائي» aero-chemical الدور الحاسم في حرب المستقبل فلن يكون هذا بعملي أنا ولن أستحق من أجل هذا لا المديح ولا

اللوم»[١].

وقد اشترك ميتشل إلى حدٍ ما مع دوهيه – حتى دون أن يحظى بثقة الأخير تمامًا – اشترك معه في أهمية ا لهجوم على البناء الاقتصادي الصناعي للعدو، كما اتفق معه في التحطيم المقارن لمعنويات المدنيين، وهو كدوهيه قد آمن بإمكان شل النشاط الإداري والصناعي بواسطة عمليات تدمير قليلة نسبيًا، وقد قال في حديثه عن احتمال قيام العدو بالهجوم على المدن الرئيسية في الولايات المتحدة: «ليس من الضروري أن تدمر هذه المدن بمعنى أن تتحطم كل دار فيها تحطيمًا كاملًا تتحول معه إلى ركام من الأنقاض، إنه ليكفي أن يضطر السكان المدنيون لترك دورهم فلا يستطيعوا القيام بأعمالهم العادية، وعدد قليل من القنابل المشحونة بالغاز يكفي لتحقيق هذا»[٢].

ولقد أسقط على لندن في سنتي ١٩٤٠ و ١٩٤١ عدة آلاف من الأطنان من القنابل ومع ذلك بقيت الحياة في المدينة تتبع مسيرها العادي، ولم يحدث إلا أن جزءًا قليلًا جدًّا من مبانيها لم يعد صالحًا للإقامة.

«وسيسبب تهديد أي مدينة في المستقبل بالتدمير الجوي أن يجلو عنها أهلوها وأن يتوقف العمل في مصانعها ومن الضروري لتحقيق نصر حاسم في الحرب يجب تحطيم قوة الأمة المعادية، ومعنى هذا تحطيم المصانع، وسائل الواصلات، مناطق إنتاج الأغذية بل وحتى تدمير الحقول ومناطق الإمداد بالوقود، وكذلك الأماكن التي يعيش فيها الناس والتي يقومون فيها

---

(١) فوثيير نفس المرجع ص ١٢١ فقرة من خطاب كتبه الـچنرال دوهيه. راجع أيضاً: The Command of the Air, pp. ٢٥١ – ٢٦٢.

(٢) William Mitchell, Skyways-A Bock on Modern Aeronautics (Philadelphia and London: J. B. Lippincott Co., ١٩٣٠), P. ٢٦٢.

بأعمالهم اليومية في الحياة، وكل ما تستطيع القيام به في وقت قصير الطائرات التي تعمل في قلب أرض العدو»[١].

«على أن القوة البحرية التي تستطيع أن تتجه مباشرة إلى هذه المراكز الحاسمة الأهمية فتحطمها أو تشلها عن العمل قد أعطت طابعًا جديدًا تمامًا على الأسلوب العادي للحرب، ومن المعروف الآن أن جيش العدو الرئيسي هدف زائف، أما الأغراض الحقيقية فهي المراكز ذات الأهمية.. وستكون نتيجة الحرب الجوية تحقيق قرارات سريعة، أن القوة الجوية هي التي ستحقق أفضل النتائج بالقدر الذي يكون معه من المستحيل على العدو متابعة الحرب لمدى طويل»[٢].

وقد وجه ميتشل في أولى كتاباته بعد سنة ١٩١٨ مزيدًا من اهتمامه إلى التعاون بين القوات الجوية والقوات البرية، ولكن مع مرور الوقت قل تقديره للقوات البرية حتى كانت في وضع ثانوي الأهمية، ومن ثم زادت بالتبعية ثقته في الطاقة الفنية للطائرات.

على أن ميتشل مع هذا تابع فكرته عن الأهمية الكبيرة لاستخدام القوة الجوية لتدمير قوات العدو على البر وعلى سطح الماء[*]، وقد اختلف مع دوهيه في هذا المجال، فلقد كان دوهيه عازفًا عن هذه القوات معنيًا بتدمير كتلة السكان وموارد الأمة من خلفهم، وهذا الخلاف في وجهات النظر بين

(١) Mitchell,Winged Defense (New york and London: G, P, Putnam's Sons, ١٩٢٥) PP ١٢٦ – ١٢٧.

(٢) Skyways PP. ٢٥٥ – ٢٥٦.

(*) يكثر ادورد وارنر من استخدام اصطلاح Enemy Surface Forces ويقصد بها الأسلحة البرية المقاتلة على أنها يمكن أن تعني القوات التي تنقلها السفن.

الرجلين يرجع جزئيًّا إلى الخلاف بين انعكاسات الفكر على النظرية القومية والنظرية الجغرافية لكلٍ منهما.

والواقع أن طاقة الطائرة على جعل أي سفينة تسير فوق سطح الماء مجرد عائمة تطفو فوق الماء ولا قيمة عسكرية لها قد أثرت في آراء ميتشل ومعتقداته، ويتضح هذا من قوله:

«**فإذا سقطت قنبلة زنة ألفي رطل على مقربة من سفينة وفي مدى مائتي قدم منها فإن التأثير التدميري أسفل سطح الماء يكون كبيرًا إلى حد إحداث ثغرة في قاع السفينة وجعلها تغرق**»[(١)]، ولقد غرقت حقًّا سفن كثيرة في الحرب العالمية الثانية وبوسائل أيسر من هذا.

«**ومن المحتمل أن الحروب المقبلة ستوجه بواسطة سلاح خاص هو القوى الجوية على مثال ما حدث بواسطة الفرسان لابسي الدروع في القرون الوسطى، ومرة ثانية كذلك لن تكون من حاجة لاستدعاء كل أبناء الأمة في حال الطوارئ بل يستدعي فقط العدد الكافي من الرجال لقيادة هذه الآلات والتي هي القوة الأساسية في الدفاع القومي**»[(٢)].

ولقد كان الـچنرال ميتشل – تبعًا لتجاريبه الشخصية كطيار عسكري ولتوليه قيادة قوات جوية في المعركة – كان تبعًا لهذا أكثر دراية من دوهيه بالمشكلات التكتيكية، ولقد استخدم ما توافر له من موهبة لتطور الأساليب التكتيكية القائمة، ومن أهم مقترحاته التي تدل على بعد نظره فكرة استخدام جنود المظلات خلف خطوط العدو سنة ١٩١٨.

---

(١) نفس المرجع ص ٢٦٧.

(٢) Winged Defence p. ١٩.

ولقد تجنب ميتشل خطأ دوهيه في العمل على إيجاد طائرة متعددة الأغراض، واحتلت طائرة القتال مكانًا رئيسيًا في مشروع للحرب، حيثما اصطدمت القوات الجوية المتضادة اصطدامًا مباشرًا.

ولقد كتب دوهيه: ثبت في الحرب الأوروبية أن الدفاع المؤثر الوحيد ضد الهجوم الجوي هو اكتساح قوات العدو الجوية وطردها من جو المعارك[١].

وكان ميتشل أكثر دراية من دوهيه في كل المسائل ذات الخاصية الفنية، وفي كل المسائل التفصيلية الخاصة بالعمليات، وقاده هذا إلى المبالغة في تقدير السرعة التي سيسير فيها التقدم الفني في المستقبل القريب، بل وحتى المبالغة في الاحتمالات التي سيمكن تحقيقها فور انتهائه من كتاباته، فهو على سبيل المثال قد كتب:

«**إنني أستطيع أن أقول الآن على وجه التأكيد أننا نستطيع الدوران حول الكرة الأرضية في قوت قصير، ودون ما حاجة إلى تجديد ما في الطائرة من الوقود السائل**»[٢]، لقد مرت سبع عشرة سنة على هذه النبوءة، ولم يتم تحقيقها بعد (يُلاحظ أن هذه الدراسة كتبها وارنر سنة ١٩٤٣، ومن الممكن إتمام هذه الرحلة بالوقود الذري لا بالوقود السائل).

* * *

على أن أهم ما في الخلاف بين الرجلين فيما أسهما به في الفكر العسكري كان في التباين بين النظرات الجغرافية لكلٍّ.

ولقد كتب دوهيه كإيطالي واختبر نظرياته في ضوء استخدام إيطاليا

(١) نفس المرجع ص ١٩٩.
(٢) نفس المرجع ص ١٣٩.

لها، أي في ضوء تقدير دولة تقع كل الدول المعادية لها على مسافات قصيرة جويًّا، وكدولة تحمي الجبال حدودها ضد غزو بري سريع.

ومن الطبيعي أن أول ما أفكر فيه هو موقفنا نحن واحتمال القتال بين إيطاليا وبين واحدة من الدول المعادية لها المحتمل اشتباكها معها في القتال، ولهذا فإنني أقرر أنني قد وضعت هذا نُصب عيني عند تقديري لهذه النظريات التي أعرضها هنا، ولهذا فلا يجوز تقدير صلاحية هذه النظريات كلها لتطبق عمليًّا بواسطة كل الدول الأخرى، ولا يجوز إطلاقها إطلاقًا عامًّا، وعندما ننظر مثلًا إلى احتمال القتال بين اليابان والولايات المتحدة فإننا لا نستطيع أن نصل إلى نفس الاستنتاجات التي نخرج بها في دراسة أخرى، ولست أستطيع أن أقدم وسيلة أو أسلوبًا تستطيع أي دولة أن تستخدمه أو تحقق به النصر، إن كل ما استهدفه هو أن أشير في بساطة إلى أحسن السبل التي تستطيع بها بلدنا – إيطاليا – أن تعد نفسها للحرب المتوقعة مستقبلًا[١].

ولقد كتب الكثيرون من الأمريكان – الذين وقفوا إلى جانب السلاح الجوي على أساس أنه العامل الأساسي في التنظيم العسكري الأمريكي – كتبوا عن أن الدفاع عن الولايات المتحدة هو أول ما يجب أن تعني به الولايات المتحدة وتهتم، ولكن ميتشل لم يتقبل قط مثل هذه التحديدات، ولقد كان أول من ناقش استخدام القوة الجوية – مع أقل ما يمكن من معاونة القوات البحرية والبرية – على أساس بل وفي نطاق عالمي، ولم يجهده استمرار دفاعه عن الطرق عبر المنطقة القطبية كأقرب خطوط اقتراب بين

---

(١) The Command of the Air, pp. ٢٥٢ – ٢٥٣.

القارات، هذه الطرق التي أمست أخيرًا موضع اهتمام عام مما أدى إلى إعداد خرائط تفصيلية كبيرة للمناطق القطبية، وأكثر من الحديث عن قيمة الطريق عبر الأطلنطيق مارًّا بجرينلاند وأيسلندة، ويسر استخدامه للأغراض العسكرية، وكذلك تحدثه عن سهولة التحركات بين الولايات المتحدة وآسيا عن طريق آلاسكا وسيبيريا، أو عن طريق جزر الوشيان وجزر كوريللي.

ولقد أشار ميتشل في فجر حياته العسكرية إلى آلاسكا على أنها مفتاح السيادة العسكرية على الباسيفيك، وقوى من نظريته هذه تطور الطائرة وازدياد قوتها وطاقتها، وقد حدث عندما عمل الـچنرال ميتشل مساعدًا لقائد السلاح الجوي الأمريكي أن طارت ثلاث طائرات أمريكية في تشكيل واحد عبر الأطلنطيق والباسيفيك (المحيط الهادي) مارة بهذه الطرق الجزرية التي أشار إلى أهميتها للولايات المتحدة والتي أوضح خطورة تهديدها لسلامة أمريكا.

ويُستخدم الطريق المار بجرينلاند وأيسلندا اليوم استخدامًا مستمرًا، وأكد احتلال اليابانيين لجزر الوشيان في سنة ١٩٤٢ – حيث لم تكن قد أعدت أي قواعد بها أثناء السلم – صدق تقرير الـچنرال ميتشل لسير الحوادث مستقبلًا، وإن كان هذا الاحتلال الياباني قد تطلب استخدامًا كبيرًا للسفن البحرية كما أن اليابانيين لم يوجهوا إلا أقل ما يمكن من الجهد إلى الأهداف الجوية التي قدرها ميتشل.

ولقد صدق الكثير من تنبؤات ميتشل، وسيتحقق الكثير أيضًا في السنوات القادمة، ولكن الكثير أيضًا من التطورات الفنية التي بدت له وكأنها تطل من وراء الأفق أو أنها ستحقق فور انتهائه من كتابه لا تزال بعد

عشرين سنة موضع الدراسة والبحث، أي أنها لا تزال أبعد ما تكون عن الاستخدام العملي.

والواقع أن ميتشل كان واسع التصور في المسائل الفنية والتكتيكية، وكانت له أصالة في التفكير، ولكنه لم يوهب الصبر للعمل الدؤوب لاجتياز العوائق والعراقيل الصلبة التي كانت تعطل من تحويل خيالاته وتصوراته إلى حقائق لها واقعيتها.

وكان هو أكثر دقة من دوهيه في التنبؤ بالاتجاه الذي سيسير فيه هذا التطور التقدمي للطائرة وللقوة الجوية، ولكنه كان مسرفًا في تقديره لسرعة هذا الانتقال، ومن ثم فإنه سبب تحول الكثيرين من أنصاره عن مناصرته والوقوف إلى جانبه، وعرض نفسه للنقد.

- ٤ -

وجاء رجل ثالث هو ألكسندر دي سيـڤيرسكي، وسيـڤيرسكي طيار عسكري روسي أسهم في الحرب العالمية الأولى ثم عمل بعدها كمخترع ومصمم في بناء الطائرات، وقدم من إنتاجه ما يدل على مهاراته، وما يؤكد من وجهات نظره عن السلاح الجوي وخاصياته وعوامل النقص في استخدامه الحالي على ما أوضح هذا كله في كتابه: الانتصار بواسطة السلاح الجوي[١].

وتتبع وجهات نظر سيـڤيرسكي إلى حد بعيد آراء ميتشل الذي يقول سيـڤيرسكي عنه في كتابه: إن كتابات ميتشل هي التي أوحت إليه بالكتاب

(١) Alexander P. de Seversky, Victory Through Air Power (New york: Simon and Schuster, ١٩٤٢).

الذي كتبه هو، ***والواقع*** أن سيـﭬيرسكي قد جعل كتابات ميتشل وآراءه حديثة الطابع بما أضاف إليها من تصويرات حديثة، وبخاصة بتفسيره سبب فشل سلاح الجو الألماني في المعركة ضد بريطانيا.

وقد عرض سيـﭬيرسكي لقضية السلاح الجوي، فإن الظاهرة البارزة التي تقدمه على غيره من الدارسين للموضوع (هي) تقديره الكبير للأهمية الحاسمة التي لزيادة مدى العمل واحتمال زيادة هذا المدى بقدر يزيد كثيرًا عنه، ويتجاوز أي مدى سابق، وقد أطلق سيـﭬيرسكي السلاح الجوي للمستقبل وحرره من الارتباط بالتنظيم البري الذي قدره دوهيه كما أنه أطلقه أيضًا من الاعتماد على هذه الجزر على الطرق القطبية في الأطلنطيق والباسيفيك الطرق التي تقع كلها منها على مرمى حجر من الأخرى والتي قدر لها ميتشل أهمية كبيرة.

وكان سيـﭬيرسكي أول من تنبأ بالطيران دون توقف حول العالم، وقد قدم هذا بأسلوب أخاذ يشبه ذلك الذي استخدمه ميتشل في الحديث عن نفس الموضوع قبل سبع عشرة سنة:

«**في خمس سنوات على الأكثر، سيكون مدى العمل حول العالم لمسافة ٢٥٠٠٠ ميل مسألة لامندوحة عنها ومن الضروري توقعها**»[١].

وقد يثبت أنه على صواب، ولكن لكي يكون كذلك يجب أن تسير عمليات تصميم الطارات والتحسين في الاقتصاد الصناعي بخطى أكثر سرعة طوال السنوات الخمس التالية بأكثر مما سارت فيه هذه العمليات في أي وقت مضى في السنوات العشرين السابقة، ذلك لأن قيام أي طائرة

(١) نفس المرجع ص ١٤.



وليم ميتشل (١٨٧٩ – ١٩٣٦)

بالدوران حول العالم دون توقف في الوقت الحاضر يتطلب أن تـحمل من الوقود ما يعادل ٧٥٪ من جملة طاقة حمولتها وأن يترك ال ٢٥٪ الباقية من جملة الحمولة للبناء وللمحركات ولطاقم الطائرة وللمعدات العسكرية ولكل شيء آخر يجب أن تحمله معها في رحلتها.

ولم يشك سيـڤيرسكي قط في السرعة التي ستسير فيها زيادة مدى عمل الطائرة، وكان يرى أنه من الحماقة تقبل هذه التحديدات التي تفرض اليوم على مدى عمل الأنواع الموجودة حاليًا من الطائرات كما كان يثق بالنكبات التي يجب أن يتوقعها أولئك الذين يتجاهلون هذا العامل الحاسم الأهمية.

«لقد كان النقص في مدى عمل الطائرات اللعنة التي حلت بسلاح هتلر الجوي»[١].

«إنه لمضيعة للجهد الاحتفاظ بالقواعد المتقدمة بدلًا من توجيه كل الإمكانيات الجوية مباشرة ضد العدو، إن منطق الحرب الجوية يؤكد أن الحرب في السموات ستوجه من الأرض مع تحويل كل ما بين مركز التوجيه ومسرح القتال الجوي ليكون مثله مثل الأرض التي لا يملكها أحد في القتال بين القوات البرية»[٢].

ومع ازدياد القدرة على العمل لمدى واسع ولمسافات كبيرة من القواعد الساحلية لم تعد حاملات الطائرة ضرورية ولهذا فقد استبعد سيـڤيرسكي هذه الحاملات للطائرات من حسابه، واستبعدها في ثقة واطمئنان بأكثر ممن فعل أحد ممن سبقوه.

(١) سيفيرسكي نفس المرجع ص ١٣٦.
(٢) سيفيرسكي نفس المرجع ص ١٢٩.

ولا شك أن كل قوة جوية ترحب بفكرة العمل من أرض الوطن بدلًا من الاضطرار لإنشاء وللاحتفاظ بقواعد أمامية ومتوسطة، مادام هذا لن يتطلب احتمال عبء كبير في النفقات، ولكن يبدو في ضوء الخاصيات المتوازنة للطائرات وفي ضوء تطورها في الأربعين السنة الماضية، أن هذا الثمن سيظل فادحًا لأمد طويل، وحتى لو استطاعت الطائرات القيام بإغارات بالقنابل من قواعد تبعد ستة آلاف أو ثمانية آلاف ميل من مناطق الأهداف، فمن المحتمل أن يظل الأوفر والأكثر اقتصادًا أن تعمل الطائرات من قواعد قريبة عندما يكون هذا مستطاعًا سيما إذا أمكن الحصول على الوقود محليًّا أو أمكن نقله جوًّا.

ولقد تعرض المدافعون عن السلاح الجوي لهجمات مستمرة من جانب النقاد المتحفظين على أساس أنهم يتحدثون عن كسب حروب بآلات وهمية يتخيلونها، ولأنهم يضعون تقديراتهم النهائية على أساس الزعم بخاصيات للطائرات لم تصل إليها هذه الطائرات بعد، ***والواقع*** أن الهجوم على دوهيه كان معقولًا، ثم اشتد الهجوم ضد ميتشل، أما ضد سيـڤيرسكي فقد ازداد عنفًا.

ولقد كان الجزء الأكبر من كتاب سيـڤيرسكي تنبؤات يقدمها في صراحة تامة على هذه الصورة ولكنه حتى عندما يكتب عن المستقبل(*) فإنه يترك نفسه عرضة للنقد بسبب إسرافه في التفاؤل بالنسبة لسرعة التطور للخاصيات التي ستحققها الطائرات، ولكن عندما ينفلت للحديث عن «**حرب المستقبل**» الحرب في المستقبل فإنه يتحدث عن طابع قدمه قبله أولئك الذين سبقوه.

(*) في الأصل: متخذًا أصول «فعل المستقبل».

«فمن كل اتجاه يمكن أن تعينه البوصلة عبر المحيطين الفسيحين، وعبر القطبين، ستجيء قاذفات القنابل الضخمة تحمي كل منها قافلة من طائرات القتال وتندفع كلها لتغطي سماء الولايات المتحدة، وهذه الآلاف من السفن الجوية ستحمل كل منها خمسين طنًا من المفرقعات والقنابل الحارقة وتبعًا للخطة التي أحسن إعدادها ستضرب هذه الطائرات الغازية مراكز الأعصاب للدولة العظيمة، وستعرف كل منها الهدف المعين لها، وليس من الممكن بحال ما وصف ما ستسببه من تلف وخراب، وستتحول نيويورك وديترويت وشيكاغو وسان فرانسيسكو إلى أنقاض في أول أربع وعشرين ساعة للحرب، وستمحى مباني شيكاغو قبل أن تستطيع الحكومة إنقاذ سجلاتها الكبيرة القيمة»(١).

وبالرغم مما في طابع تنبؤات سيڤيرسكي فمن الحماقة إغفال الكثرة التي ذكرت بها مثل هذه التنبؤات في الماضي، وكذلك إغفال حقيقة الفشل في تحقيق ما يقرب منها لسنوات طوال، صحيح أنها اليوم أقرب إلى الاكتمال مما كانت من قبل، وآجلًا أو عاجلًا في ضوء هذا التطور للحرب الجوية وسيمكن اللحاق بالصورة التي جاءت في هذه التنبؤات.

إن العسكريين يبقون دائمًا على أتم استعداد لخوض غمار المعركة بما يمكن إعداده من عتاد عند بدء القتال، ولكنهم مع هذا يجب أن يضعوا تخطيطهم لمواجهة المشكلات التي يمكن أو يحتمل أن تجيء بها آلات الحرب في المستقبل، ومن ثم فلا يفاجئون بما يمكن أن يبرز يوم ذاك من تطورات فنية.

إن كتب أولئك الذين رفعوا علم الدعوة لقضية الحرب الجوية لتعتبر اليوم أصلح للقراءة وأنفع مما كانت يوم أن صدرت.

---

(١) سيڤيرسكي نفس المرجع ص ٧ – ٨.

حديث المراجع

الفصل العشرون

دوهيه وميتشل وسيفيروسكي

نظريات الحرب الجوية

بقلم إدوارد وارنر

قدم دوهيه لأول مرة هذه النظرية التي تحمل اسمه في كتابه:

Il Dominio dell'Aria:saggio sul' arte della guerra aerea (Rome, Stab. Poliger. Per l'Administrazione della guerra, ١٩٢١).

ويقدم هذا الكتاب آراءه في أولى صورها المحدودة، ولكن للوصول إلى عرض كامل لهذه الآراء يرجع إلى كتابه:

Il Dominio dell'Aria (seacond ed., Rome, Instituto Nazionale Fascista di Cultura, ١٩٢٧).

على أنه له كتابًا سابقًا يحسن الرجوع إليه هو كتاب:

La Possibilita dell' Aeronaigazion (Rome, Tip-Uniona ed.,١٩١٠).

أما وجهة نظر دوهيه عن حرب المستقبل La Guerra del' ١٩ فقد جاءت في الصفحات ٤٠٩ – ٥٠٢ من عدد مارس ١٩٣٠ من مجلة Revista Aeronautica وقد ترجم Dino Ferrari الكتابات العسكرية الرئيسية لدوهيه في كتاب طبع نيويورك سنة ١٩٤٢ بعنوان "The Command of the Air"

وقد فسرت نظريات دوهيه عن الجو في دراسة بالفرنسية.

Arsene M.P. Vauthier, La Doctorine de Guerre du General Douhet (Paris, ١٩٣٥)

ويرجع كذلك لكتاب آخر لنفس المؤلف وسم بعنوان:

La Danger Aerien et L'Avenir du Pays (Paris, ١٩٣٠).

أما كتابات ميتشل الرئيسية فهي:

Our Air Force: The Keystone of National Defense (New York, ١٩٢١).

Winged Defense: The Development and Possibilities of Modern Air Power – Economic and Military (New York, ١٩٢٥).

Skyways: A Book on Modern Aeronutics (London and Philadelphia, ١٩٣٠).

ويمكن أن نجد المصدر الأساسي للمعارضات التي أدت إلى محاكمة ميتشل بمجلس عسكري عال سنة ١٩٢٥ في:

U.S. ٦٨th . Congress: House: Select Committee on Inquiry into the Operation of the United States Air Service (Florian Lampert, chairman) Hearings (Wshington, Government Printing Office, ١٩٢٥).

ابحث عن المراجع تحت اسم General Mitchell في الفهرس ٦ الصفحات ٣٧٦ – ٣٨٤.

ارجع أيضًا إلى:

U.S.: President's Aircraft Board (Dwightw. Morrow Chairman). Hearings September ٢٩ – ٣٠ October ١ – ٢, ١٩٢٥). (Washington

Governmental Printing Office, ١٩٢٥). II, ٤٧b – ٩٠٨.

وقد ظهر تاريخ حديث لحياة ميتشل في كتاب:

Isaac Don Levien, Mitchell: Pionner of Air Power, (New York, ١٩٤٣).

أما المحدثون الذين خلفوا دوهيه وميتشل فهم:

Alexander de Seversky, Victory Through Air Power (New York, ١٩٤٢).

William Bernard Ziff, The Coming Battle of Germany (New York, ١٩٤٢).

مع مقدمة بقلم ويليم جيلمور

وبين الكتب الكثيرة الأخرى تعتبر الكتب التالية من الكتب التي تستحق الدراسة.

William Carrington Sherman, Air Warfare (New York ١٩٢٦).

Alford Joseph Williams, Airpower (New York, ١٩٤٠).

Allan Michie, Air Offensive against Germany. (New York, ١٩٤٣).

❊ ❊ ❊

خاتمة المطاف

هتلر

الفكرة النازية للحرب

بقلم إدوارد ميد إيرل

في يوليو سنة ١٩٤٠ كان أدولف هتلر سيد غرب ووسط أوروبا من نورث كيب إلى البحر المتوسط، ومن ساحل القنال الإنجليزي إلى حدود الاتحاد السوفيتي، كانت تحت إمرته آلة عسكرية وقوة ضاربة لم تتهيأ لأحدٍ من قبله، وكانت أوفر عددًا وأقوى مادة وأكثر تجربة ومعنوية مما كانت في أثناء شهر سبتمبر سنة ١٩٣٩ عند غزو بولندة، وفي ضوء ما وضح من أن الجيش الألماني لا يمكن أن يُقهر كانت بقية أوروبا مع شمال أفريقية وبلاد الشرق الأوسط تبدو وكأنها في راحة يد هتلر، ولم يحدث منذ عهد نابليون أن سيطر رجل مثل هتلر على المسرح الأوروبي تمامًا، أو حتى بدا وكأنه يكاد أن يُسيطر عليه وأن يقيم دعائم إمبراطورية عالمية تملك العالم كله، وهذه حقائق يجب ألا تُنسى في الأيام الأقل حرجًا.

فكيف استطاع هتلر – وهو يقف متوليًا أمر أمةٍ كانت قبل أقل من ربع قرنٍ سابق قد تحطمت في هزيمة ساحقة – أن يحقق هذا كله؟ هل مصدر ذلك آلة الجيش الألماني والصناعة الألمانية الثقيلة؟ أو أم أنه كان استراتيجيًّا من حقه أن يعتبر قيصر أو بونابرت تاريخًا حديثًا متأخرًا؟!

- ١ -

من المحتمل ألا يكون ثمة محل لمناقشة مسألة ما إذا كان الفوهرر الزعيم مدينا بكل هذا للجيش الذي قاده بأكثر مما يمكن أن يعتبر الجيش مدينًا له، ويبدو أنه من المنطق اعتبار أنهما، هتلر وجيشه، يتكاملان، أي يُكمل أحدهما الآخر، ***والواقع*** أنه كان من الصعب أن يُنشئ هتلر جيشه وسلاحه الجوي Wehrmacht and the Luftwaffe دون مساعدة فنية من مستوى عالٍ، وما كان ليستطيع هو وحده أن يحل المشكلات التكتيكية ومشكلات التسليح والإمداد لحملاته في بولندة والأراضي الواطئة وفرنسا.

إن رئيس أي دولة يعتمد في مثل هذه المسائل على هيئة أركان حربه؛ ولكن القيادة الألمانية العليا من ناحيةٍ أخرى لم تكن لتستطيع بدونه أن تتم التعبئة المعنوية والعاطفية والسيكولوچية للأمة الألمانية، هذه التعبئة اللازمة الضرورية لخططها، وكذلك ما كانت لتستطيع أن تخوض غمار الحرب الإيديولوچية والاقتصادية والسياسية – الحرب البيضاء – من سنة ١٩٣٣ إلى سنة ١٩٣٩، هذه الحرب التي منعت – بعملياتها السرية ضد المجتمع الدولي – من تكوين تحالف قوي ضد ألمانيا، كما نشرت التفكك والخيانة بين ضحايا الاعتداء الألماني.

وكان هذا كله عمل الحزب النازي، الحزب الذي أوجده هتلر وسيطر عليه تمامًا.

والواقع أن نجاح هتلر ضد بولنده والنرويج والأراضي الواطئة وفرنسا لهو إلى حدٍ كبير نتيجة للربط غير العادي بين استراتيچية عسكرية مليئة بالجرأة وبين استراتيچية سياسية لا تفتقر إلى المخاطرة، أو بمعنى آخر

وليدة تخطيط عسكري جديد صحبته جرأة ثورية، فكانت النتيجة إيجاد قوة طاغية حطمت دفاعات غرب أوروبا في سهولة ويُسر كما حطم «**يوشواه**» Joshua(*) جدران أريحا(١).

ولم تكن عملية سهلة أن يحقق هتلر طريقة العمل modus operandi وأن يصل إلى مركز متوسط بين طبقة الضباط المتحفظين. وبين متطرفي النازية من الذين توافرت لهم آراء دينامائية، ومن الجيل الصاعد الذي يتطلع للقوة، ولم يكن تنسيق الارتباط بين الجيش والحزب كذلك بدوره مسألة هينة. فلم يتم هذا إلا بثمن فادح من الدم الذي سفك في عملية التطهير سنة ١٩٣٤ ثم بالسيطرة السياسية الكاملة فيما بعد هذا.

ولقد أمكن الوصول إلى مستوى عالٍ من الضبط والربط العسكريين دون حرمان الشباب النازي من عوامل التعصب التي لعبت دورًا مهمًّا في معنويات الجيش الألماني؛ ولقد استطاعت الروح القوية التي أوجدتها النازية بمعاونة ما توافر للأفراد من كفاية فنية، استطاعت أن تكتسح كل ما ومن واجهته عدا السلاح الجوي البريطاني حتى قابلت الجيش الأحمر الذي كانت قد توافرت له روح مماثلة بفعل الشيوعية(٢).

(*) Joshua بالعبرية Yehoshua خليفة موسى عليه السلام، أصل اسمه Hoshea وأضاف موسى لاسمه المقطع الأول Yah كان ممثل قبيلة إفرايم Ephraim في الجواسيس الإثنى عشر الذي أرسلوا إلى أرض كنعان، مات وسنه ١١٠ سنوات بعد أن قسم الأرض بين الأسباط الإثنى عشر بالقرعة، وجزء التوراة الذي ينتسب إليه ينقسم إلى ٢٤ قسماً، الثاني منها يقدم جغرافية الأرض وله أهمية تاريخية كبيرة «العمود ١٠٦٧ دائرةا لمعارف اليهودية» (المترجم).

(١) راجع ما جاء في المقدمة من حديث عن الثورة في الحرب الهجومية.

(٢) نجد نقاشاً جديراً لدراسة العلاقات الدكتاتورية والجيش في كتاب: Sigmund=

على أنه – بالإضافة إلى هذا – يوجد بين من قدر لهم أن يتعرفوا حقيقة الحال في ألمانيا من يؤمنون عن يقين بأن هتلر قد أمَّد القوات المسلحة للرايخ الثالث بقوة من جانبه، كانت هيئة أركان الحرب الألمانية العامة قد قررت ألا تعرض الأمة الألمانية لما تعرضت له سنة ١٩١٨ من خوض غمار حرب إجهاد بالقتال في المواقع، ومن ثم فإنها قد أعدت العدة لتدابير جديدة في التسليح والتكتيك والاستراتيـچية(١)، وقد بسط هتلر عنايته وعضد بكل قوة الحرب الآلية.

ولعلَّه يكون قد بحث في تاريخ مُبكر بعض تكتيكاتها، فلقد سجل في سنة ١٩٢٥ اعتقاده بأن الاستخدام الآلي للمركبات ذات الاحتراق الداخلي سيكون له تأثيره الحاسم في الحرب القادمة(٢)، وكان غرامه بالسيارات التي تسير بسرعة والقاطرة السريعة التي لا تتوقف إلا بعد ساعات من بداية رحلاتها والطائرات، كان غرامه هذا عاملًا له تأثيره في إصراره على أن يقيم في ألمانيا – ولأغراض الحرب أولًا وقبل أي شيء آخر – صناعة للسيارات لا مثيل لها في أوروبا، بل ولربما لا مثيل لها في العالم كله؛ ولم يكن أحد حتى

Neuman n, Permanent Revolution: The Total State in a World at War (New York, = ١٩٤٢), pp. ١٧٤ – ١٨٢. ويجب ملاحظة أن قائد الجيش الـچنرال شليخر Schleicher والزعيم النازي كابتن روهم Roehm قد فقد كلاهما حياتيهما بأن أُعدما برصاص جماعتين من الرماة سنة ١٩٣٤.

(١) Herbert Rosinski, The German Army (New York, ١٩٤٠), Chaps. IV-V.

(٢) كفاحي لهتلر "Mein Kampf" الطبعة الألمانية الأولى لسنة ١٩٢٥ المُترجمة إلى الإنجليزية والمطبوعة كاملة بواسطة Reynal & Hitchcock طبع نيويورك سنة ١٩٣٩ ص ٩٥٨.

وكل إشارة في هذا الفصل لكتاب كفاحي يقصد بها هذه الطبعة، وكذلك كل ما ينقل هنا من فقرات قد أخذ من هذه الطبعة، وقد سمح بهذا النقل بإذن خاص من شركة Houghten Mifflin أصحاب الحق في هذه الطبعة.

ولا جورنج نفسه بدرجة إيمان هتلر بالقوة الجوية كسلاح للحرب ولإثارة الرعب، وهكذا يتضح لنا أن الحرب البرقية كانت في حاجة إلى رجل له صفات هتلر.

وتحتمل طوابع الديمقراطية في الصورة التي جاء بها هتلر إلى الجيش – بين غيرها من العوامل – مسئولية الصلاحية أو الكفاية التي توافر لضباط الجيش[١]، ولكن كان فوق هذا كله، كان العامل الأعمق أثرًا هو السلطة المركزة في يد هتلر، والقوة الدافعة التي أسهم بها في المجهود الحربي للدولة في أكثر من مرحلة من مراحل هذا الجهد، كان هتلر – بشخصيته القوية الجارفة – المحور الذي دارت حوله وحده القيادة والجرأة التي عملت بها، وقد ضمنت سلطات هتلر الطغوائية التوتاليتريان التنسيق الكامل لعمل كل الأسلحة، الأمر الذي اعتبر لازمًا وضروريًا للنجاح في الحرب الحديثة.

وكان هتلر يؤمن بتوفيقه، وكان يثق بأنه يتخذ قرارات في الميدانين العسكري والسياسي، قرارات ينتفض أغلب القادة فرقًا من مجرد التفكير فيها[٢]، ولم يكن بين (رؤساء الوزارة الألمانية) مستشاري الرايخ في تاريخ ألمانيا الحديثة المستشار الذي تتوافر له دراية بالشئون العسكرية مع الرغبة في التضحية بالقدر الذي كان هتلر راضيًا به في سبيل ما يقتنع عن إيمان

(١) Joseph G. Harsch, Pattern for Conquest (New York), Chap. V.
ويعتبر هذا مرجعاً من أفضل المراجع لمناقشة الموضوعات الخاصة بالأفراد.

(٢) Otto D. Tolischus, They Wanted War (New York, ١٩٤٠). الفصلان ٤ و١٢ وبخاصة في الصفحتين ٦٨ و٦٩، والواقع أن نقص القيادة الموحدة والحرص، ثم التحفظ والعقلية التي تفكر في العامل الدفاعي وحده، هذه كلها التي كانت توجه جهد الحلفاء في سنتي ١٩٣٩ – ١٩٤٠ تعتبر طابعاً مضاداً تماماً للأحوال التي كانت قائمة في ألمانيا.

بضرورته لنجاح خططه ألا وهو الآلة الجديدة التي تحرق البترول.

وكان ستالين وحده بين أولئك الذين عاصروا هتلر هو الذي أوضح قبل سقوط فرنسا طابع التصرف الذي يجئ وليد تفكير رجل واحد، مما لا يمكن أن يكون عمل أي سياسي ديمقراطي اللهم إلا في وقت الحرب وعن توقع الهزيمة.

ولما كان هتلر – حتى تاريخ متأخر (من سني حياته) – واحدًا من أكثر الكتاب والمتحدثين في هذا العصر إفاضة، ومن أقلهم إخفاء للحقائق، فإنه قد قدم لنا صورة واضحة نسبيًا للاستراتيـچية التي اعتزم أن يتبعها والتي انصاع لها لوقت طويل انصياعًا تامًا يثير الإعجاب، صحيح أن هتلر قد تحول في أوقات ما عن خط العمل الذي رسمه لنفسه ولكنه فعل هذا لأنه فهم ضرورة التضحية بالأهداف الأقل في سبيل الأهداف الأكبر قيمة، ولكن لم يحدث قط قبل هتلر أن قدم رجل قدر له أن يكون غازيًا في تاريخ لاحق من حياته، قدم لضحاياه فيما بعد بيانًا واضحًا كاملًا عن خططه، وكان الضعف السياسي للغرب وعدم قدرتهم على تفهم أنفسهم وتفهم الناس، كان هذا علة فشل الغرب في إدراك هذا التحذير المُبكر، على أنه لم تكن خطة هتلر الأساسية، بل كان هو التحول الواسع المدى عن هذه الخطة هو الذي أدى إلى الموقف الخطير الذي وجد الرايخ الألماني نفسه فيه في صيف سنة ١٩٤٣.

وقد أوضح هتلر في كتابه كفاحي الذي نشر سنة ١٩٢٥ أن ألمانيا في حكومته ستكون أول دولة عسكرية في العالم، وفي نقده العنيف للرايخ الثاني حمل حملة قاسية على ما أعتقد أنه السياسة السلمية الضرورية لحكومة القيصر .. سياسة التصنيع والتجارة الخارجية فيما وراء البحار والاستعمار.

ولقد قال هتلر بأن التصنيع استعمار واسع المدى لألمانيا نفسها وله تأثيره في ضغط الإمبراطورية بتحويلها إلى مستعمرة، وهذه التجارة الخارجية فيما وراء البحار والتي يُقال عنها أنها الغزو السلمي ليست غير حماقة ماجنة، ذلك لأن التجارة تتوقف على السلم، والعمل من أجل السلم له تأثير ملموس واحد هو الحد من أمل قيام سياسة ألمانية مؤثرة، «**ومع مثل هذا الاتجاه نحو الشئون الخارجية**» فإن مستقبل ألمانيا «**يمكن النظر إليه وكأنه قد انتهى ووري التراب**»، لقد كانت الماركسية واليهودية – الخصمين اللدودين للجنس الذي له السيادة – وراء هذه الفلسفة، فلسفة السلم والتجارة ما يُهدد بتعجيز وإضعاف الأمة الألمانية، ومن ثم يجب القضاء على هذين الخصمين بلا رحمة؛ والسيادة الإقليمية الصحيحة «لا تحقق أهدافها في الكميرون»، فإن المكان الصحيح للاستعمار الألماني ليس أفريقية، بل في قارة أوروبا، ومركز القوة العالمية هو العالم القديم، وفي العالم القديم وحده يمكن أن توجد منطقة الحياة Lebensraum، المنطقة التي لها الأهمية الحاسمة الدينمائية التي تحتاج إليها الأمة الألمانية.

والاتساع الإقليمي في قارة أوروبا ليس هو في حد ذاته نهاية أهداف السياسة الألمانية ولكنه هو القانون الطبيعي، ذلك لأن الطبيعة تحتفظ بالأرض والتربة للشعب الذي تتوافر له الطاقة والجهد لأخذ هذه الأرض كما تتوافر له الطاقة الصناعية التي تمكنه من زرعها.

لهذا يجب أن توجه ألمانيا عينيها نحو الشرق حيث توجد الأرض الخصبة في أوكرانيا وحيث توجد الموارد المعدنية في الأورال، بل حيث يوجد الميدان التقليدي للاتساع والغزو الألماني، وإلى الشرق أيضًا يوجد عدو كل الحضارات: الاتحاد السوفيتي، حيث كان البرنامج البولشفي يُحطم

رسالة ألمانيا الناهضة؛ وهنا يتضح لنا التماثل التام بين هذا الجزء من برنامج هتلر وبين الدعوة إلى الألمانية أي إلى تجمع كل الألمان في عقد واحد[١].

ومع هذا فقد كان من المستحيل غزو أرض أوروبا الشرقية لو اضطرت ألمانيا – كما حدث في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ – ١٩١٨ – أن تقاتل في جبهتين، ولهذا كان الاعتبار الأول والأساسي من وجهة النظر الألمانية ألا تقوم في قارة أوروبا قوتان عسكريتان، بل يجب أن تكون ألمانيا القوة العسكرية الوحيدة في القارة، ومن ثم فإن الشعب الألماني من واجبه أن يمنع قيام أي قوة عسكرية أخرى في أوروبا بأية وسيلة بها في هذا استخدام القوة، ولو حدث وقامت مثل هذه القوة في دولةٍ ما من دول أوروبا وجب كبتها.

وكانت فرنسا هي العدو المعنوي لألمانيا في هذا المجال، ومن ثم .. «فإننا يجب أن نحتمل أي تضحية تعاوننا لإضعاف الاندفاع الفرنسي للسيادة على أوروبا» و«**النزاع الدائم الأبدي بين ألمانيا وفرنسا لا يمكن كسبه إلا بالعمل الهجومي الذي يؤدي إلى تحطيم فرنسا، وفقط عندما يتم تفهم هذا في ألمانيا تستطيع الأمة الألمانية أن تعيش دون أن تسمح بأن تفقد جهودها في سياسة دفاعية سلبية، بل بأن تعمل للوصول إلى تسوية إيجابية حاسمة مع فرنسا، أي أن توجه ألمانيا كل جهودها للمعركة الحاسمة التي تحقق أهدافها النهائية؛ وإذ ذاك فقط – مرة أخرى – يمكن أن ننهي نزاعنا الدائم الأبدي مع فرنسا، وقد يبدو هذا وكأن لا ثمرة له في حد ذاته، ولكنه**

(١) أوضح هتلر في الفصل الرابع من كتابه كفاحي عدم دقة سياسة الحكومة القيصرية، أما عن الدعوة للألمانية فيرجع إلى كتاب:

Mildred S. Wertheimer, The Pan-German League, ١٨٩٠ – ١٩١٤ (New York, ١٩٢٤).

يجب أن يتم في الطابع الذي ترى فيه ألمانيا أن تدمير فرنسا يُعطيها فرصة الاتساع في أي مكان آخر»[1]؛ ولكي يتم تحطيم فرنسا يجب أولًا عزلها وجعل تحالفها مع دول شرق أوروبا لا قيمة له، وأن نكسب لألمانيا الحلفاء الذين تحتاج إليهم لوقاية أجنابها المُعرضة في الغرب، ولهذا فإنه لا يمكن أن يكون لألمانيا حلفاء في أوروبا مستقبلًا غير حليفتين اثنتين هما: إنجلترا وإيطاليا[2].

وكان هذا لُب استراتيـچية هتلر، ففرنسا يجب أن تحطم بسبب سياستها ذات التاريخ الطويل دون ما تقدير لطابع الحكم فيها ومهما كان هؤلاء الذين يحكمونها سواء أكانوا البربون أم اليعقوبيين أم البونابرتيين أم الديمقراطيين البرجوازيين أم الجمهوريين أم حتى الشيوعيين الحمر؛ ذلك لأن هذه السياسة تقوم دائمًا على أساس محاولة منع ألمانيا من الازدهار والتقدم.

ولو وضع هذا الهدف المركزي المسيطر لسياسة هتلر، هدف ضرورة منع فرنسا من أن تكون دولة كبرى، لو وضع موضع التقدير لأمكن أن تتضح أشياء أخرى كثيرة مثل التدخل في أسبانيا، التحالف مع إيطاليا، الحملة لاستعادة السار، إعادة احتلال أرض الرين، سلب واغتصاب تشيكوسلوڤاكيا، انشاء الجدار الغربي على الحدود المشتركة مع فرنسا، توقيع ميثاق عدم الاعتداء مع الاتحاد السوڤيتي ثم اقتسام بولندة؛ ومع تحطيم فرنسا تستطيع ألمانيا أن تضمن غزو شرق أوروبا دون منازع ودون أن

(١) هتلر، نفس المرجع ص ٩٦٣ – ٩٦٦، ٩٧٨ – ٩٧٩، والجزء بين القوسين «– –» ليس من كتاب هتلر، أما الإشارة إلى فرنسا على أنها العدو الخطر بالنسبة لألمانيا، هذا العدو الذي يجب تحطيمه فيرجع إليها في نفس المرجع ص ٩٠٢ و٩٠٧ – ٩٠٨.

(٢) نفس المرجع ص ٩٠٨.

يُعطل أحد من هذا.

وقد فشل المشروع الكبير لجعل أوروبا ألمانية، فشل بسبب وجود مانعين قويين هما: السلاح الجوي البريطاني، والجيش الأحمر، وقد كان هتلر يأمل أن يقف أولهما إلى جانبه، أما الثاني فإن هتلر لم يُحسن تقديره، بل وقدره أقل من حقيقته بكثير، ثم أكد الفوهرر من فشله وسقوطه؛ لأنه جاء إلى قائمة الحلفاء ضده بالدولة التي وصفها هو نفسه بالدولة التي لا مثيل لقوتها وثرائها، ألا وهي الولايات المتحدة(١).

وكان من الواضح أن هتلر قد فهم أن مفتاح نجاح كل خططه أن يتم التفاهم بينه وبين بريطانيا، ولقد قال هتلر في نقده لفشل القيصر الإمبراطور في اكتساب صداقة بريطانيا: «يجب أن ينظر للشعب البريطاني على أنه أهم حليف في العالم ما دام زعماؤه وما دامت روح الجماهير في بريطانيا تسمح لنا بممارسة هذا العنف وهذه الوحشية التي نقاتل بها، وأن نمارسها بكل وسيلة لنحقق أن نصل بالصراع إلى نهاية ناجحة دون ما تقدير للوقت وللتضحيات ..»(٢).

ولا تستطيع ألمانيا أن تأمل في هزيمة فرنسا وغزو أوروبا الشرقية ما لم يضمن لها الاتفاق مع بريطانيا وإيطاليا حماية مؤخرتها وأجنابها، وبمثل هذا الاتفاق يمكن أن تتحرر ألمانيا من الموقف الاستراتيجي المعتاد لها بضربة واحدة، وستكون الوقاية القوية لجنبنا المعرض من ناحية، والضمان الكامل لإمدادنا باحتياجاتنا من المواد الخام من ناحية أخرى النتيجة الطبيعية لهذا

(١) نفس المرجع. ص ١٨٠ و٩٢٨.
(٢) نفس المرجع ص ٤٦١.

التنظيم الجديد الذي نضعه لأوروبا[١].

على أنه ربما يكون الألمان قد شكوا في قيمة المحالفات بسبب تجربتهم القاسية في الحرب العالمية الأولى بالتحالف مع الدولة الأم النمسا والمجر ومع الإمبراطورية التي أعجزتها الأيام: تركيا، ولكن التحالف مع أعظم دولة في الأرض (بريطانيا)، ومع الدولة الفتية الناهضة (إيطاليا) سيمكن من تحقيق نتائج تختلف عن تلك التي كان من الممكن أن تتحقق بارتباطها في الحرب العالمية الأولى بدول غربت شمسها وفقدت كل عوامل البقاء[٢].

«ولم تكن أي تضحية تعتبر كبيرة في سبيل اكتساب صداقة بريطانيا واجتذابها إلى جانب ألمانيا في السنوات التي سبقت عام ١٩١٤، ولم يكن لشيء أن يكون كبيرًا بالنسبة للرايخ الثالث لو أدت هذه التضحية إلى سيطرة لا تنازع فيها على القارة، ومن الضروري إغفال المستعمرات والقوة البحرية كما يجب تجنب منافسة الصناعة البريطانية في الأسواق العالمية، إن ألمانيا تستطيع في سهولةٍ ويسر أن تبني أسطولًا كبيرًا. بل إن هذا أيسر من بناء إمبراطورية قارية، ولكن من السهل أيضًا تحطيم هذا الأسطول، ولهذا فلا ينبغي التوصية بمنافسة بريطانيا في القوة البحرية وستكون نتيجة محالفة بريطانيا تحديدًا موقوتًا ولكن يتبعه مستقبل زاهر قوي»[٣].

وفهم هتلر أيضًا أن علاقاته مع بريطانيا تلعب دورًا هامًا في توجيه

(١) من الطريف ملاحظة أن هتلر يعتبر مركز ألمانيا المتوسط في أوروبا مع خطوطها الداخلية موضع ضعف لا موضع قوة، ولو كان قد تنبأ بالهجوم البري الاكتساحي المدمر للقوة الجوية أنجلو/ أمريكية لكان قد أدرك بدرجة أكبر أن موضع ألمانيا.في قلب أوروبا ليس نعمة استراتيـچية على ما قال هو في كثير من الأوقات.

(٢) نفس المرجع ص ٩٦٤ – ٩٦٥.

(٣) نفس المرجع ص ١٨٣ – ١٨٤.

موقف الولايات المتحدة من ألمانيا النازية، ولقد كتب: وليس من السهل على المرء – بسبب الإمبراطورية البريطانية – أن ينسى العالم الأنجلو ساكسوني، وليس من الممكن مقارنة انجلترة بأي دولة أخرى في أوروبا ولو حتى بسبب الوحدة اللغوية والثقافية التي تربطها بالاتحاد الأمريكي.

وقد توافر لهتلر بعض المعرفة بقوة الولايات المتحدة، هذه القوة التي تقوم على أساس إمكانياتها القارية وعلى أساس عدم تعرضها نسبيًا للهجوم(١)، ولكنه أمل أن يجعل هذه القوة الأمريكية تقف بمعزل عن المعركة نتيجة لتحالفه مع اليابان، وبإثارة الكفاح العنيف المرير داخل الولايات المتحدة نفسها بين دعاة العزلة وبين دعاة التدخل؛ وكانت تخطر له بعض الآراء عن الخلافات العنصرية التي تسهم في تفتيت وحدة الولايات المتحدة، بل والتي تجعلها غير قادرة على القيام بأي عمل مضاد.

وبالرغم من تفهم هتلر للأهمية الحاسمة التي لمعاونة بريطانيا لألمانيا، فإنه قد اتبع سياسة كان من المؤكد معها أن يُغامر بخوض الحرب ضد الإمبراطورية البريطانية عاجلًا أو آجلًا، ولربما يكون هتلر قد ظن بأن عنف الطابع البريطاني قد قل وأن الزعامة التي كانت لبريطانيا قد قلت، لربما يكون هتلر قد ظن هذا فعلًا وإن كان من الواضح أن سلوك بريطانيا في حكم بالدوين وتشيمبرلن كان كافيًا ليجعل من هذا الظن حقيقة. على أنه ربما يكون أيضًا قد ظن بأن السلاح الجوي الألماني يمكن أن يخلف أو يحل محل القوة البحرية البريطانية لتقرير مصير العالم.

والواضح أن هتلر لم يتفهم جيدًا مدى إصرار بريطانيا لمنع ألمانيا أو أي

(١) نفس المرجع ص ١٨٠ و ٩٢٨ – ٩٢٩.

دولة أخرى من تحقيق سيطرة – لا منازع لها – سيطرة تامة على قارة أوروبا، هذا الإصرار الذي هو وليد السياسة التقليدية: سياسة توازن القوى، والذي كان أول ما يُعنى به الإنجليز، وعني به حتى مستر تشيمبرلن إثر احتلال ألمانيا لبراج.

ويبدو أن هتلر لم يتفهم جيدًا أنه كلما ازدادت قوة دولة ما، وكلما اتسع نطاق أطماعها، ازداد من جانب آخر إصرار بريطانيا على الوقوف في وجه هذه الدولة مهما بدا من تردد الشعب البريطاني من أن يؤدي هذا إلى خوض غمار الحرب[١]، ولقد سمح هتلر لإدارة المستعمرات في الحزب النازي ولعدة هيئات أخرى حكومية وخاصة أن تقوم بحملة عدائية مطالبة باستعادة المستعمرات التي كانت لألمانيا قبل الحرب العالمية الأولى، وبنى هتلر أسطولًا قويًا مع تمام معرفته بأن هذا الأسطول لن يكون نفعه التجاري مساويًا لما يسببه من أضرار لمحاولة إيجاد تعاون بين ألمانيا وبريطانيا.

وفوق هذا كله فإنه غفل عن العامل المعنوي في العلاقات بين الدول، لقد وصل هتلر إلى ما يقرب من تحطيم بريطانيا ولكن ما دام لم يحقق هذا، فمما لا شك فيه أنه يجب أن يعترف بجرمه، هذا الجرم الذي عابه على غليوم الثاني لفشله في كسب صداقة بريطانيا، أو على الأقل ضمان حيادها، ثم إن تحالفه مع إيطاليا كان تعويضًا تافهًا لفشله في التحالف مع بريطانيا.

***

---

(١) من هذه الناحية تعتبر المذكرة التي كتبها السير إيركراو بتاريخ أول يناير سنة ١٩٠٧ عن العلاقات الألمانية – البريطانية وكأنها قد كتبت اليوم، راجع أيضاً كتاب: G. P. Gooch and H. Temperley, British Diplomatic Documents on the Origins of the War, III (١٩٢٨) pp. ٣٩٧ – ٤٢٠. وبخاصة ما جاء في ص ٤٠٣ عن «توازن القوى».

على أن هتلر – ليعزل فرنسا عن غيرها – اتبع سياسة بطيئة بدلًا من أن يحطم بضربة واحدة مصدر قوتها، ولم يكلف الحلف مع بلصودسكي سنة ١٩٣٤ هتلر شيئًا ما، فلم يكن أكثر من تقبل وضع قائم سيما وبولندة في ذلك الوقت كانت أقوى من ألمانيا على حين أنه كلف فرنسا الكثير فقد كان أول اختراق له خطره في كتلة حلفاء فرنسا في شرق أوروبا، ولكن كان هناك المزيد مما قام به هتلر، وكانت إعادة احتلال أرض الرين وابتلاع النمسا وتعضيد هنيلين Henlein في تشيكوسلوڤاكيا أعمالًا لا يمكن أن توصف إلا بأنها ثغرات جديدة في التنظيم الذي أعدته فرنسا بعد فرساي لضمان أمنها وسلامتها.

والواقع أن هتلر كان حريصًا جدًّا قبل ميونخ(*)، وكان يخطو وئيدًا في حذر، فلم يطلب إطلاقًا ما قد يُعرضه لمواجهة الحرب، وكان هتلر يعرف أن تفتيت الدول وابتلاعها عملية يجب أن تتم على مراحل متتالية، وهكذا فإن تحطيم قوة فرنسا يجب أن يتم تدريجيًا، وهنا يقول هتلر في كتابه كفاحي: إن المنتصر الذكي يجب – كلما أمكن – أن يُقدم طلباته للمهزوم على مراحل الواحد إثر الآخر، وعندئذٍ يتأكد المنتصر أن الأمة المهزومة تفقد معنوياتها، ومن ثم فإنها لا تستطيع إلا الموافقة، ولن تجد السبب الذي تستند إليه للعود إلى خوض غمار الحرب، والاحتكام إلى السيف؛ ولكن مع هذا فإنه كلما تقبل الناس في سرور وبشر هذا الاغتصاب بالقوة أو نتيجة للتهديد

(*) ميونخ عاصمة باڤاريا سكانها ٨٢٨.٠٠٠ اسمها بالألمانية Munchen، عقدت بها إتفاقية ميونيخ في ٢٩ من سبتمبر سنة ١٩٣٨ بين بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا أعطيت بمقتضاها ألمانيا أرض السودبت من تشيكوسلوڤاكيا، (وكان رجل الاتفاقية هو تشمبرلين الذي أسماه الإنجليز الرجل "حامل المظلة"). معجم ويبستر طبعة سنة ١٩٥٦ ص ١٦٧٧. المترجم

باستخدامها، ازداد عدد الذين لا يرون في هذا عدالة ما، ثم ينتهي بهم الأمر أخيرًا للدفاع عن أنفسهم ضد لون جديد من الضغط والاضطهاد، وقد تبدو مظاهرهما منفصلة مقتطعة برغم تكرارها، وبخاصة عندما ينظر إليها معًا جملةً واحدة، لقد تقبل الناس في صمت هذه النكبات واحتملوها دون أن يقفوا من البداية هذا الموقف الصلب الجامد الذي ربما يقفونه أخيرًا(١).

ولقد نجح هتلر في عزل فرنسا وتدميرها، وكما حاول الجيش الألماني أن يحقق «**كانِّي**» أخرى(*) عمل هتلر ليُحقق كانِّي سياسية تبعد فرنسا وحلفاءها عن صفوف الدول القوية، وكان في هذا المجال يعمل ضد التقاليد الأوروبية وضد سياسة أسلافه الألمان من فردريك الأكبر إلى بسمارك، ولقد كتب بسمارك سنة ١٨٨٧: «**إن استمرار بقاء فرنسا كدولة كبيرة له نفعه بالنسبة لنا كما له نفعه بالنسبة لأيٍ من الدول الكبرى، فإذا ما هاجمتنا فرنسا وانتصرنا عليها فلا ينبغي لنا أن نعتبر أنه من الممكن أن نفني أمة من أربعين مليونا من الأوروبيين الشديدي الحساسية**»(٢). ولكن كان النازيون يفكرون تفكيرًا آخر وينظرون للأمر من زاوية أخرى، وكانوا قد اعتزموا من البداية أن يجعلوا من فرنسا مستعمرة ألمانية.

- ٢ -

وكانت القوات المسلحة للرايخ هي الطرف القاطع الوحيد في آلة

(١) كفاحي لهتلر ص ٩٦٨ – ٩٦٩.

(*) كاني Cannea، مدينة قديمة في جنوب شرقي إيطاليا كانت مسرح القتال لمعركة من أشهر معارك التاريخ حدثت سنة ٢١٦ قبل الميلاد وهزم فيها هانيبال الرومان بتكتيكات التطويق والإفناء، وتعتبر هذه التكتيكات مما يعني بدراسته علماء الحرب في العصر الحديث (وبستر ص ٢١٣).

(٢) Die grosse Politik der europaischen Kabinette VII, ١٧٧ – ١٧٨.

الحرب الألمانية، ولم تكن العمليات الحربية والحرب في استراتيجيتهم الطغوائية الخطوة الأولى ضد العدو، بل كانت الملاذ الأخير الذي لا مندوحة عنه – مع الأسف – ولا سبيل لتجنبه بعد أن تكون كل وسائل الغزو الأخرى قد أجهدت، ولهذا فإن أعظم فترة نجاح لهتلر هي سلسلة الانتصارات التي لم تسفك فيها أي دماء منذ بداية احتلال أرض الرين حتى عقد اتفاقية ميونخ، ولكن بعد هذا تركت المعركة كلها للجنود، ولكن لم تتوافر في هذه المرحلة الأدلة التي تكشف عن استراتيـچية هتلر العسكرية والتي يمكن مقارنتها بانتصاراته في ميدان الحرب النفسية والحرب السياسية.

وكانت الخطوة الأولى في حرب الأعصاب جمع الشعب الألماني كله في وحدة واحدة تثير الرعب والفزع في العالم كله حول ألمانيا، وقد تم هذا جزئيًا عن طريق برنامج الحزب، البرنامج الذي عمل لتحطيم اليهود، الكنائس، الجامعات، اتحادات العمال، الاشتراكيين، الشيوعيين، وغيرهم وغيرهم ممن يشك في مشاعرهم الدولية واتجاهاتهم إلى المسالمة، وتحقق هذا بحملة دعائية أسهمت فيها الصحف والإذاعة، وأمكن دعم وتقوية هذه الحملة بتطبيق النظام الصارم الذي يفرضه الحزب، وبالدعوة إلى تفاخر الناس بالطابع الألماني وإثارة روح التفاخر في الأمة كلها.

والواقع أن الطابع العسكري وفكرة وحدة الشعب الألماني كله، ومعاداة السامية، ومبدأ الجنس السائد، الجنس الذي له الأفضلية على غيره من الأجناس، وتقديس الدولة كانت كلها مظاهر بارزة في برنامج الحزب النازي، وكانت كذلك عميقة الجذور في كيان التاريخ الألماني وقد استغلها النازيون إلى غاية ما يمكن.

وكتب هتلر عن هذا: «**إن بعث الشعب الألماني لا يتم إلا عن طريق**

استعادته لقوته الخارجية،ولكن ليست الأسلحة هي الوسائل التي تحقق هذا على ما كان ساستنا البورجوازيون يقولون دائمًا، بل وسيلة هذا هي قوة الإرادة، إن أحسن الأسلحة تكون معدومة القيمة المادية ما بقيت تنقصنا الرغبة والإرادة لاستعمال هذه الأسلحة ولهذا فإنه ربما لا تكون مسألة استعادة ألمانيا لقوتها متوقفة على كيف نستطيع أن نصنع الأسلحة بل تتوقف على كيف نستطيع إيجاد الروح التي تعاون الشعب لحمل هذه الأسلحة»[١].

وقد لا يكون من الضروري أن نصف تفصيليًّا الحال التي أوجد بها هتلر الرغبة في القتال بتعبئة الأمة الألمانية نفسانيًّا وعاطفيًّا، ولقد أخذ عن هندنبورج وغيره من قادة الجيش الأسطورة التي أعدت لإيضاح أن الجيش الألماني لم يهزم في سنة ١٩١٨، بل إنه قد تعرض للخيانة في الجبهة الداخلية، وقد حقق بإعطاء هذه الأسطورة طابعًا شعبيًّا نجاحًا لم يكن ليحققه بغيرها[٢]، ووجه الشعب الألماني ليصدقه بأنهم ألقوا بأسلحتهم في نوفمبر سنة ١٩١٨ طواعية منهم تلبية لوعد ويلسون في الحصول على سلم عادل كريم، وأن ويلسون قد تنصل من وعوده فكانت «**أعظم خيانة عرفها التاريخ**».

وبهذه الأسطورة وبغيرها أوجد هتلر في قلوب الناس من كل الطبقات شعورًا بعدم عدالة معاهدة فرساي المملاة Diktat of Versailles ومن ثم أثار في قلوب عدد كبير جدًّا من الألمان «**روح الانتقام**»، وأحيا هتلر النظرية التي سبقت عام ١٩١٤ من أن ألمانيا المسالمة قد طوقت بدول حقودة معادية،

(١) Mein Kampf, pp. ٤٥٩ – ٤٦٠, Sand on the same theme Ibid, P. ٦٢٤.

(٢) Hans Fried, The Guilt fo the German Army (New York, ١٩٤٢).
ويقدم الكتاب حديثًا جيدًا كان مهملاً إلى حد بعيد عن أسطورة عدم هزيمة جيش ألمانيا.

وأوجد بين الطلاب قومية ألمانية متعصبة، كما أوجد روحًا إسبارطية (نسبة إلى اسبارطة القديمة ببلاد اليونان)، وولاء مطلقًا «**للفوهرر**» للزعيم الذي لا يتوانى عن القيام بكل عمل طيب لسلم العالم[1].

وقد استطاع هتلر – حتى قبل أن يصل إلى السلطة ويتولى مركز المستشار للريخ – أن يوجد الروح العسكرية في ألمانيا بواسطة قوات الحزب أعظم جيش خاص في التاريخ الحديث وبقوات العصف .S. S وكانت صرخة الحرب لذوي القمصان الرمادية «**Deutchland Etwache**» قد صارت شعارًا للأمة كلها، وكان واجب الدولة – على ما قال هتلر – أن توحد كل الألمان، تجمعهم في وحدة واحدة وتقودهم تدريجيًّا وفي أمن إلى موقف السيادة على العالم[2].

وقد ذكرت قصة التعبئة الإقتصادية لألمانيا النازية من أجل الحرب Wehrwirtschaft and Kriegswirtschaft في أكثر من مرجع، ولا حاجة بنا لتكرارها هنا، ومع هذا فمن الضروري ملاحظة أن النازيين قد اقتنعوا – نقلًا عن هيئة أركان الحرب – أن الحرب الشاملة الأممية ١٩١٤ – ١٩١٨ لم

(١) Henri Lichtenbereger, The Third Reich (New York) ١٩٣٧). Book V; S.H. Roberts, The House That Hitler Buiit (New York, ١٩٣٨), Part IV, Sec. II.

وقد عوون هتلر في تعبئته لمعنويات ألمانيا بموارد تدهش وتثير الإعجاب ونجد هذا في مقال هام:

Oscar J. Hamman, "German Historians and the Advent of the National Socialist State", Journal of Modern History, XIII ١٩٤١), ١٦١ – ١٨٨.

(٢) كفاحي لهتلر ص ٦٠١، أما عن التنظيم العسكري لألمانيا النازية فيرجع إلى سلسلة المقالات التي كتبها ألفريد ڤاجتس Alfred Vagts في مجلة المشاة الأمركية الشهرية، مايو – سبتمبر سنة ١٩٤٣.

تكن أمية شاملة بالقدر الكافي، وأنه يجب القيام بتدابير وقائية ضد الحصر البحري كتطوير تصنيع المواد الخام وتخزين كميات من المواد ذات الأهمية الحاسمة كما أنه من الضروري تدعيم الجبهة الداخلية اقتصاديًا، كما يجب إيجاد الدعامة السيكولوچية للحرب القادمة، وجاءت مشروعات السنوات الأربع تحت إدارة المارشال جورنج – وبمعاونة الـچنرالات فرتز لويب وچورج توماس وهرمان ڤون هينكن وغيرهم – بتوجيه عسكري كامل للاقتصاد الألماني، وكنتيجة لهذا بدأ الجيش الألماني الحرب سنة ١٩٣٩ أحسن إعدادًا، كما يتوافر له احتياطي كبير من المواد أكثر مما توافرت لأي جيش حديث آخر، وكانت الفكرة النازية للحرب الشاملة تكمن في أعطاف نظرياتهم للحكومة الطغوائية (التوتاليتيرية) Totalitarian.[١]

ولم يعتبر هتلر قط أن القوة هي السلاح المؤثر وحده، فالقوة، والتهديد باستخدامها، يجب أن يصحبا بالكلمات والشعارات والآراء والتي هي من بين الأسلحة القوية، كما أوضحت الثورة الفرنسية، وكما أوضحها وودرو ويلسون، وكما أوضحها البلاشفة، وهكذا قدمت الحركة الوطنية الاشتراكية للعالم وللألمان كأساس لنظام جديد يمكن أن يحل مكان الفوضى وعدم الكفاية.

ولما كانت هذه الحركة الاشتراكية تبدي طابع (مالا يمكن تجنبه) الشيء الذي لا يمكن تجنُّبه، ولما كانت هي على ما يقول الأمريكان «**موجة المستقبل**» فإنها وقفت من البداية موقفًا هجوميًّا على حين انصرف العالم كله إلى الدفاع. ولقد قال هتلر بأن أيديولوچيته الهجومية هي وحدها التي

(١) يرجع بالنسبة للإعداد الاقتصادي للحرب الشاملة إلى كتاب:

A. T. lauterbach, Economics in Uniform (Princeton, ١٩٤٣), Tolischus. op. cit., Chaps. III – V.

يمكن أن تحقق النصر، وهكذا كان على الثورة النازية لا أن توحّد الشعب الألماني في كتلة واحدة متماسكة فحسب، بل وأن تسبب تفكك البلاد الأخرى التي تسد الطريق أمام التوسع الألماني، وإذا استعملنا الألفاظ التي كان يتحدث بها لينين فإن الكفاح الثوري في ألمانيا يجب أن يتحول بواسطة هتلر إلى حرب أهلية لا في أوروبا وحدها بل وفي العالم كله[١].

وكان هتلر أستاذًا في إلقاء ثمار التفاح للتفرقة بين الأمم الأخرى، كان يعرف أوجه الخلاف الحرجة في الآراء بين فرنسا وإيطاليا والولايات المتحدة، واستغل هذه المعرفة إلى غاية ما يستطيع، وقد نجح دائمًا في مناقشة موضوعات السياسة الأوروبية لا في الصورة التي يراها هو بها، بل في الصورة التي يمكن أن تسبب غاية ما يمكن من خلاف في الرأي في الخارج. ولقد قال لروسشننج[٢]: «**إن أسلحتنا هي الإرباك العقلي، تضارب المشاعر وتعارضها، إشاعة الذعر، إثارة التردد، وعدم استطاعة خصومنا الخروج بقرار حاسم**»، ولهذا فإن التحالف مع اليابان قد أوضح للناس في العالم لخارج ألمانيا على أنه حلف الكومنترن، ومن ثم فهو هجوم على البولشفية. وقد أدرك هتلر – وكان صائب التقدير – أن الخوف من البولشفية قوي بين صفوف المحافظين في بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة، وقد رأوا كلهم في هذا الحلف وسيلة لأمنهم في الباسيفك. وكان المتحفظون ينظرون إلى

(١) كفاحي لهتلر ص ٢٢٠ – ٢٢٤ و٧٨٤ ففي هذه الصفحات فقرات هامة كلها توضح هذا، وخطب هتلر كلها تعتبر منجمًا ذهبيًا كل ما فيه يؤكد هذا الحديث، يرجع أيضًا إلى:
N.H. Baynes (ed.). The Speeches of Adolf Hitler, ١٩٢٢ – ١٩٣٩ (٢ Vols., Oxford, ١٩٤٢) and R. de Roussy de Sales (ed.) (My New Order (New York, ١٩٤١). وفي كل من الكتابين تعليقات قيمة.

(٢) Hermann Rauschning, The Voice of Destruction, (New York, ١٩٤٠), p. ٩.

هتلر نظرتهم للرجل الذي حل مشكلة العمال لا نظرتهم للرجل الذي جند العمال لصناعة الأسلحة.

وفي نفس الوقت خدع الأحرار في بريطانيا وأمريكا بالهجوم على معاهدة فرساي، وبالمطالبة بالحق المقدس للألمان في تشيكوسلوفاكيا وفي أي مكان آخر لإعادة وحدة الشعب الألماني معًا، وتتحد هذه الجماعات المنفصلة بالوطن الأم، كما خدعوا بمطالبة ألمانيا بحقها في العدالة.

وكانت معاداة السامية هي «**الطعم**» الذي أمكن به اصطياد مختلف الطبقات في أماكن كثيرة مختلفة، وأمكن اصطياد هذه الطبقات دون أن تحذر اقترابها من الشباك المعدة لها، وكان دعاة السلم ينظرون إلى أولئك الذين يدعون لمقاومة هتلر على أنهم من «**دعاة الحرب**».

وهكذا أمكن نشر الكثير من عوامل الفوضى والاضطراب بالقدر الذي أوضح أن سياسيي أوروبا ليسوا بقادرين على إدراك مصلحتهم في القضاء عليها، وكانت الحال في أسبانيا أحسن دليل على هذا، ومن المحتمل أن يكون «**شيانو**» قد اعتبر أنه لم تعد في أسبانيا حدود سياسية، وأن كل ما فيها هو مواقع استراتيـچية، ولكن كان من الممكن بواسطة الدعاية الفاشية جعل غير الفاشيين يعتقدون أن الصراع من أجل السيطرة في أسبانيا يقصر على الصراع بين البلاشفة والكاثوليك. وهكذا نستطيع أن نقول في إيجاز: إن النازيين قد حطموا المعنويات والرغبة في المقاومة في كل مكان عدا في ألمانيا، وذلك بإشاعة المسالمة وروح الهزيمة وعدم الاستقرار والشك والخوف. وبهذه الوسائل نجح هتلر في تهدئة ضحاياه وفي تضليلهم بفكرة كاذبة عن أمنهم وسلامتهم، وجعلهم بهذا غير قادرين على القيام بأي مقاومة مسلحة ناجحة، وهكذا فإن تشيكوسلوڤاكيا التي كانت تعيش في

فجر سنة ١٩٣٨ في أمن وراء استحكامات قوية ولها جيش عظيم وتستند إلى حلفاء أقوياء في الشرق والغرب، لم تلبث بعد تسعة أشهر أن وجدت نفسها غير قادرة على الفكاك من محاولة تمزيقها وابتلاعها، بل وعاون أصدقاؤها أعداءها في هذه المحاولة، ولو كان هتلر لم يفعل شيئًا غير غزو تشيكوسلوڤاكيا دون أن يطلق طلقة واحدة لكان هذا كافيًا لتخليده في سجل التاريخ كسيد الحرب السياسية، ومع أن جوبلز وجورنج قد لعبا دورهما بمهارة. وبالرغم من أن القوات الألمانية Wehrmacht قد وقفت في الجبهة الأمامية على أتم استعداد فإن هتلر هو الذي خطا الخطوة الحاسمة والتقط الثمرة.

والواقع أن الاستراتيـچية النازية لم ترسم خطًّا واضحًا بين الحرب والسلم، واعتبرت الحرب لا السلم الصورة العادية للمجتمع. ولما كانت الحرب بالنسبة للنازية لا تقصر أساسًا على العمليات العسكرية، فإن سياسة الدولة في الوقت الذي يُقال له «**وقت السلم**» إنما هي فقط استراتيـچية في خطوط واسعة تستخدم الاقتصاد وغيره من الأسلحة غير العسكرية.

وقد كتب أحد رجال هتلر السابقين: «**وقد استمر استخدام الحرب السياسية ليس فقط لجعل الموقف التكتيكي يتحول إلى موقف في جانب تحقيق الانتصارات دون إراقة الدماء، بل وأيضًا لتقرير المسائل الأخرى التي يجعلها الموقف السياسي صالحة للتسوية تبعًا لأهداف «الاشتراكية الوطنية»**»، ومن الممكن أن يتضح لنا هذا النشاط السياسي في الطابع الجديد الذي سارت كل التحركات التالية، ضغط تصحبه تهديدات مفاجئة حينًا في نقطة ما وحينًا في نقطةٍ أخرى، ونشاط لا نهاية له يعمل لإجهاد الخصوم، ممكنًا

من فصل بعض المسائل عن غيرها، وإشاعة الفرقة في المعسكر المضاد، ومع تبسيط المشكلات حتى لا تكون صالحة للحل دون تعقد أي بدون حرب».

وكان الاستعداد العسكري لألمانيا النازية مرحلة واحدة من مراحل نشاطها الثوري، وقد صمم هذا على أساس جعل الاعتداء المسلح – عند الضرورة – مؤكد النجاح.

«**ولم يكن الهدف مجرد مد الحدود السياسية والاستيلاء على أرض جديدة بل كان في نفس الوقت مد الثورة الطغوائية إلى البلاد الأخرى، وكان هذا في إيجاز نقلًا للأسلوب الحديث للانقلابات (لحركات الانقلاب) إلى الميدان الدولي**»، ومع جعل القوة العسكرية النازية تقوم بنفس الواجبات التي للثورة المسلحة في حركات الانقلاب الداخلية، وبهذه الوسائل استطاع هتلر أن يحدث تغييرات سياسية واسعة النطاق دون إراقة دماء مستندًا إلى تسليح قوي كتهديد بالحرب لا كآلة للقتال فعلًا[١].

وقد حذر «**السير إريك فيبس**» سفير بريطانيا في برلين، حذر حكومته في نوفمبر سنة ١٩٣٣ من الأحوال في ألمانيا تحت حكم هتلر «**ليست هي الأحوال العادية في أمة متحضرة، وأن الحكومة الألمانية ليست حكومة عادة متحضرة ولا يمكن التعامل معها على أساس هذا**»، ولكن «**السير إريك**» لم يجد أذنًا صاغية في الهوايت هول حيث كان الناس يعتقدون بأن النازية «**حركة انتعاش قومية**» أكثر من أن تكون «**حركة يعقوبية مسلحة**»[٢][*].

(١) Hermann Rauschning, The Voice of Destruction (New York, ١٩٣٩), pp. ١٣٩ - ١٤٠.

(٢) G. P. Gooch, Studies Diplomacy and Statecraft (London ١٩٤٢) Chap. VI. pp. ٢١١.

(*) "Jacobinism" «العقيدة السياسية لليعقوبيين ويقصد بها السياسيون الراديكاليون»=

***

كانت استراتيـچية هتلر في السلم والحرب استراتيـچية تقوم على الإرهاب، فهو لكي يصل إلى القوة في ألمانيا كسب معركة الطرقات في ألمانيا، ولكي يبقى في الحكم عذب وسجن وذبح أعداءه، وليشق طريقه في أوروبا استخدم نفس هذه الوسائل فيما وراء حدود الرايخ.

وكان السلاح الجوي الألماني قد نظم بخاصة ليكون وسيلة من وسائل الإرهاب، وربما يكون السلاح الجوي أكثر من أي شيء آخر كان هو الذي سبب استسلام بريطانيا وفرنسا في ميونخ، وقد بذلت كل محاولة ممكنة للدعاية في الخارج لقوة السلاح الجوي الألماني، وكان صفوة الزوار لا يشاهدون فقط قوة الطائرات الألمانية، بل ويمكنون أيضًا من مشاهدة قدرة ألمانيا على إنتاج الطائرات، وكانت نظرية دوهيه عن السلاح الجوي (راجع الفصل العشرين) هي العقيدة التي تقبلتها القيادة الألمانية العليا.

وقد كتب الميـچور (الرائد) چورچ ڤيلدنج اليوت في سنة ١٩٣٩ :

«والإجابة واضحة ميسورة للرد على أولئك الذين يقولون بأن السلاح الجوي والتهديد بالسلاح الجوي سلاح ذو حدين يقطع في كلا الاتجاهين، إن هذا ليس بالأمر المستطاع مع هذا التقسيم الأيديولوچـي الذي تعانيه أوروبا بانقسامها بين ديكتاتوريات وديمقراطيات، إن الدكتاتوريين يستطيعون التهديد ويستطيعون الاغتصاب والسلب، ولكن الأحرار لا يستطيعون هذا، وسلاح السلب والاغتصاب في الصراع الدولي لهو السلاح الذي يستطيع الديكتاتور وحده أن يستخدمه استخدامًا مؤثرًا، ذلك لأن

=معجم ويبستر ص ٧٨١".

الديكتاتور تكون نواياه مُبهمة وأهدافه غامضة ويكون اسمه رمزًا للإرهاب، إن السرقة أو الاغتصاب هو الطابع الذي يسود أوروبا اليوم لا أي شيءٍ آخر، والاغتصاب غير مُستطاع إلا مع وجود القوة الجوية»[١].

ولكن هذا الاعتماد الرئيسي على الإمكانيات الإرهابية التي للسلاح الجوي لم يكن في صالح «**اللوفتواف**» Laftwaffe السلاح الجوي الألماني عندما واجه أعظم اختبار له فوق بريطانيا سنتي ١٩٤٠، ١٩٤١[٢].

فإذا ما أعدنا النظر إلى حوادث السنوات ١٩٣٣ – ١٩٣٩ أمكن أن نصل في عجلة إلى رأي نهائي بأن استراتيـچية هتلر السياسية كانت سلسلة طويلة من الانتصارات وأنه لم يرتكب خطأ واحدًا، ولكن الاعتبار أو الإدراك الناضج للحقائق يصل بنا إلى أن «**الكل**» يختلف عن قيمة جمع الأجزاء فرادى، وأن عدم ارتكاب أي خطأ كان خطأً عظيمًا؛ ذلك لأنه كان من المؤكد أن يجئ الوقت الذي لا يمكن فيه خداع العالم واغتصابه مهما كانت تكاليف المقاومة، ومع الوقت وصل الشعب البريطاني إلى أن السلم لن يمكن اكتسابه إلا «**بالدم والعرق والدموع**»، وكان القرار الإنجليزي بضمان استقلال بولندة وما تبعه من العمل لتحقيق هذا الضمان هو علامة فشل هتلر في كسب كل ما اعتبره ضروريًّا لنجاح خطته: خطة الإبقاء على الإمبراطورية البريطانية في حياد إن لم ترتبط بصداقة وطيدة.

---

(١) Edmond Taylor, The Strategy of Terror (Boston, ١٩٤٠). Bombs Bursting in Air (New York, ١٩٣٩), pp. ٨٠ – ٨١ وللاطلاع على دراسة قيمة عن تكتيكات الاغتصاب في حكومة ألمانيا الإمبراطورية قبل سنة ١٩١٤، راجع كتاب السير آير كراو ص ٤١٦.

(٢) A. P. de Seversky, Victory Through Air Power (New York, ١٩٤٢), Chap. III.

- ٣ -

كانت ميونخ وما تبعها من احتلال ما بقي من تشيكوسلوڤاكيا في سنة ١٩٣٩ آخر الانتصارات التي حققها هتلر دون سفك دماء، ومع أن حوادث السنوات ١٩٣٩ – ١٩٤١ لا تزال تعطيه فرص إيضاح تأثير الحرب السياسية السيكلوچية إلا أن أيام العمل الكامل دون إجراء عسكري كانت قد انتهت ولا شك.

وقد يكون الوقت ما زال مبكرًا لكتابة دراسة نهائية عن هتلر كإستراتيجي عسكري كان التاريخ لن يقدم عنه حديثًا طيبًا، ولسنا نعرف إلا القليل عن العوامل المتحكمة في حملات بولندة والنرويج والأراضي الواطئة وفرنسا ليمكن توجيه المديح والإطراء، أو توجيه النقد واللوم للاستراتيچية وللتكتيكات الألمانية. ولكن مع تقديرنا أنه في الدولة الطغوائية يُملي الديكتاتور أوامره، فإن هتلر في الواقع يستحق التقدير في توجيهه للحرب حتى يوليو سنة ١٩٤٠، فهو قد أمسك بتلابيب خصومه فُرادى كلٌ على حدة، فهو قد غزا بولندة قبل فرنسا، واجتاح فرنسا قبل أن يهاجم بريطانيا، وكانت حملة النرويج واحدة من أروع العمليات العسكرية في التاريخ الحديث، فقد وضعت ليس فقط لوقاية الجناح الشمالي لألمانيا بل لتوجيه ضربة لها خطرها ضد القوة البحرية الإنجليزية.

ولقد أبرز السير هلفورد ماكيندر دائمًا أن سيطرة أي دولة عسكرية على منطقة طويلة على الساحل الأوروبي تضعف ولا شك من السيطرة الإنجليزية على البحار، وقد أخذ بهذه العقيدة كارل هوزهوڤر والـچيوبوليتيكيون المُحدثون، وغزو ألمانيا للساحل الأوروبي من «**نارڤيك**» إلى الحدود الأسبانية لم يكن جرحًا قاتلًا للقوة البحرية الإنجليزية، ولكن لا

شك في أنه جعل المعركة صعبة جدًّا ضد الغواصات، ومن ثم فقد زاد من الجهد على الشعب البريطاني وعلى طاقته للمقاومة.

وكانت هزيمة فرنسا عملية خاطفة توافرت لها الكفاية والإرهاب إلى غاية ما يمكن أن تتوافر، وكانت الخطوة الضرورية الأولى لأي غزو ألماني لأوروبا على ما قال هتلر سنة ١٩٢٥.

* * *

ولكن لم تلبث الأوضاع بالنسبة لهتلر وبالنسبة للخطة النازية للحرب أن سارت في اتجاه سيئ، وكان تردد هتلر وحرصه وعدم مهاجمته لبريطانيا إثر دنكرك مباشرة عندما كانت بغير دفاع ودون أي تنظيمات عسكرية قد أفقدت هتلر الفرصة الفذة الوحيدة التي كانت تضمن له كسب الحرب، ثم كانت هزيمة السلاح الجوي الألماني في معركة بريطانيا هي نقطة التحول في الحرب.

على أن هتلر ارتكب في نفس الوقت عدة أخطاء في التقدير السياسي، فإن تعامله مع الشعوب المهزومة عن طريق الخونة أمثال كويزلنج ولاڤال قد فرض على هذه الشعوب عبء «**المتعاونين**» أنصار المحتل وأدى بعد قليل إلى حكم الإرهاب[١].

وكان النظام الجديد – الذي كان من الممكن أن تنظر إليه الشعوب

(١) لدراسة العمليات الاقتصادية الألمانية في المناطق المحتلة راجع:

Thomas Reveille, (Pseudonym For Rifat Tirana) The Spoil of Europe: The Nazi Technique in Political and Economic Conquest (New York, ١٩٤١).

T. D. Kernan, France on Berlin Time (New York, ١٩٤٢).

المحطمة في أوروبا على أنه محاولة تستحق التجربة والاختبار – رمزًا للاضطهاد والكبت والاستغلال.

وكان معنى الهجوم على الاتحاد السوڤيتي أن ألمانيا في السنوات ١٩٤١ – ١٩٤٣ مثلها كما كانت في السنوات ١٩١٤ – ١٩١٨ عليها أن تحارب في جبهتين، وأن تحارب حرب إجهاد كما أثبتت الحوادث فعلًا.

وقد وجد هتلر نفسه في نفس الوقت الذي كان فيه الإمبراطور غليوم الثاني، هذا الإمبراطور الذي نقده هتلر نقدًا مرًا عنيفًا في كتابه «**كفاحي**».

لقد تعلم هتلر ما تعلمه كثير من الغزاة قبله من أن المعارك النهائية وحدها هي التي تقرر مصائر الحروب.

❊ ❊ ❊